



العدد العشرون – ربيع/صيف ٢٠٢٤

- رئيس الجامعة الدكتور ميشال معوض يطلق برامج المئوية الأولى
- الأمثال اللبنانيّة: وجه الحياة النابض

مَلَفّات العدد

- عشر سنوات على غياب سعيد عقل
- عصر الرحباني وفيروز
- مئوية «مُلوك العرب» لأمين الريحاني

1924
2024
LAU
INNOVATING
EMPOWERING
EVER-GIVING



أكاديميّة مُحَكَّمَة تَصدر مرتين في السنة
يَنشُرُها
مركز التراث اللبناني
في
الجامعة اللبنانية الأَميركية LAU

الإدارة والتحرير

مركز التراث اللبناني - الجامعة اللبنانية الأَميركية - قريطم - بيروت
هاتف: **٦٤ ٦٤ ٧٨ ١ ٩٦١ + (المقسّم ١٦٠٠)**
ص ب: **٥٠٥٣ - ١٣ بيروت - لبنان**
clh@lau.edu.lb
www.lau.edu.lb/centers-institutes/clh
مجلة مرايا التراث Facebook: Mirrors of heritage

تصميم و إخراج STRATCOM–LAU

صورة الغلافين: مؤتمرات «مركز التراث اللبناني» الثلاثة في مئوية الجامعة



العدد العشرون - ربيع/صيف ٢٠٢٤

... وإِلى المئوية الثانية

هنري زغيب
رئيس التحرير

(مُهداة إِلى رئيس الجامعة الدكتور ميشال معوَّض)



د. ميشال معوَّض راعي المئوية الأُولى

ما كان يمكن أَن تمرَّ الذكرى المئويةُ للجامعة، ولا تكون «مرايا التراث» في طليعة الاحتفاء بها، مناسبةً ساطعةً للتذكير بما أَنجزَتْهُ هذه الجامعة الكُبرى من مآثرَ طيّبةٍ تربويًّا ووطنيًّا للتعليم العالي في لبنان.

وفي كلمة رئيس الجامعة الدكتور ميشال معوَّض (ص٧–١٤) لُمَحٌ مُشَرِّفةٌ عن تلك المآثر والإِنجازات.

«مركز التراث اللبناني» – الذي ترعاه رئاسةُ الجامعة وتحيطُه بعنايتها وتعاوُنها وتسهيلاتها جميعُ دوائر الجامعة – كانت له إِسهاماته في الذكرى المئوية، منبريًّا عبْر ندواته الشهرية هذا العام الجامعي، وأَخصُّها ثلاثة مؤْتمرَات: «سعيد عقل في العاشرة على غيابه»، «عصر الأَخوين رحباني وفيروز»، ومئوية كتاب «ملوك العرب» لأَمين الريحاني.

هذا منبريًّا. أَمَّا توثيقيًّا فهي ذي «مرايا التراث» تنشُر في هذا العدد نصوصَ المؤْتمرات الثلاثة، كي لا تكون النصُوص القيِّمة غابت بعد إِلقائها على منبر الجامعة، بل تبقى مراجعَ أَكاديمية معمَّقة لمن يقارب مواضيعها لاحقًا.

ومع نصوص المؤْتمر، ثلاثةُ نصوص أَكاديمية مُوَثَّقة تدخل في سياق رسالة هذه المجلة لنشْر دراسات عن تراثنا الغني.

سوى أَن مناسبة المئوية تستأْثر بالاستذكار. لذا تتشكَّل لها وبها هذه الافتتاحية. فالجامعة، بكل وَقار السنوات المئَة، مدَّت يدَها المبارَكَة كي تُضيْءَ فجرَ المئوية الثانية.

ها المئةُ الأُولى انقضَت (١٩٢٤–٢٠٢٤)، مختزنةً في وجدانها ١٠٠ ربيع من الصبا الدائمِ الحاملِ في وُرُوده مواسمَ العطاء.

أَيُّ عطاءٍ أَسمى من رسالةٍ بدأَتْ ضئيلةَ الاتساع وَنَمَتْ جليلةَ الإِبداع! منذ ولادتها (١٩٢٤) أَولَ «كلية التعليم العالي للبنات» في لبنان والشرق الأَوسط، راحَت حُبوبُ قمحها تَتَسَنْبَلُ حتى بلغَت مئةً من السنوات الخصيبة بإِطلاق أَفواجٍ من الأَجيال عامًا بعد عامٍ في فضاء لبنان والعالَم.

واثقةً كانت خطواتُها منذ البدايات، وراحت تنمو في ثقة التقدُّم نحو بناء الفرد فالمجتمع فالوطن.

ولا تكتفي طُموحًا: من بناءٍ بسيطٍ (١٩٢٤) على تلَّةٍ في رأْس بيروت أَخذ يتَّسع مبنى بعد مبنى، إِلى حرمٍ على تلةٍ في «بلاط» – بيبلوس (١٩٩٢) ما زال يتَّسع صرحًا بعد صرحٍ.

ولا تكتفي طُموحًا: من رأْس منارتها على تلَّة رأْس بيروت، امتدَّ طُموحها إِلى ما وراء البحار ففَتَحَتْ قلبَ مانهاتن-نيويورك (٢٠١٣) وأَنشأَت فيه مركزًا أَكاديميًّا نموذجيًّا فريدًا بين رفيقاتها جامعات الشرق الأَوسط،

منبرَ حوارٍ ثقافي حضاري يُشَكِّل أَرقى واحةٍ للتَوَاصُل بين الشرق والغرب، حتى بلغَ قبل أَسابيع أَن يكون (بعد بيروت وبيبلوس) حَرَمًا متكاملاً ثالثًا للجامعة.

ولا تكتفي طُموحًا: من ثلاث خريجات سنة ١٩٢٤ إِلى ٥٣ أَلفًا العامَ الماضي، إِلى ٨٧٠٠ طالبة وطالب هذه العام.. أَهي جامعةٌ أُمٌّ؟ أَمْ أُمٌّ جامعة؟ يقيني خصوصًا أنها الأُمُّ التي لا تنفكُّ تجمَع القمح ولا تكفُّ عن عطائه سنابلَ معرفةٍ وتربيةٍ وثقافةٍ هي ثالوثُ التعليم العالي في ذروة ثرائه.

ولا تكتفي طُموحًا: يوم التحقْتُ بها (٢٠٠٢) لتأْسيس «مركز التراث اللبناني» باقتراحٍ من نائب الرئيس يومها د. نبيل حيدر، كانت ولايةُ رئيسها د. رياض نصَّارٍ تتهيَّأُ لتسليم الأَمانة بعد ٢٢ سنة (١٩٨٢–٢٠٠٤) من العمل الهرقليّ لنهضة الجامعة في حرَمَيها. وكان أَن تَسَلَّم الشعلةَ د. جوزف جبرا وواصل نهوضَها بجهودٍ فائقةِ الوصف طيلة ١٦ سنة (٢٠٠٤–٢٠٢٠) فرفَع مجدها أَعلى من كلِّ تصوُّرٍ، وأَحيا أَحرامَها الثلاثة كما في الأَعاجيب. ومنذ سنوات أَربع (٢٠٢٠–٢٠٢٤) ورئيسُها الحالي د. ميشال معوّض يَقُودُها بدُربتَيْن: مهارته كطبيب جرَّاح، وحذاقته كحكيمٍ حازم على تواضع، حاسم على أَناةِ حوار. ومن إِيمان رئاسة الجامعة بدورِ «مركز التراث اللبناني» فيها، يسجِّل «المركز» عامًا بعد عام تطوُّرَ رسالتِه مطبوعاتٍ ومنشوراتٍ ونـدواتٍ ومؤْتمراتٍ على منبرها الّذي يَستقطب محاضرين لبنانيين وعالَميين إِلى أَبحاثٍ تراثية وثقافية بلغَت المئات اليوم، وهي إِلى مزيد.

ولا تكتفي طُموحًا: مع تَوَسُّع الحَرَم الجامعي الجميل على التلَّة الجميلة، تغيَّر اسمُها (لا هويتها) من «الكلية الأَميركية للبنات» (١٩٣٣)، إِلى «كلية بيروت للبنات» (١٩٥٠)، إِلى «كلية بيروت الجامعية» (١٩٧٣)، إِلى سُطُوع اسمها الحالي «الجامعة اللبنانية الأَميركية» (منذ ١٩٩٤). وبين تغييرِ اسمٍ وآخَرَ بقيَ شعارُها واحدًا بِمُثَلَّثِها الأَكاديمي الذهبي: «الابتكار المُوائِم، التمكين المُلائِم، العطاء الدائِم».

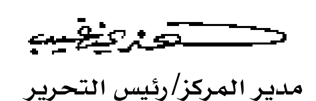
ولا تكتفي طُموحًا: من اختصاصٍ إِلى آخَر، من كليةٍ إِلى أُخرى، من جناحٍ ثقافيّ وبحثيّ ومتخصصٍ إِلى سواه (فيها حاليًا ٢٢ مركزًا ومؤَسسة)، من مركزٍ طبّي إِلى آخَر (مستشفى رزق في الأَشرفية، مستشفى مار يوحنا في جونيه)، من مشاريعَ واتفاقاتٍ إِلى بروتوكولات ومعاهدات مع مؤَسسات

علْمية وبحثية دولية وشركات صناعية، واعتمادات أَكاديمية مع جامعات عالَمية، حتى لهي اليوم تتساوى فاعليةً مع كبريات مؤَسسات التعليم العالي في العالَم، وهدفُها الأَعلى: الإِبداع والبحث والجهد المتواصل لتحقيق المعرفة واحترام حقوق الانسان وكرامته.

الإِنسان.. بلى.. ورئيسُها د. ميشال معوض، في إِطلاق أَعمال المئوية، أَعلَنَها في جبين عالٍ «عروسَ بيروت ولؤْلؤَةَ لبنان» و«جامعة الإِنسان أَولاً وأَخيرًا».

جامعةٌ أُمٌّ؟ أَمْ أُمٌّ جامعة؟ لعلَّها كلتاهما معًا. وعند قولك «الجامعة اللبنانية الأَميركية» يُطالعُك من فضاء التعليم العالي صوتٌ يُعلنها في لبنان واحةً من ضياء وعطاء.

وما أَنبلَ هذا الصوتَ يُعلنُ نهوضَها إِلى فجر المئوية الثانية.



مدير المركز/رئيس التحرير

رئيس الجامعة الدكتور ميشال معوض مطلقًا برامج المئوية الأُولى:
من ٣ طالبات سنة ١٩٢٤ إلى ٨٧٠٠ شاب وصبيّة سنة ٢٠٢٤

الدكتور ميشال معوض
رئيس الجامعة



الرئيس د. ميشال معوَّض يُطلق برنامج المئوية ...

على رغم الأوضاع الصعبة هذه الأيام، في منطقة الشرق الاوسط عمومًا وفي جنوب لبنان خصوصًا، بما ينجم عنها من ضحايا وانتهاكات لحقوق مواطنينا، تبقى فينا ولدينا إرادة الاستمرار في الحياة، تحدونا الثقة الكاملة بأن الانسان سيبقى القيمة الأسمى، وبأن الشعب اللبناني الذي يرفع التحدي دائمًا سينهض من ركام الأزمات في مسيرته نحو المستقبل الأفضل الذي عمادُهُ العلمُ والإبداع والتعليم الجامعي، وهي الأركان الأساسية في مواكبة الحضارة الإنسانية.

نطفئُ شمعة ونضيْء أُخرى

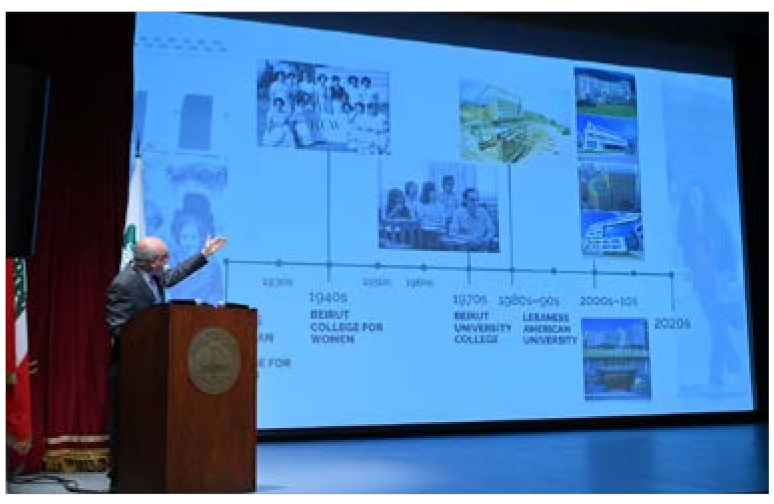
ها هي الجامعة اللبنانية الأميركية (LAU) تطفئ شمعة المئة عام الأُولى التي أُضيئت سنة ١٩٢٤ حاملةً معها رسالة أَمل إلى لبنان والشرق الأوسط، وتضيْء شمعة جديدة يحدوها الأمل بمئوية ثانية تنطلق هذه السنة ٢٠٢٤ بعناوين الابتكار والإبداع والتمكين والعطاء الدائم للإنسان والمجتمع في لبنان والعالم العربي.

ولأن منطقتنا هذه بالغة الأهمية في العالم، انطلقت الجامعة اللبنانية الأميركية من حاجة الإنسان إلى التطور بأرقى المعايير وأكثرها فعالية، ألا وهي قضية التربية والتعليم للاجيال المتعاقبة.

كلية البنات الوحيدة في شرق المتوسط

منذ بدايات جامعتنا، التقط أهل بيروت المعاني العميقة لرسالتها وفاخروا بها وهي في رعاية بعثة الكنيسة الإنجيلية المشيخية الأميركية، وسمَّوها «الكلية عند الهضبة (College on the Hill)»، وهي كانت الكلية الوحيدة للبنات في شرق المتوسط بين اسطنبول شمالاً والقاهرة جنوبًا، وحملت اسم «الكلية الأميركية للبنات (The American Junior College for Women)»، وكرَّست رسالتها التربوية-الثقافية لتعليم المرأة الشرقية، والسير بأحوالها وأحوال عائلاتها ومجتمعها نحو الأفضل.

وتدرَّجت في الخبرة والمستوى وتوسعة برامجها التعليمية الجامعية والإعدادية لتصبح سنة ١٩٤٩ «كلية بيروت للبنات (Beirut College for Women)». وسنة ١٩٧٣ فتحت أبوابها للشباب ولم تعُد حصرًا للفتيات، وأصبحت بتأثير من نجاحاتها وترسُّخ رسالتها: «كلية بيروت الجامعية» (BUC)، ثم تطوَّرت أكثر فأصبحت سنة ١٩٩٤: الجامعة اللبنانية الأميركية (LAU).



... ويشرح بعض إنجازات الجامعة في ١٠٠ سنة...

مواجهة الأزمات

وخلال الحروب والأزمات المتعاقبة التي مرَّت، صمدت جامعتنا بفعل عراقتها وتجذُّرها وإيمانها بالإنسان في لبنان والشرق. ولم تكتفِ بالصمود وتحمُّل وزْرِ المعاناة خلال الأزمات القاسية، بل بادرت إلى ترسيخ حضورها قولاً وفعلاً. وهذا ما أثبتَه حرم بيروت الجامعي على مر السنين فاستمر وازدهر بكليات الآداب والعلوم باختصاصاتها المختلفة، وكلية إدارة الأعمال والاقتصاد وكلية العمارة والتصميم، وثبّتت جميعها شخصيتها التاريخية التي جعلت من جامعتنا منارة أكاديمية مشعة لخير شباب لبنان ومنطقتنا والأجيال الجديدة.

مع نهاية الحروب في لبنان سنة ١٩٩١، توسعت الجامعة إلى حرم جبيل الجديد فتطوّر ليصبح أحد أهم المراكز الجامعية المتقدمة في اختصاصات العلوم الطبية والتمريض والهندسة والكهرباء والكومبيوتر والعمارة والتصميم والذكاء الاصطناعي والفيزياء والكيمياء، إلى اختصاصات أخرى تُميِّز التعليم الجامعي العالي في لبنان.

ولم يتوقف مسار التطوير والابتكار في الجامعة – وهي كانت سباقة إلى إطلاق برنامج تعليم الصيدلة ولا تزال رائدة في هذا المجال – فكانت الأولى بإطلاق برنامج تعليم تصميم الأزياء، وبرنامج الهندسة البترو-كيميائية، وبرنامج الدراسة عن بُعد في اختصاصات عدة. كما كانت جامعتنا سباقة إلى إدراج برامج أكاديمية وتقنية متقدمة، منها: Mechatronics engineering وفنون التواصل، وبرامج جديدة أخرى أدخلت التعليم الجامعي في لبنان والشرق إلى رحاب الحداثة العالمية وتقنياتها من بابها الأوسع.

مؤسسات ومراكز واتفاقات ثنائية

وإلى الكليات المعروفة، تضم جامعتنا ٢٣ مؤسسة ومركزًا للطلاب والمهنيين والمحترفين، وتنشط في مجالات الندوات وورش العمل واللقاءات العملانية والتدريب النظري والميداني، منها، مثالاً لا حصرًا: المعهد العربي للمرأة (AIW) الفريد من نوعه، مركز البرمجة، مركز التراث اللبناني، مركز دراسات الهجرة، مركز خدمات الضيافة والسياحة، مؤسسة لويس قرداحي-LAU للتراث والسياحة، Clinical simulation Center.

وفـي غـمـرة هـذه الـورشـة الـضـخـمـة مـن الـعـمـل الـعـلْـمـي الإبـداعـي المتواصل، نعمل على تطوير قطاع الأبحاث العلْمية والصناعية عبر مراكز عدة، أبرزها: «مركز الأبحاث للأدوية» وهو يسهم بطرق غير مسبوقة بتحسين فعالية قطاع الدواء في لبنان، و«المجمع الصناعي (Industrial Hub)» لردم الهوة بين الأكاديميا والصناعة، ومختبر «الأبحاث الجينية» الأحدث من نوعه في حرَم جبيل بدعم من «الوكالة الأميركية للتنمية الدولية»، و (Fouad Makhzoumi Innovation center)، و (Center for Innovative Learning)، عدا عشرات المشاريع والاتفاقات مع القطاعين العام والخاص في لبنان والعالم العربي والعالم، وبينها كبريات الجامعات والشركات والمؤسسات العالمية وفي طليعتها الامم المتحدة.

بيروت–جبيل–نيويورك

إن جامعتنا فخر اللبنانيين والعرب، فهي مؤسسة لبنانية أميركية ذات أفق لبناني عربي شرق أوسطي، تحمل رسالة الإبداع والتمايز إلى أجيال المستقبل، من خلال أحرامها في بيروت وجبيل ومركز نيويورك الذي افتُتِحَ سنة ٢٠١٣ ضمن رؤيتها المستقبلية، وسعيها إلى التعاون مع أفرقاء كثُر ومؤسسات عدة كي نكون جسرًا بين الشرق والغرب وواحة تلاقُح للثقافات والحضارات العالمية انطلاقًا من السمعة الطيبة والرصيد الضخم الذي نمتلكه. فجامعتُنا في سعي دائم إلى تعميم ثقافتنا ونهجنا في منطقتنا والعالم، وإننا نفخر بعشرات الآلاف من الخريجين والخريجات يساهمون في الحضارة الإنسانية وارتقاء مجتمعاتهم في أرجاء العالم الأربعة.

للمرأة معهد فريد

حملت الجامعة اللبنانية الأميركية LAU، منذ انطلاقتها، رسالة سامية هي قضية النهوض بالمرأة اللبنانية والعربية والشرق أوسطية وتمكينها والمساواة بين الجنسين، وتجسَّدَ ذلك في إطلاق «المعهد العربي للمرأة (AIW)» سنة ١٩٧٣، وهـو احتفل العـام الفائت بمرور ٥٠ عامًا على تأسيسه، وإنه معهد فريد من نوعه والأول في العالم العربي الذي عمل من أجل حقوق المرأة العربية جامعًا ما بين العمل النظري الأكاديمي والدراسات والنضال العملاني، والتعاون مع مؤسسات عالمية عدة لتعزيز قدرات النساء في العالم العربي، ومن ضمنها الأُمم المتحدة. ويلفت أن

سبع سيدات تعاقبنَ على رئاسة جامعتنا خلال فترات تاريخية مختلفة، وهذا أبلغ دليل على الدور المؤثر والنموذجي الذي قامت وتقوم به جامعتنا في تاريخها.

طليعة مؤسسات التعليم العالي

لا يقتصر عمل الجامعة على الإطار الأكاديمي والنظري وحسب، بل يتجاوزه إلى الالتزام بالعمل الميداني على مستويات عدة مع مؤسسات المجتمع المدني المختلفة. من هنا أن الجامعة اللبنانية الأميركية تعمل على البقاء في مصاف كبريات مؤسسات التعليم العالي في العالم، بدليل النتائج المحققة محليًا وعالميًا، وسبيلها إلى ذلك: الإبداع والبحث والجهد المتواصل الذي لا يعرف حدودًا سوى احترام حقوق الانسان وكرامته. ونكاد أن نكون بين قلة من الجامعات في العالم تحظى باعتمادات كاملة لكلياتها من المؤسسات الأميركية المعنية بالاختصاصات الجامعية، فهي جامعة أميركية المنشأ انطلقت لنشر قيم العدالة والحرية والمساواة وتعميمها، وهو ما نفخر به لأنه يمثل قمة الإبداع في الجمع بين النبوغ اللبناني والريادة الأميركية في كل تجلياتها في قطاع التعليم الجامعي العلْمي. وهذا التنوعُّ والتلاقح بين الثقافات ما كان ليتحقق وينمو ويستمر لولا عطاءات فريق العمل في الجامعة اللبنانية الأميركية من مجلس الأمناء إلى فريق الادارة والطاقم التعليمي والبحثي والفريق الطبي وكل عامل في هذه الجامعة على مر السنين.



... ويختم بيانه بالدُعاء إلى المئوية الثانية

عروس بيروت

إن جامعتنا هي عروس بيروت، وكانت تفخر بحمل اسمها على مر السنين من Beirut College for Women إلى «كلية بيروت الجامعية (BUC)»، وهي تحمل رسالة النهوض ببيئتها ومجتمعها وتحرص على الالتزام ببيئتها الحاضنة.

وانطلاقًا من قناعتها بأهمية تمكين المجتمعة ومبدأ العطاء الدائم، أطلقت سنة ٢٠٠٩ المركز الطبي الجامعي في مستشفى رزق فبات من أهم مراكز الرعاية الصحية وتعليم الطب والأبحاث المتصلة به. وإبان الازمة الاقتصادية أطلقت سنة ٢٠٢١ المركز الطبي الجامعي «سانت جون» في مدينة جونية كواحد من أكبر المراكز الطبية الجامعية في جبل لبنان.

ولنا شرف أن نحمل في جامعتنا عناوين الالتزام والمساعدة والتضامن في صلب رسالتنا الأكاديمية التربوية، وأن نكون من نخبة نهضت لمواجهة الكثير من التحديات، منها جائحة كوفيد-١٩ التي تصدّينا لها بحملات طبية في كل لبنان من أقصى الشمال إلى أقصى الجنوب، ووقفنا إلى جانب كل الشعب اللبناني ومعاناته.

تطوير متواصل وتعزيز مستمر

الجامعة اللبنانية الأميركية في حركة لا تهدأ: تُطوِّر برامجها وتُعزِّز التعاون مع المؤسسات الأكاديمية في العالم، ولنا برنامج تعاون واسع مع الوكالة الأميركية للتنمية الدولية لدعم تعليم الطلّاب العرب والأجانب واللبنانيين، وتَبادُل الخبرات والتجارب والدعم المتواصل لمؤسستنا نحو تعزيز بُنَاها التحتية من مختبرات متخصصة ومراكز أبحاث ودراسات ومكتبات.

وخلال ٢٠٢٣، كما الأعوام السابقة، كان لنا شرف تحقيق أرقام متقدمة في نتائج تصنيف الجامعات العالمي في لبنان والعالم العربي الصادرة عن مؤسسات عالمية، أبرزها «مؤسسة تايمز العالمية (Times Higher Education)»، وعلى مستويات عدة منها: أفضل فريق في القيادة والإدارة للعام ٢٠٢٣، تصنيف LAU رائدة على مستوى لبنان في جودة الأبحاث لا سيَّما العلمية منها، وسنة ٢٠٢٣ حلّت جامعتنا في المراكز الأولى لبنانيًا لجهة الشهادات العلمية والأبحاث. ولنا الفخر أن يكون اساتذتنا بين ٢٪

من نخبة العلماء في العالم، إذ نفخر بالتنوع الكبير في صفوف أساتذتنا من جنسيات عدة عربية وعالمية، ونحرص على استقطاب النخبة من بينهم.

في ١٠٠ سنة: من ٣ إلى ٨٧٠٠

إننا جامعة الإنسان أولاً وأخيرًا. وما كنا لنستمر منذ ١٠٠ عام حتى اليوم لولا عراقة مؤسستنا الجامعية والرصيد الهائل من الثقة الذي تجلَّى في ارتفاع أعداد الطلاب من ثلاث فتيات سنة ١٩٢٤ إلى ٨٧٠٠ شاب وفتاة خلال العام الأكاديمي ٢٠٢٣–٢٠٢٤، ومن خلال ٥٣ ألف خريجة وخريج على مر السنين.

ونحن نقف دائمًا إلى جانب طلابنا، لذلك – بمساعدة أهل الخير من المانحين أصدقاء الجامعة ومحبيها وخريجيها، والمؤسسات والهيئات الدولية المانحة من لبنان والعالم العربي وكل أرجاء العالم – بادرنا إلى تقديم المساعدات المالية حتى ٨٠٪ من طلابنا، فتجاوز حجم المساعدات ٢٠٠ مليون دولار أميركي خلال العامين ٢٠٢٢–٢٠٢٣. وتم ذلك بفضل الثقة في العلاقة بين الجامعة وبيئتها، ما جعل ٤٠٪ من طلابنا أول جيل جامعي في عائلاتهم، ما يدل على مدى إيماننا بأن العلم حق للجميع، وأن التعليم الجامعي رسالة إنسانية أولاً وأخيرًا.

إلى كل ما تقدَّم، وعن قناعة وإيمان ينبع من صلب رسالة الجامعة، أنفقنا من رصيدنا عشرات ملايين الدولارات مساعدات للجسم الطالبي كي لا يخسر طلابنا فرصتهم وحقهم في التعليم الجامعي. فنحن نعمل في خدمة المجتمع ومن أجله، وتكفي مقاربة الأثر الاقتصادي الاجتماعي للجامعة على محيطها لتبيان الأرقام الكبيرة التي تضخُّها LAU في الدورة الاقتصادية المحلية، بأكثر من ٢٠٠٠ عائلة من الأطباء والأساتذة والموظفين يعملون في مؤسساتنا الأكاديمية والصحية.

... وإلى المئوية الثانية

من موقع تجذرنا في لبنان نتطلع إلى الأعوام المئة المقبلة، ونرنو إلى المزيد من التطوير في جامعتنا، ومواكبة الحضارة العالمية والتفاعل معها أكاديميًا، وتقديم الأفضل إلى الطلاب والطالبات الساعين إلى التعليم الجامعي المميز والنوعي، بالشراكة والتفاعل مع القطاع الخاص

والمهني، وكل ذلك من خلال رؤيتنا ومقاربتنا العملانية لردم الهوة بين التعليم الأكاديمي وقطاعات الأعمال والصناعة والإنتاج، إضافة إلى تعزيز مؤسساتنا الصحية، علْميًا وعمليًّا، وتوسيع نطاق الوصول إلى الرعاية الصحية والقدرة على تحمُّل تكاليفها. كما نجهد في المستقبل القريب للتوسع إلى محيطنا الأقرب والأبعد، ولدينا خطط عملانية لإطلاق حرم جامعي في إحدى الدول العربية الشقيقة، بعدما نجحنا في تجاوز الصعوبات بالتصميم والإرادة الطيبة والمثابرة، حيال الأوضاع الصعبة في الشرق الأوسط، والتحديات المتراكمة، وأحدثُها مأْساة الشعب الفلسطيني في غزة، وتضحيات شعبنا في جنوب لبنان، مع قناعتنا الوطيدة والدائمة بأن السلام والثقافة والعلوم والتنمية المستدامة تسير جنبًا إلى جنب، وللجامعة دور رئيسي في البحث عن الحلول والعمل على تطبيقها.

وأعددنا لهذه السنة برنامجًا واسعًا من الأنشطة على مستويات عدة، إعلامية ووثائقية وموسيقية وأكاديمية وبحثية علمية، واجتماعية كالتواصل مع الخريجين والمانحين حول العالم، إلى عشاء تكريمي في بيروت والولايات المتحدة وغيرها من العواصم، وفعاليات في المراكز الطبية والصحية التابعة للجامعة، وجملة مناسبات مختلفة لتظهير عناوين هذه المئوية التي تتمثل في الابتكار والإبداع والتمكين والعطاء الدائم.

هذا بعض من رسالتنا، وما سعَينا إلى الشهرة واكتساب المجد بل مبعث فخرنا: الشهادة لنهضة الإنسان في لبنان ومحيطه الأقرب والأبعد، والجامعة اللبنانية الأميركية تقدم نموذجًا إنسانيًا لبنانيًّا أميركيًّا متعدِّد الأبعاد، يجمع العراقة إلى الحداثة والأصالة والتقدُّم، وتمثِّل الانفتاح واحترام الآخر والتعددية والتنوُّع وكل قيم الحضارة الإنسانية.

شُروط النشر في مجلة «مرايا التراث»

يَهمُّ مجلة «مرايا التراث»، إِدارةً وهيئةً علْمية، أَن تلفت الباحثين إِلى التالي:

١. أَن يكون البحثُ المُرسَل أَصيلاً في بابه، غيرَ منشورٍ أَو مرسَلٍ للنشر في مجلة أُخرى.

٢. اعتماد المنهجيّة العلميّة المُتعارَف عليها في المجلات العلميّة المُحكّمة: التوثيق في كتابة الحواشي والأُصول والمصادر والمراجع والمُختصَرات العلميّة.

٣. عدم التهجُّم الشخصي وإِلماحات الأَدلجة والإِسقاطات غير المُسنَدة في مقاربات البحث.

٤. جميع الأَبحاث المُقَدَّمة إِلى المجلة تَخضع لتحكيم اللجنة العلمية، وقد تستعين إِدارة المجلة عند الحاجة بهيئة اختصاصيين تبقى أَسماء أَعضائها طيَّ الكتمان وفق العُرْف الأَكاديمي.

٥. يُرسل الباحث مع نصه ملخَّصًا عنه في نحو ٢٠٠ كلمة بغير لغة بحثِه (بالإِنكليزية تفضيلاً أَو بالفرنسية) تسهيلاً لفَهرسة المجلة وأَبحاثِها في البيبلَيوغرافيا العالَمية.

٦. تحتفظ إِدارة المجلة بِحَقّ النشر أَو برفض أَيِّ بحث لا يستوفي شروطَ النشر أَعلاه.

٧. لا تتبنى إِدارةُ المجلة واللجنةُ العلميّة الآراءَ الواردةَ في الأَبحاث المنشورة، وتبقَى هذه على مسؤُوليّة كُتّابها.

٨. يَحصل كلُّ باحثٍ على ثلاث نُسَخ من العدد عند صدُوره، وعلى نسخةٍ إِلكترونية من بحثه.

٩. تَشكُر إِدارةُ المجلة واللجنةُ العلميّة تعاونَ الباحثين في احترامِ شروط النشر، حفاظًا على المستوى العلْمي في نهج الجامعة، وخدمةً لنصاعة الذاكرة التراثيّة في لبنان.

١٠. يُرسل الباحثون نصوصَهم باسم رئيس التحرير على هذا العنوان:

مجلة «مرايا التراث» – مركز التراث اللبناني

الجامعة اللبنانية الأميركية – قريطم – بيروت

أَو إِلكترونيًّا على عنوان «مركز التراث اللبناني»: clh@lau.edu.lb



تراثُنا الشعبي

د. سلمى عطاالله

الأمثال اللبنانيّة وجه الحياة النابض

الأمثال اللبنانيّة
وجه الحياة النابض

د. سلمى عطالله

أستاذة مشاركة، منسّقة دائرة اللغة العربيّة
جامعة سيّدة اللويزة، زوق مصبح، لبنان

الملخّص:

إنّ الذّاكرة الشّعبيّة لدى مختلف الأمم والدّول والجماعات البشريّة تختزن العديد من المظاهر الثّقافيّة والنّفسيّة والاجتماعيّة. وهذه الثّقافة الشّعبيّة هي التّراث الشّعبيّ الّذي تأْتي الأمثال الشّعبيّة في مقدّمته، لِمَا لها من قيمة كبيرة جعلتها تحتلّ مكانة مهمّة فيه، وتشكّل صورته البارزة الحيّة. فإذا أردت أن تعرف ثقافة شعب فانظر إلى أمثاله.

والأمثال اللّبنانيّة من الأمثال الشّعبيّة، وترتبط ارتباطًا وثيقًا بحياة اللّبنانيّين: تعكس طبيعتهم الّتي يعيشون فيها، وثقافتهم المتوارثة والعريقة والأصيلة الممتدّة في التّاريخ، وفلسفتهم الشّعبيّة، لأنّها تصوّر عاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم وقيَمَهم الأخلاقيّة والدّينيّة ورؤاهم الاقتصاديّة والسّياسيّة والفكريّة والفنّيّة، والأهمّ: حكمتهم. وهي تعتمد على المحطية اللّبنانيّة وتتميّز، كسائر الأمثال، بالإيجاز. بعضُها مبنيٌّ على قصص، ما يؤكّد شعبيّتها وانتماءها إلى الحياة اليوميّة للمواطن اللّبنانيّ.

الخطير في الأمر أنّ رحلة هذه الأمثال شارفت على أن تنتهي في مطاوي النّسيان: غابت عن ألْسنة الكثيرين من أجيال اليوم الّذين يعتبرونها جزءًا من تراث ما عاد يعني لهم شيئًا. ففضاء التّكنولوجيا الواسع الآفاق وثورة الاتّصالات غيّرا الكثير من المفاهيم الاجتماعيّة والثّقافيّة، وألْغَيَا خصوصيّة الكثير من الشّعوب. والتّراث بعامّة والأمثال الشّعبية بخاصّة، دفعا الضّريبة الكبرى في هذا الإطار. لكنَّ على أصحاب الرّؤى أن يتلمّسوا هذه الخطورة، فيعملوا على إحياء التّراث في حياة هذه الأجيال، وخصوصًا الأمثال، وجه التّراث النّابض بالحياة.

الكلمات المفتاحيّة:

الذّاكرة الشّعبيّة - التّراث – الثّقافة والفلسفة - الأمثال الشّعبيّة اللّبنانيّة – اللّهجة المحكيّة اللّبنانيّة – إحياء التّراث.

LEBANESE PROVERBS: THE VIBRANT FACE OF LIFE

Abstract:

The popular memory of various nations, states and human groups, contains many cultural, psychological and social aspects. This popular culture is the popular heritage, in which popular proverbs come at the forefront, because of its great value that made it occupy an important place in it, and constitute its prominent, living image. If you want to know the culture of a people, look at its proverbs.

Lebanese proverbs are popular ones; they are closely linked to the lives of Lebanese people. They reflect the nature in which they live, their inherited, ancient, and authentic culture that extends throughout history, and their popular philosophy, because they depict their customs, traditions, ideas, moral and religious values, their economic, political, intellectual and artistic visions, and most importantly, their wisdom... They are based on the Lebanese colloquial language and, like other proverbs, are distinguished by their brevity. Some of them were based on stories, which confirms their popularity and their belonging to the daily life of the Lebanese citizen.

What is dangerous is that the journey of these proverbs is about to end in the folds of oblivion. They have disappeared from the tongues of many of today's generations who consider them as part of a heritage that no longer means to them... The vast space of technology and the communications revolution have changed many social and cultural concepts, and eliminated the privacy of many people, and made the heritage in general, and popular proverbs in particular, pay the greatest ransom in this context. However, visionaries must foresee this risk and work to revive heritage in the lives of these generations, especially proverbs, the vibrant face of heritage.

Keywords:

Popular memory – Heritage – Culture and Philosophy – Lebanese Popular Proverbs – Lebanese colloquial language – Reviving the heritage.

إنّ الذّاكرة الشّعبيّة لمختلف الأمم والدّول والجماعات البشريّة تختزن العديد من المظاهر الثّقافيّة والنّفسيّة والاجتماعيّة الّتي تجعل الكائن البشريّ داخل نسَق «ما يسمّى بالوعي الجمعيّ، أو الثّقافة الشّعبيّة الّتي تختزنها ذاكرة الإنسان المنتمي إلى بيئة حضاريّة معيّنة.»[1]

هذه الثّقافة الشّعبيّة هي التّراث الشّعبيّ الّذي يعبّر خير تعبير عن حال المجتمع، والّذي يمثّل صورة صادقة لكلّ ما يعتمل في نفوس الأفراد، أو يدلّ دلالة خاصّة إلى نمط معيّن من المعيشة.

الأمثال الشّعبيّة تأتي في مقدّمة هذا التّراث، لِمَا لها من قيمة كبيرة جعلتها تحتلّ مكانة مهمّة فيه، وتشكّل صورته البارزة الحيّة. والإنسان قديمُ العهد بالأمثال الّتي يمكن القول إنّها ظهرت بعد ظهور المجتمعات البشريّة، كونها وليدةَ التّجربة الإنسانيّة في المجتمع.

اهتمّ الفلاسفة بها، حتّى أنّهم تباروا في وصفها. قال الفيلسوف اليونانيّ «أرسطو» (Aresto): «كأنّ الأمثال متخلّفات حكَم قديمة أدركها الخراب فسَلِمَت هي من بين تلك الحكم لمتانتها وجزالة ألفاظها»، وقال الفيلسوف العربيّ «الفارابي»: «المثَل هو ما ترضاه العامّة والخاصّة في لفظه ومعناه حتّى ابتذلوه في ما بينهم وقنعوا به»، وقال المؤرّخ والكاتب العربيّ «ابن الأثير» مشيرًا إلى أهميّتها: «الحاجةُ إليها شديدة، ذلك أنّ العرب لم تضع الأمثال إلاّ لأسباب أوجَبَتْها، وحوادث اقتَضَتْها، فصار المثل المضروب – لأمر من الأمور عندهم – كالعلامة الّتي يُعرف بها الشّيء»، ومنهم قال أيضًا: «إذا أردتَ أن تعرف ثقافة شعب، فانظر إلى أمثاله فهي تمثّل فلسفة الجماهير.» و قالت العرب قديمًا: «الأمثال مصابيح الكلام»[2]...



يا مين عندو راي يهْديني
وجرْعة «صبرِ أيّوب» يعْطيني

الأمثال اللّبنانيّة هي من الأمثال الشّعبيّة، وهي مرتبطة ارتباطًا وثيقًا بحياة اللّبنانيّين، شأْنها شأن سائر الأمثال الشّعبيّة المرتبطة بحياة شعوبها. فما هي

---

١) زناتي، أنور محمّد. **الذّاكرة الشّعبيّة في أمثال الشّعوب العربيّة**. مجلّة الثّقافة الشّعبيّة، العدد ٢٩، folkculturebh.org

٢) **الثّقافة الشّعبيّة والأمثال... مخزون الذّاكرة التّاريخيّ**. عربي بوست، arabicpost.net، ٢٠١٧

الأمثال بعامّة، وما هو تعريفنا إياها؟ ما طبيعتها وسماتها وأهمّيتها؟ ما الّذي يميّز الأمثال اللّبنانيّة؟ وما مضامينها والمجالات الّتي غطّتها؟ هذا ما سنجيب عنه في جزءين: الأوّل يؤطّر ماهيّة الأمثال الشّعبيّة وسماتها ومميّزاتها، فيما يضيء الآخَر على الأمثال اللّبنانيّة...

أوّلاً: في التّعريف بالأمثال الشّعبيّة.

المثل، في اللّغة، هو النّظير والشّبيه، فيقال شَبهه، وشِبهه. أمّا الأديب والمؤرّخ العربيّ «ابن منظور» في «لسان العرب» فيعرّف المثل لغويًّا بقوله: «الشّيء الّذي يُضرَب لشيء مثلاً فيُجعَل مِثْلَه»... كذلك يعرّفه الشّاعر الأندلسيّ «ابن عبد ربّه القرطبيّ الأندلسيّ» بقوله: «وَشْيُ الكلام وجوهرُ اللّفظ، وحَلْيُ المعاني الّتي تخيَّرَتْها العرب ونطَقَ بها كلّ زمانَ وعلى كلّ لسان. فهي أبقى من الشّعر وأشرفُ من الخطابة. لم يسِرْ شيء مسيرها ولا عمَّ عُمومها حتّى قيل: أسْيَرُ من مَثَل»... والمثَل، اصطلاحًا، هو العبارة الفنّيّة السّائرة الموجزة الّتي تُصاغ لتصوير موقف أو حادثة ولاستخلاص خبرة إنسانيّة... وهو الجملة الّتي قيلت في مناسبة خاصّة ثمّ صارت – لِمَا فيها من حكمة – تُذْكَرُ في كلّ مناسبة مشابهة... وهذه الجملة تتمتّع بالعفويّة عبر استخدام لغة العامّة، وتنفرد بابتعادها عن الرّقابة وعدم معرفة قائلها، كما تنطلق من تجربة وقصّة انسانيّة فرديّة. لكنها، مع تكرارها بأفراد آخرين، تتحوّل إلى تجربة جمعيّة يشترك الكثير من النّاس في معايشتها...

يتشابه المثَل والحكمة في كثير من الأحيان بسبب التقائهما في السّرد والإيجاز والسّهولة والخبرة الانسانيّة. مع ذلك هما يختلفان في الهدف والمصدر كما يقول الباحثون المتخصّصون. فالمثَل يكون نتاجًا لموقفٍ لحظيّ يُقال فيه قولاً فيصبح مثلاً... أمّا الحكمة فتعبّر عن تجربة خاصّة يولّدها العقل بعد تحليلها، وهي ليست متاحة لأيّ شخص إلاّ إذا كان عقلانيًّا حكيمًا، فمن «أوتي الحكمة فقد أوتي خيرًا كثيرًا». مع هذا، عندما «سألوا يعقوب الحكيم: كيف تعلّمت الحكمة؟ قال: حفظت ألف مثل...»[٣]

تُعَدّ الأمثال الشعبيّة فنًّا قديمًا ومخزونًا تراثيًّا من أعرق فنون القول لدى البشريّة جمعاء. وهي خزّان ثقافيّ كبير، وجزء من تاريخ أمّة، وسجلّ ومرجع صالح لاكتناه حقيقةِ مراحلَ مولّيةٍ من تاريخ هذه الأمّة أو مراحل تكاد

٣) الرّاسي، سلام. **شيح بريح**. مكتبة نوفل، لبنان، ط٥، ٢٠٠٥، ص ٩٩.

تولّي. وهي مرآة تعكس فطرة هذه الشّعوب وعاداتها وتقاليدها... وهي «صورة صادقة لحياة هذه الشّعوب تتراكم فيها تجاربهم وخبراتهم ومعاناتهم وأحاسيسهم وآمالهم وإدراكاتهم وتفكيرهم وفلسفتهم وحكمتهم بكلّ تنوّعاتها وتناقضاتها. وهي المتنفَّس لمشاكلهم والمعبّر عن همومهم. ومن خلالها تُستكشَف آراؤهم في مختلف شؤون الحياة وموقفهم منها ونظرتهم إلى الكون، وتفسيرهم مظاهرَهَ.»[٤]

الهِنْدام على قدّ المقام

والأمثال ذاتُ طابع تعليميّ وتربويّ لأنّها تُعتبر وسيلةً لتعليم دروس فنّ الحياة بشكل حكيم، إنّما مَرِح. ولأنّها بمثابة معايير أخلاقيّة يضعها عقلاء القوم لتكون ضابطًا سلوكيًّا ومنهجًا أخلاقيًّا لعامّته وخاصّته، يتناقلها الخلَف عن السّلَف جيلاً بعد جيل، فتظلّ محفورة في الذّاكرة الجمْعيّة، تعبّر عن كفاح أبنائها في حياتهم، وتصوّر حياتهم الاجتماعيّة والعقليّة والسّياسيّة والدّينيّة واللّغويّة. فبوساطة الأمثال «نُدرِك أفكار الشّعب وتصوّراته وآراءه ومعتقداته ودرجة ارتقائه أو تخلّفه. فهي تعبير عن فلسفة في الحياة، وعصارة مختلف التّجارب الّتي وسمت العنصر البشريّ في اتّصاله وتواصله بمختلف مناحي الحياة ومكوّناتها.»[٥] وقد قال «سلام الرّاسي»: «ربّ مثل أبلغ من كتاب».

لكلّ عصر مشاكلُه وحلولُه، وكلّ عصر يبتكر علاجًا يعزّز الثّقة، ويحلّ السّكينة ويجّدد الحياة... والأمثال الشّعبيّة تفرزها أحداث معيّنة وحكايات شعبيّة وطرائف، وترسّخها الشّفاه الشّعبيّة نتاجًا جماعيًّا يتناقله النّاس شفاهًا أو كتابة من دون أن يُعرَف قائلُها. ويذهب العالم البولنديّ «مالينوفسكي» (*Bronislaw Malinowsky*) إلى القول إنّ الأمثال «هي حِكَم وقصَص وانتقادٌ لاذعٌ الحياةَ وتعبير شعبيّ يعكس الخلفيّة التّاريخيّة وخبرة الإنسان.»[٦] وقد قيل: «ضَرْب المثل لم يأْتِ إلاّ ردّ فعل عميق لما في النّفس من مشاعر وأحاسيس، نتيجة مؤثّرات شعوريّة اختفت في العقل الباطن، فجاء سلوكه تعبيرًا عن عمق المؤثّرات الّتي دعت إلى ضرب المثل.»[٧]

---

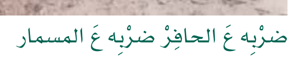
٤) **الثّقافة الشّعبيّة والأمثال... مخزون الذّاكرة التّاريخيّ.**

٥) **الثّقافة الشّعبيّة والأمثال... مخزون الذّاكرة التّاريخيّ.**

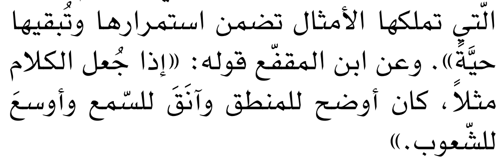
٦) المرجع نفسه.

٧) زناتي، أنور محمّد. **الذّاكرة الشّعبيّة في أمثال الشّعوب العربيّة.**

والأمثال الشّعبيّة «تنبعث من لغة الإنسان اليوميّة. ومن الطّبيعيّ أن تَرِدَ بلهجته الخاصّة ولكْنته المميّزة.»[8] لذا هي وليدة الفطرة السّاذجة، يغلب عليها طابع الارتجال والاشتقاق والمعاني المولّدة. فيما قد يكون المتين بينها من ابتكار شاعر أو واعظ أو مرشد اجتماعيّ. والنّاس ينمّقون أحاديثهم بالأمثال ويستسيغونها بكلّ سهولة لِمَا تحتويه من بلاغة نافذة عبّر عنها شيخ المعتزلة والمتبحّر في علوم الفلسفة «أبو إسحاق النّظام» بقوله: «يجتمع في المثل أربعة لا تجتمع في غيره من الكلام: إيجاز اللّفظ، وإصابة المعنى، وحسن التّشبيه، وجودة الكتابة، فهو نهاية البلاغة». والأمثال، إضافة إلى هذه السّمات، تتميّز بالواقعيّة والدّقّة وبُعد المغزى وبساطة التّركيب وسهولة النّطق والطّلاوة والرّشاقة وخفّة الظّلّ. وفي الأمثال تتزاحم الاستعارات والكنايات والرّموز والطّباقات، وتتراكم التّشابيه المحسوسة لتعكس الأشياء الّتي تُرى وتُستعمل كلّ يوم. أمّا الموسيقى فلا تخلو الأمثال من جرسها، فهي الصّفة الطّاغية فيها بسبب التّناغم بين ألفاظها، والتّناسق بين جملها، والتّجانس بين أحرفها، والتّوازن في عباراتها والتّسجيع في كلامها، بالإضافة إلى استخدام الجناس ممّا يسهّل تردادها وحفظها وربْطها مباشرة بالشّعر الإنشاديّ. يقول المستشرق الألماني «زولهايم» (*Rudolf Sellheim*) في دراسته «الأمثال العربية القديمة»: «الأمثال هي الأنغام الصّغيرة للشّعوب. والخصائص الّتي تملكها الأمثال تضمن استمرارها وتُبقيها حيَّةً». وعن ابن المقفّع قوله: «إذا جُعل الكلام مثلاً، كان أوضح للمنطق وآنَقَ للسّمع وأوسعَ للشّعوب.»



ضرْبِه عَ الحافِرْ ضرْبِه عَ المسمار



والأمثال الشّعبيّة مادّة خصبة للدّراسات السّيكولوجيّة والاجتماعيّة، نستطيع من خلالها أن نحلّل نفسيّة القوم، وأن نبيّن العافية أو الاضطراب النّفسيَّين اللّذَين يُصيبان هذا القوم

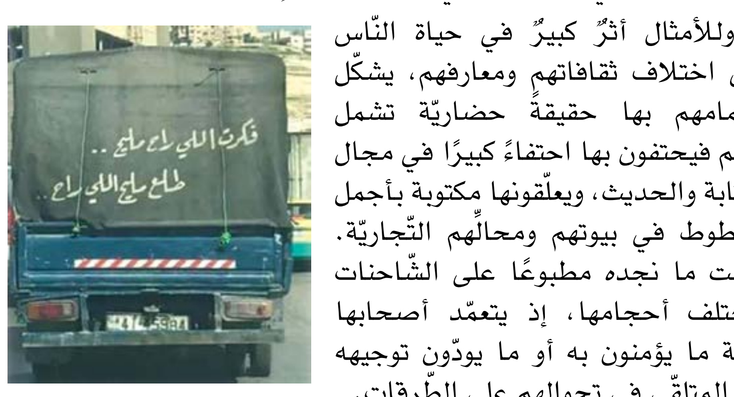


لو العقْل بينْزانْ بالميزان، كان كلّ إنْسان بَيَعْرَف قَدَّيشْ بيِسْوى

٨) طوق، أنطوان جبرايل. **أمثال الأقدمين في جبّة المقدّمين**. ط١، بشاريا للنّشر، ١٩٩٢

في مدّة زمنيّة معيّنة. وتعدّ الأمثال مصدرًا خصبًا لِمَن يريد أن يفهم الشّخصيّة القوميّة ومذهبها الفطريّ في التّفكير وفي الحياة بصفة عامّة. فـ«رصْدُ الخصائص الدّلاليّة للأمثال رصْدٌ خصائصَ الشّعب الّذي ذاع في حياته المثَل وانتشر. فلأمثال في رأي «توريانو» (١٦٦٦م) تمثّل فلسفة الجماهير.»[٩]

الأمثال الشّعبيّة «حياة الشّعوب الخالدة، وإحدى علامات تَمَيُّزها وأحد ينابيع كرامتها. فهي من فنون القول الّتي تعبّر عن عقل هذه الشّعوب وفكرها وثقافتها.»[١٠] تتشابه في مضمونها بين بلد وآخر، وخصوصًا في البلدان العربيّة، ما يؤكّد حقيقة أنّ الخبرة الانسانيّة المشتَرَكَة تتواصل بين الشّعوب وتتجاوز حواجز المكان. هكذا خرجت من أمثلة عدة من البيئة الشّعبيّة اللّبنانيّة، وعرفَت طريقها إلى الشّعوب العربيّة فصارت ملْكَ الجميع، من ذلك: «آخر الطّحين كركعة»، «الحيط الواطي كلّ واحد بيقفز عليه»، و«ضرَبني وبكى وسبَقني واشتكى»، «الإيد الواحدة ما بتزقّف»...



وللأمثال أثرٌ كبيرٌ في حياة النّاس على اختلاف ثقافاتهم ومعارفهم، يشكّل اهتمامهم بها حقيقةً حضاريّة تشمل الأمم فيحتفون بها احتفاءً كبيرًا في مجال الكتابة والحديث، ويعلّقونها مكتوبة بأجمل الخطوط في بيوتهم ومحالِّهم التّجاريّة. ويلفت ما نجده مطبوعًا على الشّاحنات بمختلف أحجامها، إذ يتعمّد أصحابها كتابة ما يؤمنون به أو ما يودّون توجيهه إلى المتلقّي في تجوالهم على الطّرقات.

وبالرّغم من أهميّة الأمثال في حياة النّاس – باعتبارها خبرةً إنسانيّة ضروريّة للتّواصل والاندماج الاجتماعيّ – تجذب الانتباه، وتبعث على الارتياح، وتبثّ الأمل، وتحثّ على العمل وعلى تعلّم الجديد، وتقوّم السّلوك الإنسانيّ، وتَهدي في معترك الحيا، بما تتضمّنه من توجيه أو تنبيه، وتدفع إلى السّلام والنّجاح والتّعاون والرّحمة، وتدعو إلى التّفكير والتّحليل والتّطبيق في مواقف جديدة أو مماثلة، وهذا كلّه يُعَدّ من مهارات التّفكير النّاقد. إلاّ أنّ بعضها يعبّر عن مضامين تبعث على التّشاؤم أو الانهزاميّة

٩) زناتي، أنور محمّد. **الذّاكرة الشّعبيّة في أمثال الشّعوب العربيّة.**

١٠) **الثّقافة الشّعبيّة والأمثال... مخزون الذّاكرة التّاريخيّ.** عربي بوست، arabicpost.net، ٢٠١٧

خصوصًا لدى بعض الشّعوب الّتي وقعت تحت براثن الاحتلال، فيما بعضها الآخر يدعو إلى التّكاسل، ويقلّل من شأن الطّموح والتّطلُّع إلى الأفضل، وهو ما يتطلّب من المتلقّي أن يكون أكثرَ وعيًا عند تلقّي الأمثال، وأكثرَ قدرةً على فرز الغثّ من السمين بينها، وعلى تخطّيها وأخْذ ما ينفع منها.

ثانيًا: الأمثال الشّعبيّة اللّبنانيّة

الأمثالُ الشّعبيّة اللّبنانيّة متعدّدة المصادر، و«لعلّ أبرزَها الخمسةُ التّالية: الأمثال العربيّة الفصيحة، الشّعر والنّثر العربيّان، الدِّينان الإسلاميّ والمسيحيّ، الأمثال الأجنبيّة، الذّاتية اللّبنانيّة.»[11] و«يُعتبر المستشرق السّويدي «كارلو لندبرج» (*Carlo Landeberg*) أوّل من اهتمّ بجمع الأمثال اللّبنانيّة في كتابه الفرنسي «أمثال وأقوال من إقليم سوريا: قطاع صيدا» (١٨٨٣)»[12].

والأمثال اللّبنانيّة تعكس «الثّقافة الشّعبيّة المتوارَثة من جيل إلى جيل، والّتي بقيت إلى الآن لأنّها كانت نتيجة تجارب واختبارات تعايَشَ بها وعليها الآباء والأجداد.»[13] وهذه الثّقافة الشّعبيّة عريقة أصيلة ممتدّة في الزّمن. وهذا يجعلنا نركّز على أهميّة تاريخ لبنان الّذي قال عنه الدّكتور «فيليب حتّي» في كتابه «لبنان في التّاريخ»: «تاريخ لبنان المدوّنُ مديدٌ يشمل خمسة آلاف سنة: أطولُ من تاريخ الولايات المتّحدة الأميركيّة بثلاثين ضعفًا. فأيّ شعب يحقّ له أن يدّعي أنّه وريث العصور كلّها، كما يحقّ للشّعب اللّبنانيّ أن يدّعي؟»[14] ولا يكفي أن نتغنّى بهذه الثّقافة الشّعبيّة، بل علينا أن نعتزّ ونفتخر ونتمسّك بها لأنّها «قوام وحدة الشّعب والوطن»، كما جاء في مقدّمة المؤتمر الثّاني للثّقافة الشّعبيّة اللّبنانيّة في قصر الأونسكو (بيروت ١٩٩٩).

والأمثال اللّبنانيّة تعتمد على المحكية اللّبنانيّة، وكسائر الأمثال تتميّز بالإيجاز («الجارْ لَوْ جارْ». «إبن إبنَك إِلَكْ إبن

١١) يعقوب، إميل بديع. **الأمثال الشّعبيّة اللّبنانيّة**. لبنان: جرّوس برس، ١٩٨٧، ص ٢٥.

١٢) المرجع نفسه، ص ٢٢.

١٣) الرّاسي، سلام. **يا جبل ما يهزّك ريح**. لبنان: مكتبة نوفل، ص ١٥.

١٤) المرجع نفسه، ص ١٦.

بنتَك لَأْ»)، والتّشبيه («متْل سمك البحر: الكبير بياكُل الزْغير». «متْل شِقّ اللِّفِتْ». «اللي بْيَعمل مَعْروف مع واحَد ما بْيَسْتَحِقّو، مِتْل الواقِد الشّمع ببَيت العِميان». «مِتْل السَّلطعون بيمشي بالْوَرِب»)، والاستعارة («جْناح الإمْ بيْلِمّ». «البَيْت اللي ربّاني ما بْينْساني»)، والدّقّة في الألفاظ («يا بادِل السَّخْلِه بْنَخْلِه». «طِلِع منهم شَرْد مَرْد»)، والكناية والرّمز («شَرّيب الدِّخّان ما بْينْسَرق بَيْتو ولا بيْعَضّو كلب». «بيْطَلِّع اللّقمِه من قَلْب الصّخر». «بْيِدْبَحْ بِضُفْرو»)، والسّجع («طول البال بيْهِدّ الجبال». «القَرايِبْ عَقارِب». «فَلاّح مِكْفي سُلْطان مِخْفي». «إِشْقَ تِلْقَ»)، والاستفهام («شو أحلى من العسل؟ قَلّو الخَلّ بِبَلاش»)... وهي تدخل ضمن إطار الأدب، وتحديدًا الشّعبيّ، كما رأى الأديب «سلام الرّاسي»: «الأدب الشّعبيّ أدب التّعبير عن الواقع الإنسانيّ». وهو «أدب النّاس للنّاس».

والأمثال الشّعبيّة اللّبنانيّة تعكس طبيعة البيئة الّتي يعيش فيها اللّبنانيّ، لأنّ خبراته تنبع من واقع حياته وبيئته. فأبناء البيئة السّاحليّة تصطبغ أمثالهم بحياة البحر من مدّ وجزر وصيد وسفن وأمواج عتيّة وسماء صافية ومعاني الاغتراب خلال رحلة البحث عن الرّزق، فيما الأمثالُ الشّعبيّة المستقاة من البيئة الزّراعيّة تعكس قيم الاستقرار والتّعاون والتّفاؤل بالمستقبل حينما يأتي وقت الحصاد بالخير الوفير: «مين زرَع حصَد». ويمكن اعتبارها فلسفةً شعبيّةً لحياة اللّبنانيّ لأنّها مرآة تعكس عاداتِهِ وتقاليدَهُ وأفكارَهُ وقيَمَهُ الأخلاقيّةَ والدّينيّةَ ورؤاه الاقتصاديّة والسّياسيّة والفكريّة والفنّيّة، والأهمّ: حكْمته. وهنا نتذكر ما ذكَره سلام الرّاسي عن يعقوب الحكيم عندما سألوه: «كيف تعلّمتَ الحكمة»؟ أجابهم: «حفظت ألف مثل»[١٥].

بعضُ الأمثال اللّبنانيّة مبنيٌّ على قصص تؤكّد شعبيّتها وانتماءها إلى حياة المواطن اللّبنانيّ اليوميّة. ومن هذه الأمثال قصّةُ مثَل «على هَالحمّص ما فيه عيد» كما يرويها أنيس فريحة: «كان كاهنٌ أمّيّ بسيط يستعين على تذكُّر أوقات الأعياد بوضع كميّة من حبوب الحمّص في جيبه. قبل عيد الفصح دفع بثوبه إلى خادمه لإصلاحه فوقع الحمّص في يَد الخادم فأكله. ثمّ تذكّر أنّ الكاهن ربّما عنّفه على أكلِهِ الحمّصَ فتناول قبضة من الحمّص ووضعها في جيب الثّوب. كان الفصح على الأبواب. وفي الأحد التّالي وقف الكاهن يتلو إعلانات الكنيسة ومواعيد الصّلاة والأعياد: «يا أولادي المباركين على حساب الحمّص ما فيه عيد.»

ومنها أيضًا ما يرويه سلام الرّاسي عن المثل «راح الشّبعانْ وإجا الطِّفرانْ»: «رفع بعض وجهاء بيروت شكوى إلى الباب العالي في حقّ

١٥) الرّاسي، سلام. **شيح بريح**. لبنان: مكتبة نوفل، ص ٩٩.

الوالي بتهمة الرّشوة واستغلال الوظيفة. استدعى الوالي موقّعي عريضة الشّكوى وقال لهم: «كبّروا عقولكم، فما يدفعه الوالي إلى الباب العالي ليصير واليًا، لا بدّ من أن يعود ويجمعه من الأهالي. وأنا جمعتُ ما فيه الكفاية وشبعتُ. فهل تريدون أن يذهب الشّبعان ويأتيكم الطّفران؟». اقتنع وجهاء بيروت وسحبوا الشّكوى. ومن ذلك الوقت صار اللّبنانيّون، كلّما تولّى حاكم أو مسؤول جديد، يقولون: «نرجو ألاّ يصحّ فينا قول المثل: «راح الشّبعان وإجا الطّفران.»[16]

وعن مثل «كلْب المير مير»، روى سلام الرّاسي: «خرج أحد أمراء لبنان إلى الصّيد ومعه كلب عريق أصيل. وحين عَبَرَ الأمير وكلبه أمام حظيرة معّاز، خرج المعّاز مرحّبًا بالأمير وخرج كلب المعّاز من الحظيرة وطبَق بكلب الأمير ودعَكَهُ ومَرمَغَهُ وشرَم أذْنه وجلَف إحدى عينيه. وكان المعّاز يعرف أمير البلاد فانحنى لاثمًا الأرض أمام قدمَيه. لكنّ كلب المعّاز كان غشيمًا في قضايا البروتوكول فكان منه ما كان. انكسر خاطر الأمير وهو يشاهد كلبه ممرَّغًا بين قوائم كلب المعّاز ويعوي عواء المغلوب على أمره، فأمر الأمير بقتْل جميع الكلاب في البلاد انتقامًا لشرف كلبه المُهان، فقيل يومئذ: «كلب المير مير». وجرى هذا القول مجرى الأمثال إلى يومنا هذا.»[17]

ومن الأمثال ما هو مجهول المصدر مِثْل مَثَل «اللي بيعرف، بيعرف. واللي ما بيعرف بيقول كفّ عدس»، وهذه قصّته: «كان لزوجة أحد الفلاّحين عشيقٌ يختلس للاجتماع بها فُرَصًا تقلّ أو تتوافر وفْق ظروف عمل الزّوج. وذات صيف، في موسم دراسة الحبوب وتذريتها على البيدر، أخذ العاشق يجتمع بالزّوجة خفيةً بين أكوام القش وعلى بيدر الزّوج ذاته، تارة ليلاً وتارة نهارًا. لم يكن يصعب على الزّوجة اختلاق الأعذار للاجتماع به. وذات مرةٍ، بعد استغفال طويل، وكان الزوج يغربل كميّة من العدس، ارتاب بأمرها فترك عمله وتسلّل إلى حيث ظنّ أنّهما اختبآ، فضبَطَهما في الجرم المشهود. هرب العاشق مارًّا على كومة عدس آخذًا منها حفنة في يده والزّوج لاحق به سابًّا شاتمًا مهدّدًا. هذه المطاردة أثارت انتباه الجيران فلحقوا بهما متسائلِين مستوضِحين مهدّئِين. أخذ العاشق الراكض يقول لهم إنّه أراد المزاح بخطْف حفنة عدس. وبتهدئة الزوج بقولهم إنّها حفنة عدس لا قيمة لها والقضية قضيّة مزحة،كان يجيب راكضًا يكاد الغيظ يخنقه: «اللي بيعرف، بيعرف. واللي ما بيعرف بيقول كفّ عدس».

١٦) الرّاسي، سلام. **شيح بريح**. لبنان: مكتبة نوفل، ص ١٤٩.

١٧) الرّاسي، سلام. **ثمانون**. لبنان: مكتبة نوفل، ص ١٠١.

غطّت الأمثال بمضامينها مرافق الحياة وأحوالها، ما جعلها ملتصقة بحياة اللّبنانيّ معبّرة عنها. وهنا مجموعةُ أمثال تشكّل بمضمونها عيّنةَ أمثال لبنانيّة ضئيلة تحتاج لجمعها أوسع من مجرّد مقالة.

١. أمثال تحفّز على الحياة الأخلاقيّة

بعض الأمثال تدعو إلى الإضاءة على فضائل ورذائل، كما تعديل السّلوك السّيّئ، أو التّمسّك بالسّلوك الحسن وتقويته وتعزيزه في المجتمع: «مين حفَر حُفرَه لخيّو وقَع فيها»، «إقنَعْ تِشْبَعْ»، «الوَعْد عَهْد»، «أدِّب وَلَدَك لو زِعْلِتْ إمّو»، «اعْدُلِ العَوْجَه ولو في يوم فَرَحْها»، «اللي تِسْمَع كَلام أبوها كِلّ النّاس يحبّوها»، «اعمِل مْنيح وكِبّ بالبحر»، «الإحسانْ بْيِقْطَع اللّسانْ»، «إذا عْمِلِتْ مَعْروفْ اسْتِرو، وْإذا نِلِتْ مَعْروف انْشُرو»، «كْبير القَوْم خادِمْهُم»، «إبن الْحَلال عِنْد ذِكْرو بِيْبان»، «لا تِشْرَبْ مِن البيرْ وْتِرْمي فيهْ حَجَر»، «مِيْن ساواكْ بِنَفْسو ما ظَلَمَكْ»، «بْيِحكي قدْ قاضي معزول»، «حِكْم التّراضي خَيْر مِنْ



بينام عالكرْسي، ضَميرو مسْتريح
ما صَحّ عنْدو بالحياة إلاّ الصّحيح

حِكم القاضي»، «مين رادَك ريدو، ومِنْ فَضْلَك زيدو»، «الأرض الواطْيه بْتِشْرب ميِّتا ومَيِّة غَيْرا»، «ما حَكّ جِلْدَك متْل ضِفْرك»، «أهْل الكرامات إلْهُمْ عَلامات»، «كِلْ عِقْدِه وْلِها عِنْد الكريم حَلاّل»، «خَيْر النّاس مين عَذَر النّاس»، «الحقّ لَمين صَدَقْ مِشْ لَمين سَبَق»، «كِذْبْ يِنْفَع وْلا صِدْقْ يْضُرّ»، «ما بيْصِحّ إلاّ الصَّحيح»، «اتْرُكِ الشّرّ بْيِترْكَكْ»، «الرّذيل بيْوَرِّتْ لَأهلو الْمْسَبِّة»، «الجَرَب مِشْ عَيْب، العَيْب عَ اللي ما بيشيلو»، «العَنيد بْيوقَعْ عَ راسو شَكّ»، «البَطَرْ بْيِعْمي البَصَر»، «كِلّ مين بيحِشّ لَكْديشو»، «بْيِحْرق حارَه تَ يْوَلِّع سيجاره»، «بَيِّنْ عِذْرَكْ وْلا تْبَيِّنْ بُخْلَك»، «عَطاه مِن الجمَل إذْنو»، «دينار البَخيل حَجَر»، «مين صَرَف وْما حَسَب خِربْ وْما دِري»، «ما رَح يخلّي للوِرّات إلاّ ورق الكِرّات»، «إذا بْغُضِتْ خَلّي للصِّلح مَطْرح»، «عين الحسود فيها عود»، «العين الحاسدِه تِبْلى بالعمى»، «بْياكُل خِبزك وبْيِدْعَس عَ كَعْبَك»، «بْيِقْعُد بِالْحضن وبْيِنْتُفْ بالدَّقنْ»، «بِالْوِجّ حَلّيسْ وْبِالْقفا قَرّيص»، «بيروح مَعْ إمْ العروس وبْيِرجع مَع إم العَريس»، «مِتْل الحيِّه تحت التِّبنْ»، «بَس تْشيل إيدَكْ مِنْ تِمّو بيْبَطِّلْ يعرفَك»، «بْيِسْرِق الكِحلْ مِن العَيْن»، «الدِّني كانِتْ لَتْنَيْن وما شَبَّعِتُن»، «الطَّمع ضَرّ ما نَفَع»، «الأسى ما بْيِنْتَسى»، «وَصَّلونا لنُصّ الدَّرب ومِشْيو بِالْوَرِبْ»، «الغَضْبان

خَيّ الْمَجنون»، «السَّبَلِه العالْيِه فارْغَه»، «الطّاسِه الفارْغَة بِتْطُنّ»، «حَبْل الكذب قصير»، «يلّي بيتطَّلَّع لَفَوق بْتوجَعو رقِبْتو»، «يا أرض اشْتَدّي ما حَدا قَدّي»، «الحجَر التّقيل ما بْيِنْهِزّ من مَطْرَحو»، «القوي بَدّو قوي، والرّقص بَدّو حَنْجَله»، «كَشِّرْ عَ نْيابَك كِلّ النّاس بِتْهابَكْ»، «الصّبر مفتاح الفَرَجْ»، «طُول البالْ بيهِدّ الجبال»، «دَوا الدَّهر الصَّبر عليه»، «طول البال بيشيل مِن الحامِض حِلو»، «إبن آدَم بيضَلّ مِتْأَمِّل تَ يِتْحَمَّلْ»، «القَناعه غِنى»، «على قَدّ بْساطَك مِدٌّ إجْرَيْك»، «الخَصْلِه بِالبَدَن ما بيغَيِّرها غَيْر الكَفَنْ»، «قول الحقّ ولَوْ على نفْسَك»، «اخفُض صوتك وقوّي حِجّتَك»، «مين جمّل نَفْسو جمّلِتو النّاس ومن زَبَّلْ نَفْسو انْداس»، «لا يموت الدّيب ولا يِفْنى الغَنَم»، «العين بَصيرَه والإيد قَصيرَه»، «بْيَعْمِلْ مِن الحَبَّه قِبِّه»، «بيصيح مع الرّاعي وبْياكُل مع الدّيب»، «واحَد حامِل دَقْنو والتّاني تِعْبان فيا»، «اللي بْيِتْدَخَّل بِشي ما بْيَعْنيه بْيِسْمَع شي ما بْيِرْضيه»، «اللي بْيِجي مِنْطَبِّلو واللي بيروح مِنْزَمِّرْلو»، «اعْطي الحقّ وْزيد العناد ما بيفيد»، «بْيِسْرُق الكِحْل مْنِ العَيْن»...

٢. أمثال تتمحور حول الحياة الاجتماعيّة

عكسَت أمثال شعبيّة لبنانيّة كثيرةٌ الحياةَ الاجتماعيّة وما فيها من ممارسات، كون هذه الحياة محطّ اهتمام اللّبنانيّ وأبرزِ أولويّاته، مثل: «ضَيْفِ الْمَوَدِّه ما بيروح حتى يِبْري اللّحاف والْمَخَدِّه»، «يا بَخْت مين زارْ وْخَفَّف»، «الضَّيْف الْمَشْؤوم بَعْدِ الأَكْل بيقوم»، «الجارْ قَبْل الدّار»، «جار الجارْ وَلَوْ جارْ»، «الغايِب عُذْرو مَعو» ، «لا تْلوم الغايِبْ تَ يِحْضَر»، «يا رايِحْ كَتِّر قَبايِح أو مَلايِح»، «إبنِ الحَلال عِنْد ذِكْرو بيبان»، «تْجَوَّزِتْ أُخْتي يا سَعادِةْ بَخْتي»، «إسْعَ بِجْنازِه ولا تِسْعى بْجازِه»، «لا عِنايِه جَوَّزِتْ عَريس، ولا دَعواه خَزَّقِتْ قَميص»، «إن ضَبَطِت الْمَيْ بِالغِرْبال، بِتْأَمِّنْ الْمَرا للرِّجال»، «يا حَما ما كِنْتِ كِنِّه؟ «قالِت كِنْت وِنْسيت»، «اللي بَدَّك تْصاهْرو لا تْقاهرو»، «أَعْزَب دَهْرْ وْلا أَرْمَل شَهْر»، «إمّو بَصْلِه وْبَيّو تومْ، وِبْيِسْأَل: مْنَيْن ريحة التّوم؟!»، «البَطِن بِسْتان فيه أَشْكال وَأَلْوان»، «إذا ما ساعِتْكُم الدّور بِتْساعْكم الصّدور»، «اللي ما بيِشْرب مِنْ كَفّو ما بْيِرْتِوي»، «اللي ما فيه لَحالو يموت أَحْلالو»، «اللي بْيِحضَر خليفة



متل النَّوَر... كَيْف وطَفَرْ

بَقرْتو (عنزتو) بتْجِيبْلو تَوْم»، «كلّ مين بْيِقْلّع شَوْكو بإيدو»، «الإيد اللي ما فيك تعضّها بوسْها وادْعي عليْها بالكسر»، «لا تْقول لَلْأعور أَعوَر بْعَينو»، «الللي مَنَّك قَدّو لا تِقْعِد حَدّو»، «إللي مونْتَك عْليه اضْحَك عْليه»، «لَمّا أنا أَمير وإنتَ أمير مين بيسوق الحمير؟»، «بكِلّ بَلَد رَبّي إلَكْ صاحِب»، «ما بْتِذِكْروا خَيْرنا حَتّى تْعاشروا غيرنا»، «لا تُربط الجحش حَدّ البغل، إنْ ما تعلَّم لَبيطو بْيِتعلَّم نَهيقو»، «يا مِتلنا تَعا لَعِنّا»، «ما إلَكْ صاحِبْ إلاّ بعِد قَتْلِه»، «داري الجار وَلَوْ جارْ»، «السّرّ بالسّكّان مِشْ بالْمَكان»، «اسأل عن الجارْ قَبْل الدّار»، «سكِّرْ دارَك ولا تِتِّهم جارَك»، «مين جَرَّبْ مْجرَّب كان عَقْلو مْخَرَّب»، «يلّي ما داق الْمِغْرايه ما بْيَعْرف شو الحكايه»، «هالخدّ يا ما مْعَوَّد عَ هاللّطمات»، «لبِّس الْمِدرايه بتْصير مْرايه»، «مِتلما بتْفَصِّل بِلْبُس»، «ما زَيَّنّي لا إمّي وَلا بَيّي إلاّ التِّياب اللي عليِّ»، «إعْطي سِرَّك لَلّي بيصونو»، «سِرُّن سِرّ مَعّازه: مِنْ قاطِعْ لَقاطِعْ»، «مِفْتاح البَطِن لِقْمِه ومِفتاح الشّرّ كِلمِه»، «كلْمِه بْتِغْني عن ألف كلمِه»، «يلّي ما بيْأَثّر فيه الكَلام ما بتْأَثّر فيه العصا»، «بَلى الناس مِن الناس»، «يلّي ما بيقْنع من الناس ما بيكون من الناس» ، «كترة الضِحك بتْقَلِّل الهَيْبِه»، «بشاشِةِ الوِجْ أحسَن من سَخا الكَفّ»، «تِلْم الأعْوَج من التَوْر الكبير»، «اللي عْند إمّو بالبيت خِبْزتو مدْهونِه بزَيْت»، «البِنْت الحُرّه مِتل الدَّهَب بالجَرَّه»، «بِنْت مْليحَه وْلا صَبي فْضيحَه»، «بَعْد الإم احْفُرْ وْطُمْ»، «يلّي سَبَقَكْ بْفَشْخَه سَبَقَك كِلّ الدَّرب»، «الشّجاعَه صَبْر ساعه»، «شَمِّع الخَيْط واهْرُبْ»، «السّلاح ما عْليه مَراجل»، «لا تِدْخل بيت الظَّنّان وْلا تاكُل خِبْز الْمَنّان»، «عنْد الضّيق لا أَخْ وْلا صْديق»، «كْرامِة الوَرْد بْيِشْرَب العِلَّيق»، «اربُط الحْمار جَنْب رْفيقو. إنْ ما تْعَلَّم رَفْسو بْيِتْعَلَّم نَهيقو»، «الْمصيبه بَدّا ضَهر والضّيق هَمّ وقَهر»، «النّاس وَرَق وإنت ريح، اللي بَدَّك طَيِّرو واسْتريح»، «إن عادَيْت خَلّي للصِّلْح مَطْرَح»، «كِلّما مَلْحَسْت لِلْقطّ بيعَنْتِر دنَبو»، «بس يْطير مالَك بيخونَك حْبابَك وِصْحابَك»، «بس تْشيل إيدك مِنْ تِمّو ما بيعود يَعِرْفَك»، «صُحْبِه مِتِل اللحْمِه عَ الضُّفر»...

٣. أمثال تتمحور حول البيت والحياة العائليّة:

البيت والحياة العائليّة كانا مصدرًا للكثير من الأمثال الشّعبيّة،ة منها: «البيت اللي رَبّاني ما بْيِنْساني»، «صاحِب البيْت أَدرى باللي فيه»، «ما بْيِحْمُل هَمَّك إلاّ اللي مِنْ دَمَّك»، «ما بيحِنّ عَ العود غَيْر قِشْرو»، «اللي بْيطلع من تْيابو بْيُبْرُد»، «أهلَك وَلا تِهْلك»، «اللي ما بْيِسْمع من والِدَيه غَضَب اللّه عْليه»، «طُبّ الجرَّه عَ تِمّا، بْتِطْلَع البنت لَإمّا»، «الخِنِفْسِه شافِت إبْنا عَالحَيط قالِتْ حَبِّة لولو بْخَيْط»، «أبو البَنات مَرْزوق»، «إذا كان

الرِّجّال فَحْمِه قْعودو بالبيت رَحْمِه»، «ما أَعَزّ مْن الْوَلَد إلاّ وَلَد الْوَلَدْ»، «إبْن البَطّ سَبّاح وْإبْن الكَلْب نَبّاح»، «قاضي الولاد شَنَقْ حالو»، «الولد بْيِبْكي يا مِنْ جوعْ يا مَوْجوع»، «مين كَتَّر وْلادو قَلَّل زادو»، «اللي بْيِسْعِدْها زَمانْها بِتْجيبْ بَناتْها قَبل صِبْيانها»، «البنات هَمُّن لَلْمَمات ولَو كانوا سِتّات فَوْق الْمَرْتَبات»، «الجازه سِتْرَه»، «خود الأصيلِه ولو عَ الحَصيره»، «لا عِنايه جَوَّزت عَريس وْلا دَعوه خَزَّقِت قَميص»، «اللي بْيِتْجَوَّز بالدَّيْن بْيِجوا وْلادو بالفايِظ»، «كلْ شي بْتِسْبيب إلاّ الجازِه نَصيب»، «دُور الدَّوْرَه وْلَو دارِت، وْخودِ الأصيلِه وْلَو بارت»، «يا بِنْت مين عَلاّكِ؟ جَوْزِك وْبَيْتِ حْماكِ»، «ما بيجِنّ عَ العود غير قِشْرْتو»، «أَعَزّ مِن الوَلَد وَلَدِ الوَلَد»، «طِلْعِتْ دَقنْ إبْنَكْ احْلُق دَقْنَك»، «خود أرْمَلِه واضْحَكْ عْلَيا وْشيلْ من جَيْبْتا واصْرُف عْلَيا»، «إبن الإخت لَو صالْ تِلْتَيْنو لَلْخال»، «يلّي ما عِنْدو كْبير يِشْتِري كْبير» ...

٤. أمثال تتمحور حول الحياة العاطفيّة:

لأنّ الحياة العاطفيّة جزء من حياة الإنسان بعامّة، واللّبنانيّ بخاصّة، كان لها حصّة كبيرة من الأمثال، منها: «البُعْد جَفا والقُرْب وَفا»، «اللي بْيِبْعُد عن العَين بيبْعُد عن القلب»، «ابْعُد تَ حِبَّك، واقْرُبْ تَ سِبَّكْ»، «الدِّني حِكِّلّي تَ حِكِّلَّكْ»، «مين ساعَدَكْ بْإيد ساعْدو باتْنَيْن»، «البحْصَه بْتِسْنُدْ خابْيه»، «الحُبّ سَتّار الْعْيوب والبُغْض بيزيدْ الذُّنوب»، «ما بْتِجي الْمَصايِب إلاّ من الْحبايِبْ»، «إن كان حبيبَك عَسَل ما تِلْحَسو كِلّو»، «يَلّي بيغار بيكون حْمار» ، «مين شافْ حَبابُو نِسي صْحابو»، «احْكِي تَ إسْمعِكْ وامْشِي تَ إقْشعِك»، «عين الحبّ عَمْيا»، «ألف عَدوّ بَرّا الدّار وْلا عَدوّ جُوّا الدّار»، «ما فيه بُعد إلاّ بُعد القْلوب»، «همُّو بْضَهِر غَيْرو»، «ما حَدا خالي من الهَمّ»، «يَلّي بيحُطّ فْلوسو، بِنْت السُّلطان عَروسو»، «ضَرْب الحبيب زْبيب»، «بحبَّكْ يا إسْواري مِتل زِنْدي لأ»، «شابْ عَيّوقْ وْلا مالْ بِالصَّندوق»...

٥. أمثال تتمحور حول الحياة المهنيّة والاقتصاديّة:

كان للحياة المهنيّة والاقتصاديّة نصيب وازن من الأمثال، منها: «إشقَ تِلْقَ»، «أصلَكْ فِعْلَكْ يا خَرّوب»، «الإجِرْ النَّقّالِه مَا هِيْ شَغّالِه»، «إعْطِ الأَجير أَجْرو قَبلْما يِنْشَف عَرَقو»، «لا تِبْدا بْعَمَل ما فيكْ تْكَمّلو»، «الشِّغل بِيْجَوْهِر البَدَن»، «الكَسَل ما بيطَعْمي عَسَل»، «أكْل ومَرْعى



طلوع السّلّم درْجِه درْجِه

وْقِلِّة صَنْعَه»، «الحركِه بَرَكِه والبطالِه هَلْكِه»، «شَمّامَ هوا قَطّاف وَرْد»، «راس البَطّالْ فيه ألْف شيطانْ»، «صاحِب صَنْعَه مالِكْ قَلْعَه»، «كَتّير الكارات قَليل الْباراتْ»، «فلاّح مِكْفي سُلْطان مِخْفي»، «إذا خَلَّفَك بَيَّك فَقير عَلَيْك بزراعة الشّعير»، «هَنّي الشّاري وْعَزّي البايِع»، «يَلّي بْيِتِّكِل عَ النّاس تَ تِتّاجِرْلو، خَوازيق بِتْنَجِرْلو»، «الغَلا جَلاّب»، «ما حَدا بينادي عَلى زَيْتو عِكِر»، «خَبّي العَسَل بِجْرارو تَ تِجي أسْعارو»، «العَدَس بِتْرابو وكِلّ شي بِحْسابو»، «لا يْغِرَّكْ رِخْصا بْتِرمي نِصّا»، «تْدَيَّن وْدَيِّنْ بْتِغْرَق ما بْتْبَيِّن»، «فُقر بَلا دَيْن غِنى كامِل»، «كِلّ شي بالأمل إلاّ الرّزِق بالعَمَل»، «القِرْش الأبْيَض لَلْيوم الأسْوَد»، «المال بْيِفْنى والرّجالْ بِتْجيبو»، «معَك قِرْش بْتِسْوى قِرْش»، «مد رِجْلَك عَلى قَدّ لْحافَك»، «يلّي ما عندو عَمَل يْكاري لو جَمَل»، «اربُط الحِصان حَدّ الحمار بيصير بيناتهُمْ عَداوِة كارْ»، «الإسْكافي حافي والْحايِك عِرْيان»، «اعْطِ خِبزك لَلْخَبّاز وْلَوْ أكَل نُصّو»، «قَطْع الأرزاق مِنْ قَطْع الأعْناق»، «الْمداوَمِه بْتِبْري خَرْزِة البير»، «أكْل وْمَرْعى وْقِلِّة صَنْعَه»، «الرزق مْحادي (مساوي) الرّوح»، «اللي بَدّو ياكُل هَالأكْلات بَدّو يْموت هَالْمَوْتات»، «الخِبْرَه خَيْر مْن القِدْرَه»، «شَعْرَه مِنْ هون وشَعْرَه مِنْ هون مْنَعْمِل دَقنْ»، «وَزِّع البحِر سَواقي بْتِطَلَّع ما بِتْلاقي»، «شْوَي شْوَي البير بْيِجْمَع مَيْ»، «التَّدبير نصّ الْمَعيشِه»، «لا تْلَحِّق الحبل بالدَّلو»، «مِشْتِهي العَضَّه بالرّغيف»، «القِلّه بِتْوَلِّد النّقار»، «الغَبي بْيِشْتِغِل مِن الفَجر لِلنَّجْرْ بَلا أجْرْ»،...

٦. أمثال تتمحور حول العلم والتّربية:

العلم والتّربية ركن أساسيّ في حياة اللّبنانيّ الّذي اهتمّ بهما كثيرًا، وحاكتْهُما أمثلة كثيرة، منها: «الإنسانْ ما بْيِتْعَلَّم إلاّ منْ كيسو»، «التّكْرار بيْعَلِّم الحْمار»، «الدّارِس غَلَب الفارِس»، «إبنَكْ لا تْعَلّمو الدَّهِر بيْعَلّمو»، «مُوت فَهيم وْلا تْعيشْ بْهيم»، «الجاهِل عَدوّ نَفْسو»، «خِفِّةِ الراسْ بِتْتَعِّب السّيقان»، «إبْنك وْهُوّي زْغير رَبّيه وْمتى كِبر خاويه»، «الفَرَس مِنْ وَرا الفارِس»، «تِرْبايِة الصِّبْيان مِتِل تْقِرْقُش الصُّوّان»، «اعْطيني عَقْل وْحاسِبْني»، «عداوِة العاقِل وْلا صَداقِة الجاهِل»، «كلّ شي كِتِرْ رِخِصْ إلاّ العَقِل كِلّما كِتِر غِلي»، «يَلّي عِلْمو بِكْتابو غَلَطو أكْتَر مِن صَوابو»،



علِّمْ ابْنَك تِقْشَع حالَك، علِّمْ بِنْتَك تشغُلْ بالَك

«بيلحَسْ الدِّبس عن الطّحينِه»، «كانِت النَّصيحَه بجمَل صارِتْ بْعَداوِه»، «كَتِّر سُؤالاتَك وْخَفِّفْ تَعَبْ إجْرَيْك»، «أَكْبَر مِنَّك بْيَوم أَعْرَف مِنَّكْ بْسِنِه»، «إذا عَقْلَك بْراسَك بْتَعْرِفْ خَلاصَك»، «العِلْم عِدِّه لَيَوْم الشِّدِّه»، «طَلْطَميس ما بْيَعْرِف الجُمْعَة مِن الخميس»...

٧. أمثال تتمحور حول الزّمن والطّبيعة:

الطّبيعة بكلّ ما فيها، كذلك الزّمن، محور عدد كبير من الأمثال، منها: «إبْن السِّتّين لَسِّكين»، «الأسَد مَتى شابْ بيصير مَسْخَرَ لَلكلاب»، «شَرّ الصَّباح وْلا خَيْر الْمَسا»، «اللّه يلْعَنْ هَالزّمان يَلّي بَدَّل القَمِح بالزْوان»، «الدَّهر دولاب: مَرَّه إلَكْ وْمَرَّه عْلَيْك»، «بَرْد تشْرين تْوَقّاه وْبَرْدِ الرَّبيع تْلَقّاه»، «مَتى صارت وَرْقِة التّين قَدْ إجْر البَطَّةِ نامْ وْلا تِتْغَطّى»، «الدَّفا عَفا»، «بْكانون كِنّ وْعَالفقيرْ حِنّ»، «كانون الْأجْرَدْ خَلَّى الشَّجَرْ أَمْرَدْ»، «شْباط ما عَلى كَلامو رْباطْ»، «راح شْباط الغَدّار وْإجا آذارْ الهدّار»، «بْآذار الهدّار سَبع تَلْجاتْ كْبار ما عَدا الزغار»، «بْآذار طَيْلِعْ بَقْراتَك مِن الدّار»، «آذار حِبلْ وْنيسان سِبِل»، «كِلّ رَعْدِه بْآذارْ مَطْرَه بْنيسان»، «بَرْد أَيّار خِرّاب الدِّيارْ»، «تَعَبَك عَ صوص حْزيران ما بيروحْ ضيعانْ»، «بْتَمّوز بْتِغْلي الْمَيْ بِالكوزْ»، «بْتَمّوزْ بْتِدْفا الْعَجوزْ»، «بآب اقطُفِ العِنَبْ وْلا تِسْتهابْ»، «بآبِ الحريِّه اقْعُدْ بِالبرِّيِّه»، «أيلول شَهْرِ الكَيْف مَنّو شِتي وْمَنّو صَيْف»، «بَرْد تْشارين أَحَدّ مِن السِّكّين»، «يَلّي ما شِبِع مِن العِنَب والتّين بِشْبَع مِنْ مَيِّة تْشارين»، «مَطْرَحْما بْتِمْسي إرْسي»، «اللَّيْل سَتّارِ العْيوبْ»...

٨. أمثال تتمحور حول الحياة الدّينيّة:



اللّه ما انْشافْ، بالعقْل انْعَرَفْ

الدّين الّذي يلجأ إليه الإنسان ليحتمي بين حناياه ويتعزّى برجائه وجَد له حصّة من الأمثال اللّبنانيّة، خصوصًا أنّ لبنان بلد الطّوائف والمذاهب المتعدّدة. من هذه الأمثال: «الدودِه جُوّات الصَّخِر اللّه ما بْيُقْطَع فيها»، «الشّكْوى لَغَيْر اللّه مَذَلِّه»، «يلّي بْياخُدْ مِنْ غَيْر مِلّتو بيموتْ بْعِلِّه غَيْر عِلّتو»، «الدّينْ مْعامَلِه»، «تْعَشّى عِنْدِ الدِّرْزي وْنام عِنْدِ النَّصْراني»، «إنْ كانْ الكنافِه بْيِدْخِلاّ توم، الموراني بيحِبِّ الرّوم»، «رَبنا بْيِبْعَتِ البَرْد عَ قَدِّ

الكِسْوِه»، «رَبّنا بْيُضْرُب بِالشّمال وبْيِسْتلقّي بِاليَمين»، «رَبّنا بيدين كِلّ إِنْسان حَسَبْ مَعْرِفْتو»، «رَبّنا ما عِنْدو حْجار يْراشِق فِيا»، «ساعَه مِنْ ساعاتو بْتِقْضي حاجاتو»، «اللّه بيسدّا مِنْ باب وبْيِفْتَحا مِنْ باب»، «ابعُد عَنْ دَرْبِ الشّيطان بِتْكون مِنْ اللّه مِنْصان»، «إِنْتَ فَكِّر وْاللّه بِيْدَبِّرْ»، «اللّه قالْ: قوم تَ قوم مَعَكْ»، «صوم وْصَلّي دْيارَكْ بِتْعَلّي»، «صَوِّم لْسانَك أَفضَل ما تْصَوِّم سْنانَكْ»، «ساعَه بْعِبَّكْ ساعَه لَرَبَّكْ»، «كِلّ الْمَصايِب بْتِنْجَلى إلاّ مْصيبِةْ كَرْبَلا»، «مِنْ تِمَّك لابْوابْ السَما»،...

٩. أمثال عن الحياة الوطنيّة والسّياسيّة:

السّياسة شاغلةُ اللّبنانيّ منذ زمن. جاء الكثير من الأمثلة ليعبّر عنها، ومنها: «مين زرع في بلد غير بلدو لا لو وْلا لولَدو»، «زوان بْلادَك وْلا القَمْح الصَّليبيّ»، «بِنْتِ البلادْ بِتِحْمُلْ عَ الخير وعَ الشّر»، «كِلّ ديك عَ مَزْبَلْتو صَيّاح»، «اللي بْياكُل من خبْزِ السُّلْطان بْيُضْرُبْ بِسَيْفو»، «النّاس عَ دين مْلوكها»، «الدّاخِل بالسِّياسِه مِتْل الدّاخِل بِتَنْكِةْ كْناسهة»، «حِبّ حاكْمَكْ قَدْ عازْتَكْ لَيْه وْبَسْ تِقْدَرْ هَبِّط الحَيْط عْلَيْه»، «جَوِّع كَلْبَك بْيِتْبَعَكْ»، «حُبّ الوَطن مِن الإيمان»، «كَتّروا الوْلاد بِتْعَمّروا البْلاد»، «كِتْرِة الرّوس بِتْضَيِّع النّاموس»، «إن كِنْت سِيدْ لا تْزيد»، «النّاس مَع الواقِف»، «سَيِّدِ العَبيدْ عَبْد كْبير»، «خَمَّنّا الباشا باشا تاري الباشا زَلْمه»،...

١٠. أمثال تعالج الصّحّة الإنسانيّة والطّعام:


بَدّي رْغيف مرْقوق من إيدينها
تَ يصير «خبز وملح» بيني وبيْنها

الطّعام أكثر ما يهمّ اللّبنانيّ، وكذلك الصّحّة. وله فيهما الكثير من الأمثال، ومنها: «تْغَدّى وتْمَدَّى، تْعَشّى وتْمَشّى»، «النّظافِه تِلْتَيْن الصِّحَّه»، «الدَّفا عَفا ولَوْ بْعِزِّ الصَّيف»، «التِوْقايه تِلْتَيْن الطِّبّ»، «أَوَّل الرشح نام وآخِرْتو روح عَ الحِمّام»، «النَّوْمِه عَ بُكرا بِتْرَبّي اللَّحِم عالذِّكْرَه»، «تِغيير الهَوا أَحْسَن مِن الدَّوا»، «يلّي بيْخَبّي عِلّتو بْتِقِتّلو»، «نام دافي بِتْقوم مِتْعافي»، «كِلّ يَوْم عافْيه بْيِسْوى مِلْكِ الأرض»، «العافية بْتِجي مِن خْروم الْإِبَر والمرض بْيِدْفُق دَفِقْ»، «يلّي بْياكُل عَ ضِرْسو بْيِنْفَع نَفْسو»، «بَطْنِ الإِنسان عَدُوُّو بالتَّمام»، «الجوع كافِر»، «الأكل مِشْ إِلَكْ، بَطْنَكْ مِشْ إِلَكْ؟»، «بَطنْ مَلان، كَيْف

تَمام»، «يلّي بيْكبِّر لِقِمْتو بيْغُصّ فِيا»، «أفْضَل مَأْكول جوعْ وْكول»، «عِنْد البُطون ضاعَتْ العْقول. وْعِنْدِ الغَدا ما حَدا خَيّ حَدا»، «قَلِّلْ طَعامَك تِحْمُدْ مَنامَكْ»، «كول خِبْز وزَيْت وانْطَح الحَيْط»، «خبز وزَيْتون أَحْسَن ما يْكون»، «مِشْ الأَصلْ إكْل الخَرّوبْ، الَأصِل تِصْريفو»، «كِلْ شي بْياكُل وبْيِجْترّ إلاّ إبنْ آدَم بْياكُل وبْينْضَرّ»، «كولْ قَبْلْما تْجوع وْبَطِّل قَبِلْما تِشْبَعْ»، «إِذا كانْ بَدَّكْ إِكْلَكْ يقِل، حَمِّصْ وْبِلّ»...

١١. أمثال تُضيْءُ على الحياة الوجوديّة:

مسائل القدَر والوجود والمصير والغيب هي أيضًا ضمن اهتمامات اللّبنانيّ. والأمثال عكست ما فكّر فيه وما رآه في هذا الإطار، ومنها: «الدّهر بَيكْ: ساعَه مَعَك ساعَه عْلَيك»، «حْمارْ طَيِّب وْلا فَيْلَسوف مَيِّت»، «كِلّ مين خِلِقْ عِلِقْ»، «الدّني عِسْر وْيسْر»، «عِلِّة المَوْت ما لِها دوا»، «ما مِتِتْ ما شِفِتْ مين ماتْ»، «عنْدِ التَّقادير ضاعِتْ المَقادير»، «لَكِلّ حَيّ أَجَلو»، «شَرّ مْنِ الموت انْتِظارو»، «شو بْيِنْفَع البِكي بَعْدما حَمَّلوه عَ المقبرَه»، «اللّيل مَهما طالْ لا بِدّ مْنِ الفَجِر. والعمر مَهما طال لا بُدّ مْنِ القَبِر»، «إذا الدَّهِر إجا مَعَك زَيَّنَك بمحاسِن غَيْرك»، «المكتوب ما مِنّو مَهروب»، «نَصيبَك كَيفْما رِحِت بِيصيبَك»، «يا عَبِدْ ما تْكوش غَيْر رِزْقَك ما بِتْحوشْ»...



الرّضى والتّسليم والطّريق المستقيم!

البحث في الأمثال بحثٌ في حياة عامّة النّاس على اختلاف نشاطهم وسلوكهم وأخلاقهم وعاداتهم. والخطير أنّ رحلة هذه الأمثال شارفت على أن تنتهي في مطاوي النّسيان: غابت عن ألْسنة الكثيرين من أجيال اليوم. يعتبرونها جزءًا من تراثٍ ما عاد يعني لهم شيئًا على الرّغم ممّا يحمله من تجارب وحكم. ففضاء التّكنولوجيا الواسع الآفاق وثورة الاتّصالات غيّرا الكثير من المفاهيم الاجتماعيّة والثّقافيّة، وجمعا بين ثقافات الشّرق والغرب، وألْغَيَا خصوصيّة الكثير من الشّعوب، ودفع التّراث بعامّة، والأمثال الشّعبية بخاصّة، الضّريبة الأكبر في هذا الإطار.

لذا على أصحاب الرّؤى أن يتلمّسوا هذه الخطورة فيعملوا على إحياء التّراث في حياة الأجيال، وخصوصًا الأمثالُ وجْهُ التّراث النّابض بالحياة، ومرجع تثقيفيّ مهمّ لربط الماضي بالحاضر وحفْظ الماضي وإحيائه. فما "تحفظه الصّدور وتتناقله الألسن لا يتأثّر بتغيير النّظُم السّياسيّة، ولا

يخضع لتبديل البرامج التّربويّة، ولا يتقيّد بأحكام المعاجم اللّغويّة. إنّه لغة الشّعب بعفويّات سلوكه وفطريّة تفكيره.''[١٨] وما قدرَت عليه الأمثال في ما مضى عجزَت عنه حضارة اليوم مع كلّ ما تحمله من وجوه متنوّعة للتّطوّر والحداثة. فالإنسان في مرحلة الفطرة كانت همومه قليلة وثقافته محدودة إلاّ أنّه كان يعالج مشاكله بطريقة بسيطة تشكّل فيها الأمثال جزءًا رئيسًا. يقول العالم النّفساني السّويسريّ كارل يونغ (*Carl Jung*) إنّ البدائيّ يخاف الجنّ والعفاريت لكنّه ينجح في تخفيف قلقه بوساطة طقوس معيّنة. أمّا الإنسان الحديث الّذي نبذ الخرافة، وحسنًا فعل، وقَع في أسطوريّات أكثر شؤمًا. ويذكر يونغ من منظار الطّبيب النّفسيّ أنّه يجب ألاّ يُستخفّ بالطّرائق المتّبعة في الأزمنة البدائيّة حتّى لو كانت خرافيّة.

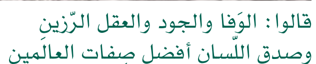
وقد تكون الفكرة الّتي ابتدعها سلام الرّاسي في كتابه «يا جبل ما يهزّك ريح» أفضل ما يمكن أن نختم به: «لا بدّ من وجود قرابة بين التّراث والتّراب. وقد يكون التّشبّث بالتّراث أحد أجدى الدّوافع إلى التّشبّث بالتّراب لأنّ مَن كانت له جذور عميقة في تراث آبائه وأجداده يصعب اقتلاعه من بيته وأرضه ووطنه.» والأمثال أحدُ وجوه تراثنا العريق، فلْنتشبّثْ به وبها ونعملْ على إصلاح ما شوّهته حضارة اليوم وعولمتها، وعلى العودة إلى المبادئ والقيم، والتّمسك بتجارب الأسلاف وحكمتهم الّتي عبّرت عنها أمثالُنا الشّعبيّة خير تعبير.

تَمَسُّكُنا بالتّراث ليس تَمَسُّكًا بالماضي بقدْرما هو تَمَسُّكٌ بالمستقبل.



سُئِل عبدالله بن المقفَّع: «مَن أدَّبَكَ؟»
قال: «أدَّبْتُ نَفْسي.»
«فإنْ رأيْتُ من غيري حُسْنًا أتيْتُه، وإنْ رأَيْتُ قُبْحًا أبَيْتُهُ...»





قالوا: الوَفا والجود والعقل الرّزين
وصدق اللّسان أفضل صِفات العالَمين

١٨) طوق، أنطوان جبرايل. **أمثال الأقدمين في جبّة المقدّمين**، ص ١٠

لائحة المراجع

أ) كُتُب:

- الرّاسي، سلام. **شيح بريح**. ط ٥، لبنان: مكتبة نوفل، ٢٠٠٥.
- الرّاسي، سلام. **ثمانون**. ط ٢، لبنان: مكتبة نوفل، ١٩٩٨.
- طوق، أنطوان جبرايل. **أمثال الأقدمين في جبّة المقدّمين**. ط١، لبنان: بشاريا للنّشر، ١٩٩٢.
- يعقوب، إميل بديع. **الأمثال الشّعبيّة اللّبنانيّة**. لبنان: جرّوس برس ١٩٨٧.

ب) مقالات في مجلّات:

- زناتي، أنور محمّد. **الذّاكرة الشّعبيّة في أمثال الشّعوب العربيّة**. مجلّة الثّقافة الشّعبيّة، العدد ٢٩، folkculturebh.org
- طنّوس، جان نعّوم، بيروت، لبنان: جريدة النّهار، عدد ٢٠٠٤/٧/١٣.
- عابي، غنيّة. **الدّلالات الاجتماعيّة في الأمثال الشّعبيّة، منطقة أولاد عدي لقبالة – أنموذجًا**. مذكرة مكمّلة لنيل شهادة الماجستير في الأدب العربيّ، تخصّص: أدب شعبيّ. الجزائر: جامعة محمّد بوضياف بالمسيلة، كلّية الآداب واللّغات، ٢٠١٦.
- العبدالله، أحمد جاسر عبدالله. **مجمع الأمثال للميداني: دراسة لغويّة دلاليّة**. لبنان: جامعة الشّرق الأوسط، كلّيّة الآداب، ٢٠١١.
- نويجم، مسعودة و أخضري، عيسى. **دلالات الأمثال والحكم في التّؤرات العربيّ**. مجلّة آفاق للعلوم، المجلّد ٦، العدد ٤، ٢٠٢١.

ج) مقالات إلكترونيّة:

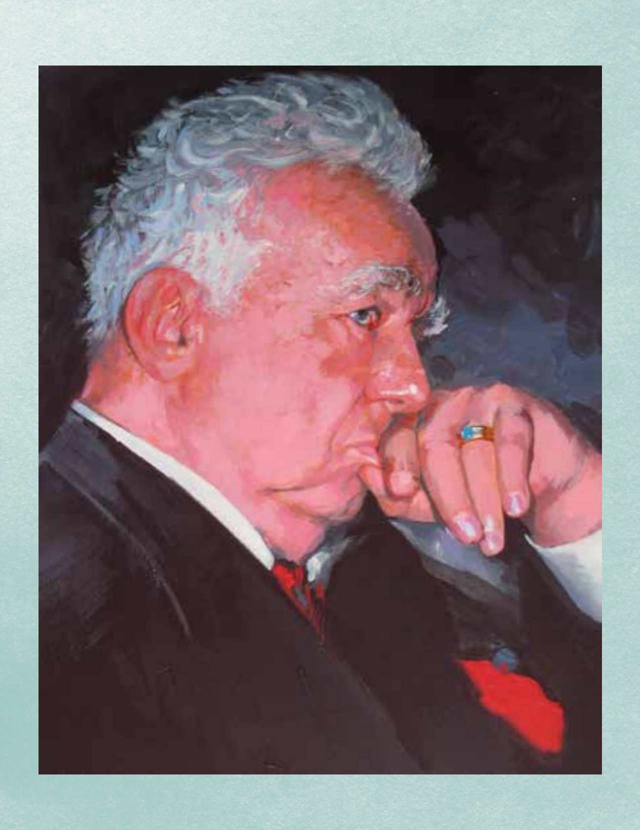
- **الثّقافة الشّعبيّة والأمثال... مخزون الذّاكرة التّاريخيّ**. عربي بوست، **arabicpost.net**، ٢٠١٧.
- السّهيل، سارة. **الأمثال الشّعبيّة: تراث إنسانيّ**. شبكة روداو الإعلاميّة، www.rudawarabia.net، ٢٠١٩.

د) الصّور من مجموعة «الأدب الشّعبيّ، أدب النّاس للنّاس» لسلام الرّاسي.



الملف الأَول

عشر سنوات
على غياب سعيد عقل



عشر سنوات على غياب سعيد عقل

عرسًا كان في الجامعة اللبنانية الأَميركية ذلك النهار: الإثنين ٨ كانون الثاني ٢٠٢٤، للاحتفاء بالذكرى العاشرة (٢٠١٤–٢٠٢٤) لغياب سعيد عقل، وكان من قسمين:

١. **مؤْتمر من ثلاث جلسات أَكاديمية** في قاعة المحاضرات، مع محاضرين خبراء في شعر سعيد عقل. قدَّمتْهم السيدة جوسلين بوراشد البستاني، وخلال الجلسات تولَّى مدير المركز الشاعر هنري زغيب إِلقاءَ مجموعةٍ من قصائد سعيد عقل.

٢. **أُمسية غنائية من قصائده.**



جوسلين بوراشد البستاني تقدّم الخطباء



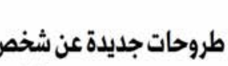


هنري زغيب يتلو من قصائد سعيد عقل

إلى المؤْتمر والأُمسية تقاطرَ جمهورٌ كثيفٌ، رافقَ المؤْتمر من الساعة ٣:٠٠ إِلى الساعة ٦:٠٠، ثم انتقل عند الساعة ٧:٠٠ إِلى مسرح غولبنكيان في حرَم الجامعة ليتابع أُمسيةً غنائيةً أَعدَّها وقاد أُورَكستراها المايسترو أَندريه الحاج، وأَدَّت فيها السيدة كارلا رميا عشر قصائد من شعر سعيد عقل، تسعٌ منها تلحين الأَخوين رحباني والعاشرة تلحين إِياد كنعان.

في هذا الملف نصوص المحاضرات ولمحة فوتوغرافية عن الأُمسية الغنائية.





طروحات جديدة عن شخص سعيد عقل وشخصيته في مؤتمر الـ LAU
زغيب لـ"النهار": دورنا في ذكرى غيابه العاشرة أن نستذكره ونبقيه حياً في الذاكرة

ما أطيب الاستماع لحكاية الوطن والإنسان في 10 أغنيات كلماتها لسعيد عقل!



الرئيس الدكتور ميشال معوَّض مفتتحًا المؤتمر: غَنَّى لبنان وتماهى به قلبًا في قلب



أَصدقاءَ LAU ومركز التراث فيها:

أَهلاً بكم أَوّلاً إلى هذا اللقاء اليوم، وهو يصادف أَولَ اللقاءات الشهرية التي يُعدُّها «مركز التراث اللبناني» في جامعتنا لهذا العام الجديد الذي نتمنَّاه لكم عامَ خيرٍ وعافيةٍ وراحةِ بال.

ثانيًا: يصادف هذا اللقاءُ استعدادَ الجامعة لبُزُوغ فجْر المئوية الثانية من تاريخها، بعدما طوَت مئةَ عام من مسيرتها العريقة في التعليم العالي.

ثالثًا: يصادف أَن يكونَ هذا اللقاءُ عن شاعرٍ غنَّى لبنانَ، وكرَّس له شعرَه ونثرَه ونشاطَه الكتابي والمنبري، حتى بات يتماهى به ذوَبانَ قلبٍ في قلب، وحضارةً تنفتحُ على حضارات، وهو الذي قال في رائعته «قدموس»:

نتحدّى الدُنيا شعوبًا وأَمصارًا... ونبني أَنّى نَشَأْ لبنانا

سعيد عقل... أَنَّى لنا أَن نَحصُرَهُ بمؤْتمرٍ أَو محاضرةٍ أَو ندوة، هو الذي نَشَر عطاءاتِ لبنان فأَظهَرَ عبقريةَ هذا الوطنِ الفريد، وجعلَه عالَميًّا على مستوى الفكرِ والإبداع. وكم كان له في جامعتِنا من إسهاماتٍ فكريةٍ وحضورٍ شخصيٍّ أَعطى محاضرات «مركز التراث» رونقًا من المستوى العالي.

عشرُ سنواتٍ على غياب سعيد عقل، لكنه في بالنا وذاكرتنا لعشَراتٍ آتية، هو الذي تركَ لنا إرثًا عن لبنان غنيًّا فلا يخبُو، ورائعًا فلا يغِيب.

لن أُطيلَ عليكم، وأَتركُ للمحاضرين في هذا المؤْتمر أَنْ يُطْلِعونا على ملامحَ مُشْرقَةٍ من شخصيةِ سعيد عقل وشِعرِهِ وحضورِه اللبناني الساطع.

أَتمنَّى لمؤْتمركُم نجاحًا على مستوى ما يستحقُّه استذكارُ سعيد عقل.

وأَهلاً بكم جميعًا في رحاب LAU.

مي الريحاني (من واشنطن[1]): فارسُ الشعر والحصانُ الأَبيض



سعيد عقل ثلاثة أبعاد يصعب فصلُ أحدها عن الآخر.[1]

فهو أولاً: شموخ وعظمة وعنفوان، كأنه الجبل.

وهو ثانيًا: صوغُ كيانٍ للبنان كما نحلم به: ملتقى الحضارات، والإشعاع والإبداع فيه جزء أساسٌ في مكوناته.

وهو ثالثًا: بناء نهج شعري مغاير، مبدع، فذ، لا شبيه له.

قبل أن أعالج هذه الأبعاد الثلاثة، أروي كيف تعرفتُ بسعيد عقل، ثم أعود إلى شعره.

سعيد عقل في بيتنا

ذات صيف، وكنتُ في الخامسةَ عشْرةَ، قال لي والدي الناشر ألبرت الريحاني: «الرابعة بعد ظهر اليوم سيزورنا الشاعر سعيد عقل». قالها بمحبة واحترام واعتزاز، فوالدي الناشر كان أصدر له الطبعة الأولى من «قدموس». وكان يعلِّمنا دومًا أن الأدباء والشعراء والمؤرخين وأصحاب الفكر يستعملون قلمهم لتعميق المعرفة ونشرها، لذا هُم ذوو مراكز خاصة عالية. ولأن كلمة والدي في بيتنا كانت مكَرَّسَة، خصوصًا حين يتكلم عمَّن نشر كتبَهم في مؤسسته «دار ريحاني للطباعة والنشر»، فهمتُ، وأنا الصبية اللهيفة إلى المعرفة، أن والدي يعتبر سعيد عقل في دائرة الفكر المشعة.

يومذاك، في الرابعة بعد الظهر، رأيتُ قامة طويلة أنيقة تنزل درج بيتنا في الفريكة. وببلوغه البابَ استقبله والدي بترحاب محب، وجلسا على شرفة البيت. أتاح لي والدي الجلوس معهما فتمتَّعتُ بينهما بأجمل الشعر وأنقى الفكر ومجد التاريخ. يومها كان لبنان في حضرة الناشر والشاعر

---

١) تعذَّر حضور الكاتبة والشاعرة مي الريحاني من واشنطن، فأَرسلَت كلمتَها مصوَّرةً تَمَّ بَثُّها في قاعة المؤتمر.

مصدرَ عزٍّ ونقاء، نبعَ فكر وحداثة، مسرحَ ريادة واعتزاز، منبرًا مشرَّعًا لاستقبال كل جديد وجريء وطموح.

بعدها تكرَّرت زيارات الشاعر، وتحوَّلَت شرفةُ بيت الفريكة واحةَ أمسيات شعرية، تسافر بنا إلى مَواطن جمال مغاير يحلِّق فوق وادي الفريكة ليبلُغ قبالته جبل صنين ويرسل التحية إلى زحلة.

قَيَّم كتابي الأول

مرَّت السنوات ودخلتُ الجامعة، وتواصلَت العلاقة بين الشاعر ووالدي الناشر، حتى ولَّدت صداقةً جديدة بين الشاعر وابنة الناشر. وكم كان مُشعًّا فرحي عندما ابتدأتُ أقرأُ لسعيد عقل ما أكتبُه، وأنا طالبة الجامعة الأميركية في بيروت. وعندما أصدر لي والدي كتابي الأول «حفْرٌ على الأيام» (مجموع مقالات وجودية – «دار ريحاني» – ١٩٦٩)، كان سعيد عقل أول من قَيَّم الكتاب ملبِّيًا دعوة مؤسس «الندوة اللبنانية» ميشال أسمر إلى ندوة عن كتابي فقال، بين ما قاله: «هذا الكتاب، باكورةُ هذه الطالبة الجامعية، سيفتح لها باب الشعر والأَدب على مصراعيه». هكذا، منذ ١٩٦٩، مَنَحَني سعيد عقل ثقةً بنفسي وبقلمي. ومن هذه الثقة، وتأَثُّرًا بمي زيادة، أنشأتُ في صيف ١٩٧١ صالونًا أدبيًّا عشية كل أربعاء، ورحتُ أستقبل على شرفة الفريكة شعراء وأدباء، على رأْسهم سعيد عقل، يتحلقون ويناقشون في الشعر والأدب والحداثة والريادة. كان لبنان فترتئذٍ، في ذهَبيِّ أيامه، وكان سعيد عقل خيَّالَ الشعر على حصان أَبيض من قمة إلى قمة، حاملاً شعرًا مجنَّحًا بمذاق النبيذ المعتق، نابعًا من مجد لبنان، من أصالة العربية، ومن تأثير الجماليات الآتية من الأدب والشعر الإغريقي والعربي والفرنسي.

سأتناول الآن تباعًا الأبعاد الثلاثة لدى سعيد عقل.

البُعد الأول: الشموخ والعظمة والعنفوان.

تَجْمَع بين هذه الكلمات الثلاث عبارةٌ واحدة: «التطلُّع الدائم إلى فوق»، أو كلمةٌ واحدة: «المجد». نعم: إنه المجدُ الذي أعطى سعيد عقل طاقةً لامحدودة على قدرة الإيمان بعظمة الوطن وباستمرارية لبنان. وهو المجد الذي أعطى سعيد عقل قدرةَ التحليق الدائم في فضاءات الشعر حتى غدا شعرُهُ كاتدرائيةً تتطلَّع دائمًا إلى فوق، في أبيات من نورٍ تشعُّ من نوافذ الكاتدرائية إلى سماء مضيئة.

البُعد الثاني: صياغة كيان لبنان كما نحلمه

النور في شعر كبير الشعراء يَنشُر مجد لبنان على من يقرأ العربية. فهو بشعره ونثره نفضَ غبارًا تراكَمَ على تاريخ لبنان الأصيل، فهنْدَسَ لنا لبنان الذي نطمح إليه، وأصبحتْ أبياتُ سعيد عقل هي المداميك التي تحرس لبنان. من هنا أنه ماردٌ حمل حجارة المداميك من منجم قصائده، بيتًا بيتًا، وسوَّر بها الوطن، فإذا لبنانُ معه سرمدٌ لا تهزمه العواصف المربوطة بجغرافيا معينة، ولا بأوضاع متقلِّبة. ها هو يصدح: «أنا حسبي أنني من جبلٍ هو بين الله والأرض كلام». وهكذا شعره ونثره، تمامًا على صورة لبنانٍ: تاريخٌ متجذر وانتشارٌ مستمر، من «المجدلية» إلى «قدموس» إلى «رندلى»، ومن «لبنان إن حكى» إلى «يارا»، وهي وسواها كتُبٌ تسرد تاريخ لبنان مرتبطًا بمدننا المقدسة من طرابلس إلى بيروت وصيدا وصور وجبيل وبعلبك، حتى قرطاجة، وهو تاريخ نابع من شخصيات ملهمة مثل قدموس وأوروب وهوميروس وموخوس الصيدوني الذي يصفه سعيد عقل بـ«الدماغ الذي استبق جميع الأدمغة».

هكذا تعلَّمْنا من سعيد عقل نظرةً ثابتةً إلى تاريخ لبنان، والتطلُّعَ الدائم إلى مستقبل أفضل، والاقتناعَ بأن منارة لبنان ستشع دائمًا، وبأن هذه الأمور الإيجابية هي واجبنا تجاه لبناننا.

البُعد الثالث: بناء نهج شعري مغاير، مبدع، فذ، لا شبيه له.

جاء سعيد عقل من الشعر العربي، من المتنبي وأبي نواس، كما من الشعر والأدب الفرنسي من ڤاليري وملارميه، وربما پروست. وهو، كلبنان، جسْرُ تلاقي الشرق والغرب، يتنافس لديه الشعر العربي الأصيل مع الشعر الفرنسي العريق. فالشعر الكلاسيكي يجتاز البحار بلوغًا إلى الشعر الحديث والشعر بالمحكية اللبنانية. ولأن سعيد عقل ربيبُ التحدي والقفز فوق المألوف، أصدر ديوان «يارا» بالمحكية اللبنانية متحدِّيًا الأبجدية العربية مُلْبِسًا قصائد «يارا» أبجدية خاصة مشتقَّة من الأبجدية اللاتينية.

بلى: سعيد عقل جوادٌ أبيضُ يخيِّل في جميع الحلبات. وتصنيفه من أصعب الأمور: هو شاعر كلاسيكي ينتمي إلى الرمزية، ودخل الحداثة من بابها العريض، فهو في آنٍ من أسياد الشعر بالعربية، ومن مؤسسي الشعر باللبنانية، علاقته بالعربية علاقة عاشق بعشيقته، وعلاقته باللبنانية علاقة المُدافع عن الابنة الجميلة. والأهم: قُدرته المذهلة على اجتراح الجديد والابتكار الدائم في اللغتين.

ثلاثة أقانيم

قراءتي شعرَ سعيد عقل تتيح لي استنتاجَ أن نصوصه الشعرية والنثرية مستوحاة من أقانيم ثلاثة: لبنان، والمرأة، والدهشة.

١. **لبنان في شعره** جذورٌ عميقة وتاريخٌ متشعب منذ فينيقيا وصولاً إلى العرب، والهوية التعددية، والحرية الواسعة، والطموح المستمر، والتطلعات المستقبلية، والمجد كل المجد. ها هو يصدح:

«... ومن الموطن الصغير نرود الأرض نذري في كل شطٍّ قُرانا
نتحدى الدنيا شعوبًا وأمصارًا ونبني، أنّى نشأْ، لبنانا»

٢. **المرأة في شعره** هي الحب الذي يحملنا إلى الأعلى، إلى الإبداع، هي العذراء والطهارة، هي المجدلية القادرة على التحوُّل بسبب حب الرب، هي الحبيبة مصدر الإلهام، هي المرأة الحنان، وهي المرأة الليل والهوى، وهي سَكْرة الشعراء. ها هو يخاطبها بإجلال:

«ألعينيكِ تأنّى وخطر يفرش الضوء على التل القمرْ
علَّ عينيكِ إذا آنستا أثَرًا منه عرى الليلَ خدرْ».

٣. **الدهشة في شعره.** فهو عقل متحرر من التقاليد، من كل موروث، من كل ما هو منتظَر، من كل ما هو مألوف. يحب الدهشة ويحب أن يُدهشنا. وحين انتقل من الشعر العمودي إلى «الخماسيات» أدهشنا بلُقيَّاتٍ هنا واحدة منها:

«ليش هالليل؟ وهاك الـ بيكَوْكْبوا
و هَالوردِةْ اللي من شفاف ومن عطر؟
هيك؟ تَ صابيع الله يلعبوا؟
لأْ.. هَوْ تَ يقلّنا: صَعب الشعر
يا كَسّروا القْلام... يا متلي اكتبوا»

مفاجأة؟ بلى: ومن كان ينتظر أن تصل بنا الأبيات الثلاثة الأولى إلى «صَعب الشعر... يا كَسْروا القْلام يا متلي اكتبوا»؟

سعيد عقل، أيها المدهش الرائع: من فيض أثَرك الخالد ستتْجلي العتمة، والنورُ سيعود، ولبنانُك، الذي هو لبناننا، باقٍ في التاريخ كما في شعرك، هذا الوطنَ الخالدَ غير العادي.

عبدالله نعمان (من باريس[1]): حارسُ مملكة الشعر والجمال



«ليس أرضًا ولا جبالاً وماءً
وطني الحبُّ... ليس في الحبّ حِقدُ»
(من «قدموس»)

لا تُقاس قيمة الشعوب بمُستوى الناس فيها بل بأفراد نابهين أفذاذ يمثّلون الصفوة بينها، تتجسَّد فيهم مطامحُ الأمة وصَبَواتُها، وعنهم تصدر اندفاعةُ المجتمع نحو مستقبل أكمل. إنهم الذين ينتشلون أمتهم من روح المحافظة، ويطلقونها في طريق التجديد والإبداع. وهُم قِلّةٌ في جميع الميادين، قد يجهلهم أو يتجاهلهم الناس أحيانًا، فيما هم يتنكَّبُون حقيقة حاجتهم، ويقودونهم إلى المناخات العُليا، ويرفعونهم عن مستوى الصغائر، ويمدّونهم بنُبل العلْم.

ترَكَ السياسة وتزَوَّجَ القصيدة

في مقال «أزرار» («النهار» ٢٥ تشرين الثاني ٢٠٢٣) ذكَرَ رفيقُ الصبا والشيخوخة الشاعر هنري زغيب أنّ شارل مالك (١٩٠٦–١٩٨٧) ترشّح للانتخابات النيابية في قضاء الكورة سنة ١٩٥٧ وفاز، لكنه لم يستمرّ في مقعده سوى بضعة شهور يتيمة. قدّم استقالته إلى رئيس مجلس النواب عادل عسيران (١٩٠٥–١٩٩٨) وغادر إلى نيويورك مندوبًا للبنان في عُصبة الأمم المتحدة. بعد سنوات، في لقاء تلفزيوني، سألتْه الإعلامية ليلى رستم: «لماذا لا تترشّح ثانيةً»، فأجابها: «لكُلٍّ صَنْعَتُه. النيابةُ ليست صَنعَتي».

١) تعذَّر حضور الدكتور عبدالله نعمان من باريس ليُشارك في المؤْتمر. أَرسَلَ نصَّه إِلى رئيس التحرير فتَلاه نيابةً عنه.

وفي عام ١٩٦٥ ترشّح سعيد عقل (١٩١٠–٢٠١٤) لانتخابات فرعية في مدينته زحلة، وبسبب تكتّلات سياسية حاكها ضدّه إقطاعيُّو المدينة وزعماؤها، لم ينل سوى ٨٨٣٣ صوتًا وخسر أمام الطبيب جوزيف الهراوي (١٩١٤–٢٠٠٣) الذي فاز بـ١٥٣٥١ صوتًا. ولحسن حظّه يوم ترشُّحه أنّه فشل، فكان له رأيٌ قاسٍ في السياسيين ما زال صحيحًا إلى اليوم: «هل يُصدّق أحدٌ من لبنان أَن محض إرادة الشعب أوصلت يومًا ولو شخصًا واحدًا إلى المجلس؟ كم نائبًا وصل بدون أن يدفع؟ وأن يتملّق ويراوغ؟».

والكلام ينطبق أيضًا على المشرّع العلاّمة إدمون ربّاط (١٩٠٢–١٩٩١) الذي هُمس في أذنه أن يترشّح في بيروت عام ١٩٥٣ فتكتّلَت الأحزاب حول الكتائبيّ جوزيف شادر (١٩٠٧–١٩٧٧) الذي فاز بفارق ستين صوتًا بفضل أصوات الناخبين اليهود المؤيدين حزبَ الكتائب.

ترك اللذة الحسية إلى لذة الإبداع

هكذا كان هؤلاء... وهكذا كان سعيد عقل الذي ترك السياسة لأربابها الصغار، وتزوّج الشعر فصاغه كما لا أحد، وتعبَّد في محراب الجمال. ولو كان له أن يُغيّر كُنيته لاختار أن يُنادى «سعيد الصائغ» أو «النحّات».

تراث سعيد عقل، الشاعر المتوهّج الذي بنى مملكةً للجمال ذاتَ أَلَق، هو قيمة مُضافة في سجلّ الشعر العربي. والزحلاوي الكبير شخصية معقّدة، كاد أن يتبرّأ من نفسه، بل لعلّه أنكر اللذة الحسّية الإنسانية كي يُقدّس اللذة الكُبرى المتجسّدة والمتمثّلة بالخَلق والإبداع. فهي، إذ تُخرج مُلكيّةَ الشعر من الشاعر لحظةَ ينشرها في الناس، تُصبح ملْكهم وتُحفَر في وجدانهم.

أنا أرى أن في الشاعر الشاعر مسَّ جنون: من ذا يجرؤ على اختيار عناوين لدواوينه كما «أجمل منك؟ لا»، أو «كما الأعمدة» أو «سعيد عقل: شِعره والنثر»؟

في مُقبِل الأيام، حريٌّ بوَرَثَة التراث السعيدعقليّ الثريّ أن يحملوا المشعل وأن ينهلوا من معينه لا إلى ارتواء.

أنا... لولا سعيد عقل

ينقل الجاحظ (٧٧٦–٨٦٨) عمَّن سَبقه «أنَّ الفرزدق يَنحت من صخرٍ وجرير يَغرِف من بحر»، والمقصود أنَّ الغَرْف من البحر يدلّ على

انسياب الشعر وسهولة الأمر على قائله وسرعة قوله في كل باب من أبوابه، بينما النَحْت في الصخر يدلّ على قوّة السبْك واعتمادِ الشاعر التعقيدَ وغريبَ اللفظ.

بعد ألف عام ويزيد، نجد أن سعيد عقل تجاوز مقدرة الاثنين معًا فنحَتَ من صخرٍ وغرَفَ من بحرٍ في آنٍ، وفي المجالين أجّج أنوار الشعر. وسوف تَسمع الأجيالُ المقبلة شعراءَ كثيرين، معجَبين أو حاسدين، يتبارَون ويتبجّحون. ولو سألتَ أحدهم: «مَن أشعرُ الناس؟» لأجابك حتمًا: «أنا... لولا سعيد عقل!»

من العربية الفُصحى إلى المحكية اللبنانية

في أحد لقاءاتي به، أسَرَّ إليّ بما كان يقوله في العلَن بأنّ العربيّة «لغةٌ ميتة كاللاتينية»، لا ينطق بها إلاّ القلّة المتمرّسة، بدليل أن اللاتينية انقرضَت وحلّت مكانها اليوم إيطاليَّةُ لغة دانتِه (١٢٦٥–١٣٢١). ويقيني أنّه أراد أن يكون «دانتِه المشرق» فعكَف على اللهجة المحكية، وبدأ يكتب وينشر بها ببراعةٍ، مقلدًا ظاهرةَ أتاتورك (١٨٨١–١٩٣٨) في تركية. كنتُ من أوائل الذين أخذوا عليه هذا الجنوح،كما أخذ عليه كتّاب وألسنيون محاولته وضع الحروف اللاتينية إزاء الأبجديّة العربية، وهو يَعلَم أن قلب الأبجديّة (الحروفيّة) لا يقلب اللغة. فاللغة تحتاج في انقلابها إلى تغيير الحضارة نفسها لا الأبجدية وحدها. ولا يخفى هذا الأمر على مبدع كسعيد عقل متعمقٍ في العربية، مُمسكٍ بناصيتها حتى أصبح أحد أمرائها صرفًا ونحوًا ومفردات، بعكس ما يظنّه المدّعون والمتطفّلون من صِبْيَة العربية الأغرار.

عندما تأكَّد له أنّ مغامرته فَشِلت – رغم الترويج الصاخب لها في الأوساط الثقافية وحتى المدرسية – وشعر أن نتاجه الشعري الباهر لم يتجاوز حدود العالم العربي ولا أصبح عالمي الحضور، بدأ يتوسّل الفرنسية بعد أن تأثّر ببول فاليري (١٨٧١–١٩٤٥) ونشر بها ديوانين: L’Or est poèmes (عام ١٩٨١) وSagesse de Phénicie (عام ١٩٩٩).

... وجاءَت جانّ دورتال

ترقى علاقتي بسعيد عقل إلى سنة ١٩٦٨. ذكرتُ فصولاً منها في الجزء الثاني من خُماسيّتي «نقدات عابر سبيل» («دار نعمان للثقافة»، جونية، ٢٠١٣، الصفحات ٣٧–٥٠). وسنة ١٩٧٠، وقتَ كان لبنانُ لبنانَ

وبيروتُ بيروتَ، كانت الشاعرة الفرنسية Marie-Charlotte Sandberg (١٩٠٥–١٩٩٩)، وكانت توقّع كتُبَها باسم Jean Durtal، مدعوَّةً إلى بلاد الأرز لإلقاء محاضرة عن أندريه جِيد (١٨٦٩–١٩٥٤). وفي نهاية الندوة، تعرّفَتْ بسعيد عقل الجالس في مقدّمة الحضور. وكان كلام معه عن الشعر والشعراء، فاستضافها في بيته، ورافقها في زيارة المعالم الأثريّة وعرّفها بكبار أدباء لبنان. ثم توطّدت الصداقة بين الشاعرين وتبادلا الخدمات الأدبية فساعدها على نشر ديوانها Champs pour Nathaël («دار الكتاب اللبناني» – بيروت – ١٩٧١).

أُعجبَت به الشاعرة الفرنسيّة، واقترحت أن يمدّها بمعلومات عن مساره الفكري، فاستجاب وقصّ عليها سيرته بما أخرجتْهُ لاحقًا في كتابها Saïd Akl: un grand poète libanais صدر عام ١٩٧٠ عن دار Nouvelles éditions latines.

خلال عملي في السفارة اللبنانية في باريس (١٩٧٤–٢٠١٥) زارتْني جان دورتال حاملةً كتابها عن سعيد عقل، وكنت أعرف مكانتها في الأوساط الأدبية الفرنسية. وأخبرتني أنه عازم على الكتابة بلغة شاتوبريان (١٧٦٨–١٨٤٨) ويهيِّئُ ديوانًا أوّل.

وبعد سنوات أقامَت لقاءً جمع نخبة مثقفين احتفالاً بصدور كتابي «اللغة الفرنسية في لبنان» (بالفرنسية، ١٩٧٩)، في نادٍ أدبيّ على جادة الشانزيليزيه، وقالت كلامًا لطيفا ومحبًّا عن لبنان، فشكرتُها على بادرتها الطيبة واستمرّت علاقتنا المتقطّعة حتى وفاتها.

ديوانه الفرنسي إلى أعضاء الأكاديميا الفرنسية

ديوان سعيد عقل بالفرنسية لم يحفل به، على ما أذكر، إلاّ القلائل من مريديه اللبنانيين الفرنكوفونيين، ولم يُنشر في المكتبات الفرنسية. وكان أرسل إليّ بالطائرة عشرات النسخ مُهداةً إلى بعض أعضاء الأكاديميا الفرنسية، وإلى شخصيات أدبية وسياسية باريسية مرموقة. وطلب منّي أن أتولّى إرسالها بالبريد إلى أصحابها. فقمتُ بالمطلوب وأَودعتُ النسخ مكتب البريد العاجل إلاّ واحدة أرسلها الشاعر إلى الرئيس الفرنسي فرنسوا ميتران (١٩١٦–١٩٩٤). وارتأيت أن أسلّمها باليد إلى أحد مستشاري رئيس الجمهورية في قصر الإيليزيه، وكان ممّن درسوا عليّ لغة الضاد في جامعة نانسي بين ١٩٦٩ و١٩٧٢! وقبل أن أضع الديوان في غلاف يليق بالشاعر وبالرئيس معًا، دفعني فضولي إلى قراءة الإهداء فإذا

هو «Au Président François Mitérand» (كذا). فدخلتُ فورًا إلى مقهى قريب من القصر، وطلبت فنجان قهوة ومجموعة أقلام حبر ورحتُ بتؤدة أُقارن بين ألوان الأقلام حتى وقعتُ على واحد لونه قريب من اللون الذي استعمله سعيد عقل في صياغة الإهداء، وصحّحتُ الخطأ بقدرٍ كبير من اللباقة حتى استوى الاسم على شكْله الصحيح Mitterrand. وأسرعتُ إلى القصر وسلّمت الوديعة إلى تلميذي المستشار Alain Weill.

بعد أسابيع هاتفني الشاعر مستفسرًا عن مصير النسخ المهداة فطمأنْتُه أن الأمانة وصلَت إلى الجميع. ولم أعرف مَن قرأَها من عُظماء فرنسة الذين استلموا الكتاب، ولا مَن منهم شكر الشاعر على التفاتته ولياقته.

عاشقُ اللغة ومريضُها

نسج صاحب «رندلى» لنفسه أسطورةً إغريقية ونجح في نشرها بين الناس بصوت ربيبة الملائكة فيروز وبألحان عاصي ومنصور الرحباني، فقدّم الرباعيُّ المبدع الجمالَ إلى التاريخ الفنّي من بوّابته الكبيرة واستراح في وجدان الناس. ونِعْم المقام في علياء الشعر ولو كرِه الحاسدون.

واليوم، في زمن البؤس الأخلاقي المديد والعوَز الشعري المرير، أفتقد صديقًا وفارسًا كريمًا، أنيقًا في كبريائه، استهلك أرضًا حرثها وأبقاها في حالة راحةٍ إلى زمن طويل. كان عاشقَ اللغة ومريضَها، أتقن صناعة الشعر باحترافٍ عالٍ ومَلَكةٍ لغوية سيعّز نظيرُها إلى أجيال.

سعيد عقل لم يغِب عنّا، بل انتقل إلى الردهة المجاورة، إلى الفضاء السرمديّ الرحب، ليعانق القوافي والنجوم.

ويا طيب المقام.

سهيل مطر: «المعلِّم»؟ لماذا؟



ولا أتردَّد: «المعلِّم»، و... كفى.

أيّ لقب يليق بسعيد عقل، أو يشبه سعيد عقل، أو يرضى به سعيد عقل؟

ساخر من الألقاب

نمازحه، نناديه: «دكتور سعيد». ينظر إليّ كأنّه يهمّ بصفعة. وكم تَبَهْدَل حرف الدال (د.) في هذا الزمن.

نطلق عليه لقب «صاحب السعادة». يضحك هو، وفي ضحكته وجع.

نسمّيه «صاحب السيادة». يغضب. وأين السيادة في زمن القهر والمصادرة و«قصقص ورق ساويهُن ناس»؟

نقترح «صاحب السماحة». يغضب أكثر: «وهل أسامح من خرّب ودمّر وباع واشترى وسرق ونهب وقتل وذبح؟ أسامح جميع اللبنانيين، عدا ثلاثماية، هم وحدهم الذلّ والخيانة وقايين».

نفضّل «صاحب المعالي». يصرخ: «من أين المعالي في زمن الزحف؟ وعلى من أعلى»؟

نفكِّر: «دولة الأستاذ سعيد عقل». يرتفع صوته أكثر «لتكُن الدولة دولةً أوّلاً، وبعدها نتحدّث».

نحاول: «صاحب الفخامة»، يجيبني بحسرة: «أين الفخامة في هذا الزمن المجرّح بالخيبة والفراغ والأجنحة المتكسّرة»؟

وماذا بعد؟ «صاحب جلالة»؟ «صاحب غبطة»؟ «صاحب نيافة»؟ «صاحب فضيلة»؟ «الخواجة»؟ «الأفندي»؟ «البك»؟...

المفضَّل لديه: «المعلِّم»

«نعم»: هو استثنائي متمرّد، خارج عن المألوف، اغتسل بماء الجنون، ونَدى البردوني الهادر، فإذا به يرفض الألقاب، يحتقر الأوسمة، يسخر من التكريم، يرفض المناصب، ويكتفي بـ«المعلِّم». ثلاثة كرَّسوا له هذا اللقب: عاصي ومنصور، وعبد الحليم كركلاّ، فأصبح اسمه الحركي: «المعلّم».

أُذكِّره بقول شوقي:

"قُـمْ للمعلّـم، وفِّـه التبجيـلا   كاد المعلّـم أن يكـون رسـولا".

يضحك. يقول: «لا. المعلّم لا «كاد» ولا «كان». هو الذي ناديتُه:

"قرأْتَ كتابَ الكون، سطرًا محا سطرا   معلّمُ، عُـدْ فاكتُبْـهُ أجمـلَ مـا يُقـرا".

معه حق: هذا هو المعلّم، يكتب كتاب الكون من جديد. المسيح هو المعلّم، كبار التاريخ هم المعلّمون. العظماء، لا الزعماء، هم المعلّمون. زملاء للخالق هم. لم يعد المعلّم ناقل معلومات أو ناقد معلومات، بل تحوّل إلى صانع معلومات، وإلى باحث عن الحقيقة. إنّه خالق جديد... ومع ذلك، يستكثر البعض على المعلّم رغيف خبز وحبّة دواء ومعاش تقاعد.

هذه الصفة لسعيد عقل، من أين جاءت؟ بدأ حياته معلِّمًا. ترك المدرسة دون البكالوريا. تَحَوّل معلِّمًا لدى مدرسة صغيرة في زحلة. أنهى حياته أستاذًا جامعيًّا كبيرًا، وضيفَ شرف، ودكتورايات فخريّة تتدلّل له وأمامه. ذات يوم، في قاعة محكمة زحلة، قال المحامي صلاح لبكي لبولس سلامة القاضي: «متى نزل هذا الفتى سعيد عقل إلى بيروت، سنحطّم أَقلامنا».

ماذا علّمنا سعيد عقل الإنسان والشاعر؟

ثلاث صفات...

أختصر مكتفيًا بثلاثة عناوين كبيرة وبعض تفاصيل:

أولاً: علّمَنا الله. اللاهوت هو علْم الله من دون ثرثرة. الله لا هويّة دينيّة له: مسيحيّ، مسلم، بوذيّ،... من هو الله؟ هو هذه الخمسة: خالق، مولِّد العقل، مُطلَق لامحدود، جودة، حبّ. ليس ديّانًا ولا من أهل المذبح والذبائح والذبيحة. الله هو الخلاص، هو الرحمة، هو الحبّ والسلام: «أعطِنا، ربّ، قبل كلّ عطاءٍ، أن نحطَّ التفاتة في سناكَ».

ثانيًا: علّمَنا لبنان. لبنان الحضارة. لبنان خالق الحضارة. لبنان العظماء. لبنان السبع المدُن: صور، صيدا، قانا، بعلبك، بيروت، جبيل، طرابلس. لبنان لا يقاس بالديموغرافيا ولا بالجغرافيا بل بالتبادع والإشعاع والدور الحضاري، منذ قدموس حتى اليوم.

"لي صخرة عُلّقت بالنجم أسكنها طارت بها الكُتُبُ قالت: تلك لبنانُ"
"ليس أرضًا ولا سماءً وماءً وطني الحبُّ ليس في الحبّ حقدُ".

وحرام أن نتّهمه بالحقد. يوم أشاد بسوريا ختم:

"أنا حسبي أنّني من جبلٍ هو بين اللهِ والأرض كلامْ"

وفي شرحه الحقيقةَ اللبنانية، قال:

"عقلٌ وشعبٌ معًا في عزّة نهدا كما بصحبي صدرٌ كاعب نهدا
عقل ولا الشعب، خذه ينتهي صلفًا شعب ولا العقل خذه ينتهي بددا"

ثالثًا: علّمَنا الإنسان. الإنسان الحرّ لا يساوم. الكريم. الكبير النفس. العنيد في الدفاع عن كرامته، الجامع. علّمنا المرأة النورانيّة الأكثر من جسد: «سمر؟ يا حلم»، حتى أن وقعها على السرير «مهيب». علّمنا حبّ الأرض لا حبّ الزعماء. غنّى لبنان ولم يغنِّ رئيسًا أو زعيمًا. غنّى سوريا، فلسطين، مكّة، ... وهنا، أفتح هلالين، لأقول إن سعيد عقل ليس أسطورة، لكنّه، بالنسبة للبعض، وربّما أنتم منه وأنا، نكتشف في سعيد عقل أخطاء وخطايا. فهو إنسان. سعيد عقل واحد وكُلّ: لا تعتقلوا الوردة وتفتشوها وتبحثوا عن عطرها الطيّب. سعيد عقل كالوردة، حرام أن نَنْتُفَ أوراقها لنكتشف مواطن العطر فيها. وإذا فعلنا نكون كمن يمشي في جنازة العطر وراء جثّة الجمال. لهذه الأسباب، إذا رأيتم ورقة يابسة أو ممزّقة، انتزعوها، واكتفوا بالعطر: «علَّمِتْني حلوة الحلوين: ان فلّيت إترُك عطر بهالكون».

... وثلاثة مآخذ

١. **صعوبة الشعر.** صحيح، وأنا اختبرتُ ذلك أيام كنت أرافقه إلى الصفّ. لكنّ الجمال في الصعب، وأجمل امرأة هي المرأة الصعبة، ولهذا كان يقول:

ليش هالليل وهاك اللي كوكبوا
وهالوردةْ اللي من شفاف ومن عطر
هيك؟ تَ صابيع الله يلعبوا؟

لأُ. هَـوْ تَ يقلّنـا: صعـب الشـعر
يـا كسّـروا القـلام، يـا متلـي اكتبـوا.

٢. **انقلاب على الفصحى** إلى العاميّة أو المحكيّة، لا عن عقدة ولا عن جهل، بل عن عمق في التفكير.

٣. **ضرورة إيجاد حرف عالمي جديد**، يوحّد اللغات والناس. ليست قضيّة عرب أو عروبة، بل قضيّة مَناعة، بدأنا نتلمّسها بعد «يارا» و«خماسيات» في كتابات أولادنا على هواتفهم الخَلَوية: حرف مستمدّ من اللاتينية مع بعض التعديلات.

جنون العظمة

نأخذ عليه بعض التفاصيل: الكِبَر إلى حدّ التكبّر: جنون العظمة

في خليل مطران قال:

«مهابـة الأرز، بنـت الفارسـيِّ، أنـا   نبكيـكَ! فلْتتغـاوَ السـتّةُ العُمُـدُ
ومـن تُـرى قـال: ليسـت سـبعةً؟   أنذا عيني إليك، ألا فليَكْمُلِ العددُ»

في أمين نخلة قال:

«بينـي وبينـك لا عـرش ولا تـاجُ   قُمْ نرتقِ الخلْد، شعري اليوم معراجُ».

في الياس أبو شبكة قال:

«إلى قصيديَ فيك الشرق مستمعٌ   وأنت، واجَرح شعري، لستَ مستمعا»

كان عاشقًا شعرَه:

"شعري من العصر، أم من سحر بابل، أم...
خذْهـا، بكأسـيَ دَقّـتْ كأسَـها العُصُـرُ"

كان مهووسًا بذاته:

"أقـول: الحيـاة العـزمُ، حتـى إذا أنـا   انتهيتُ، تولّى القبرُ عزميَ من بعدي".
لسـائلي: "أَإِلـهٌ أنـتَ"؟ قلـتُ: "بلـى   وريشـتي الـوردُ هزَّتْـهُ علـى النُجُـمِ"

علّمنا أن الحياة لا موت فيها، وأنّ المال لا قيمة له:

"للفقر قلنا: "استرحِ"، للمستبدِ: "أَشِحْ   غدًا على الرملِ لا يبقى سوى الدِمَنِ"

حتى الخامسة والتسعين

ختامًا، أكتفي بحكايةٍ لي معه:

سأَلتُه: «متى تنتهي سنواتك في الجامعة»؟ يومها كان في الخامسة والتسعين. ما خاف من الموت يومًا، ولا ردّد ذكره، ولا توجّع أو توجّس، وما تحدّث ساعة عن وداع، أو رقاد أو وصيّة. أيّ طفل كان، وهو يغمض عينيه، في رحلته الأخيرة، ليلة ٢٨ تشرين الثاني ٢٠١٤، وهو يردّد هامسًا: «يا أمّ اللّه»!

بعد عشر سنوات على غيابه الجسدي، استمرّ في حضوره اليوميّ الغنيّ التربويّ الفاعل:

"من زهر لبنان خذ عرشًا ومن قيمٍ   لا زهْـرُ لبنـان متّـانٌ ولا القيـمُ".

واليوم، رغم الأوضاع الصعبة والمجازر والقصف اليومي، لا نزال نردّد معه:

"وقال من خطر نمضي إلى خطر؟   ما هـمّ، نحـن خُلِقْنـا بيتُنـا الخطـرُ".

شوقي بزيع: اللغةُ القصوى والتحليقُ فوق الحياة



نحتفي بسعيد عقل، في الذكرى العاشرة لغيابه الجسديِّ عن هذا العالم، فنشعر أننا إزاءَ نسختَين اثنتَين من الشاعر نفسه: إحداهما أرضية محكومة بحاجة الطين إلى التشكُّل، والأُخرى سماوية منعتقة من ربقة الجسد، نائية بنفسها عن فظاظة العالم المادي. فهذه القامة المسْرجة كرمح جَموح فوق قمم صنين، وهذا الوجه المضاءة غيومه بأكثر من مسيح، وهذا الشعر الذي يُنشب خصلاته في فضاء التخيُّلات وتتعهد فوضاه رياحٌ آهلة بالذهول، وهذا الصوت الذي تتنادى له الأعمدة الستة لهياكل بعلبك، كل ذلك يُبعِد عن سعيد عقل شبهةَ الوجودِ الواقعي حتى لتشعر أنك إزاء بروميثيوس معدَّل لا يحتاج إلى سرقة النار من الآلهة شأْن سلفه الأول، لأن النار نفسها هي التي تطارده هذه المرة لتبحث عن لهيبها القديم في احتكاك مفردَتَين من مفرداته.

الشعراء وقِصَرُ أعمارهم

لم يُعرف عن الشعراء عبر العصور أنهم يمكثون طويلاً فوق سطح هذه الكرة، بل سرعان ما ينتقلون إلى باطنها لتُواصل الحياةَ نيابةً عنهم قصائدُ ونصوص لا سبيل لها إلى الاضمحلال. وباستثناء كوكبة معمّرين لا يتجاوز عددُها أَصابع اليدين، فإن آخرين كُثُرًا قضَوا نحبهم قبل منتصف العمر، كما كان شأن جون كيتس وأرثور رامبو وأبو القاسم الشابي وكثُر آخرين. وإذ يؤكد بابلو بيكاسو على قصَر أعمار الشعراء بالمقارنة مع الرسامين، يردُّ الأمر إلى أن هؤلاء يدخلون إلى الكتابة بكامل طاقتهم وعصفهم واحتدام جهازهم العصبي، بما يجعل أعمارهم محكومة بالقِصَر والاختزال، خلافًا للرسامين الذين يعتبرهم صاحب «الغيرنيكا» كائناتٍ نباتيةً بعيدةً عن التوتر، حين يدخلون إلى قاعات الرسم «يخلعون أجسادهم في الخارج كما يخلع المسلمون أحذيتهم عند أبواب المساجد». ومع أن مقولةَ بيكاسو لا

تنسحب على جميع الشعراء والمبدعين، فالنباتية التي تحدَّث عنها تنطبق بصورة أو بأخرى على سعيد عقل الذي اقتصر انتشاؤه الإبيقوري بالحياة على لذة المعرفة والثمَل بالجمال دون أن يُتلفَ جسده على مذبح الشهوات والمفاسد. ولأنه لم يكن ليصدّق بأن قامته الفارعة وجبينه الشامخ البهي سيؤُولان في لحظةٍ ما إلى التحلل، – كما أَسَرَّ في أواخر أيامه لأحد أصدقائه الصحافيين - فهو عمل على تحصين نفسه بكل أسباب التفاؤل والغبطة والثمَل الروحي، لكي يمنع فكرة الموت من التسلل إلى داخله. وإذا كان بدر شاكر السياب قد خاطب ديوان شعره بالقول معاتبًا: «أَلَكَ الكُؤُوسُ ولي ثمالتها... ولَكَ الخلودُ وإنني فانِ؟»، فصاحب «كما الأعمدة» لم يكن يرضى لشعره أن يظفَر بما لا يظفَر جسده به، فشاء أن ينازله حتى على ساحة الخلود نفسها. وهو تلقَّف الحياة بفرح غامر وأناقة مفرطة كما لو انها دعوة مفتوحة إلى كرنفال أو وليمة جمالية أو حفلة زفاف.

شاعر بين زمَنَيْن

على المستوى الشعري والإبداعي، من الصعب قراءة سعيد عقل خارج الشرط التاريخي الذي ترعرع في كنف تحوُّلاته المتسارعة، فاستجاب له بموهبته العالية وطموحه اللامحدود. ظهَر على الحد الفاصل بين زمنَين متشابكَين: زمن الإقطاع الريفي الزراعي الذي أخذ عنه الشاعر جانبه الفُرُوسيَّ المتصل بالشهامة والكرم والشجاعة والنُبل والتعفُّف الأخلاقي، وزمن البورجوازية الناشئة وشبه المدينية التي وجدت في الأدب والعلم والمعرفة ممرَّها الإلزامي للالتحاق بثقافة العصر.

والفترة التي أعقبَت إعلان دولة لبنان الكبير، وفَّرَت لسعيد عقل الفرصة الملائمة لرفد الجمهورية الوليدة بما يلزمها من الأساطير المؤسِسة، ما ظهر جليًا في كتابَيه اللافتَين «بنت يفتاح» و«قدموس» وغيرهما. وتعاوُنُهُ لاحقًا مع الرحبانيَّين وفيروز، بدا استجابة تلقائية لحاجة الوطن الصغير إلى ظهير تخييليّ يقلِّص المسافة بين اسمه المعلَن وواقعه المتواضع المليء بالشروخ. غير أنَّ الـ«أنا» الرحبانية كانت تتوارى بشكل تام خلف صورة الوطن المحلُوم بتحققه، مع كمٍّ غير قليل من النقد السياسي والاجتماعي، في حين كان سعيد عقل يعمل بكل طاقته على المماهاة الكاملة بين أناهُ الفردية والـ«أنا» الجمعية، ويعمل على دمجهما معًا في مثال واحد وأسطورة واحدة، وهو ما وجد معادِله اللاحقَ في فانتازيا المقولات المتعلقة بـ«زحلَنَة لبنان» و«لبننة العالم».

نحو سماء التصوُّرات

وفقَ هذا المنظور: كل ما قاربَه شعر سعيد عقل كان ينسلخ عن وجوده الواقعي، ويذهب نحو التخوم الأخيرة لسماء التصورات. يتساوى في ذلك الوطنُ والمرأة واللغة ونظام القيم، حيث تبدو الأشياء والعناصر كأنها استعادة رمزية للكمال المطلق أو لمثال أفلاطوني قَبْلي. هكذا أمكن لبنان أن يكون «ما بعدَ بعدِ الضميرِ»، أو يكون الوطن المطلق حيث «كلّ اتساع بعدُ بهتانُ»، وأن يغادر الجغرافيا ليستحيل فكرةً في خيال بَنيه ويصبحَ فخر الدين المعنيّ «حلمًا في خيال لبنان وقُدّة من جباله». وفي إطار هذه الصورةِ البدئية للعالم سيتاح لكل شاعر يتناوله عقل بالرثاء أو التكريم أن يستهلَّ الشعر ويختزلَه بالكامل، فيصف الأخطل الصغير بـ«من قبلِ ما كان لا يا شعرُ لم تَكُنِ»، ويقول في عزيز أباظة «الشعر بعدكَ صار الشعر»، وفي أمين تقي الدين «تَنَزَّلْ تُخَلِّ الشِعر أشعرَ، والهوى أرقَّ، وذاك المنحنى جنةَ الخلدِ». وأيُّ حرج في ذلك ما دام الأخطل وأباظة وتقي الدين ليسوا سوى حيلة الشاعرِ الملائمة لتظهير صورة المطْلق الشعري الذي يشكّل عقل نفسُه مدارَه ومحوره ونقطة ارتكازه.

لا علاقة له بنثار العيش

يبدو سعيد عقل غير معنيّ بما يدور على أرض الواقع من نثار العيش ويومياته وتفاصيله. فهنا لا إصغاء إلى نأْمة وجع، ولا تحديق في وجهٍ قبيح للكائنات، ولا اجتراح للكتابة من المناجم المظلمة للضعف الانساني، ولاً رؤية إلى الحب بوصفه سقوطًا في النُواح والعمى والاختبال، ولا احتفاء بالألم شأن الرومنسيين. والشاعر الذي اشتبك مع الياس أبو شبكة في سجال ساخن، كان يرى في العاطفة الرومنسية نوعًا من الميوعة والدلع الأنثويَّين اللذين لا يليقان بالفحول من أمثاله. وإذ تبدو نظرته إلى الحياة مزيجًا متفاوت المقادير من نظرتَي المتنبي ونيتشه، لا يأبه بسقْط متاع الأشياء بما يتصارع حوله البشر من صغائر وتُرَّهات، بل يحلّق فوق الحياة من الأعلى كما يحلّق النسر فوق شقاء العالم.

من الجسد/الشهوة إلى البهاء الأيقوني

رؤية سعيد عقل المثالية للمرأة لا تُمْكن قراءتها إلاَّ في ضوء علاقته، طفلاً ويافعًا، بنموذجَيّ الطهر الأنثوي المتمثِّلَيْن بمريم العذراء وأُمه أدال يزبك، ما أكسب المرأةَ عنده حضورًا تصاعديًا يتدرج من الجسد

الملموس إلى البهاء الأيقوني، ومن الافتتان إلى الاستبعاد، ومن اللحم إلى البلور. صحيح أن إشاراتٍ إلى وجودها الحسي تنبَثُّ بين حين وآخر في شعر عقل الذي يتقاطع مع العذريين في تعاطيهم مع النصف الأعلى من الجسد الأنثوي إذ نلمح إشارات متقطعة إلى عناق المرأة المحبوبة وضمّها وتقبيلها، لكنَّ الشاعرَ سرعان ما يُشيح بوجهه عن امرأة اللحم والدم مكتفيًا بتعقُّب المثال الأنثوي الأفلاطوني ومخاطبًا امرأته المعشوقة بـ«هَمَمتِ بأن تخطري في الوجود ولم تفعلي»، أو بـ«كُوّنتِ من توقٍ إلى الحسن لا منكِ»، أو «ظلّي الغد المنشود يسبقنا المماتُ إليه غيلَهْ»، أو بتنزيهها الكامل عن الملامسة كقوله بلسانها «من شَقْع الضوء أنا والورد... ومن إغراءٍ لا يرحمْ... أنا لا لأُضمَّ ولا لأُشمَّ... أناَ – دعني – حلمٌ يُحلمْ». وإذ تتحول الأنوثة والذكورة عند سعيد عقل موجتَين للتعبير متفاوتَتَي الرقةِ والاشتداد، يلبس مفهوم الفحولة عنده لبوس اللغة وحدها، متخفِّفًا بالكامل من لواحق الجسد وسُعار الشبق الغرائزي. ومن المؤكد أن امرأة يصفها عقل بالقول «لَوَقْعُكِ فوق السرير مهيبٌ كوقْع الهنيهة في المطلقِ» هي امرأة من صنيع البلاغة والتخيُّل المحض، ولا يمكن أن يتمَّ تسييلها على سرير الوله الشهواني.

«أُنْطُقْ يا موسى»

هذه القراءة العجلى لا تتَّسع للوقوف على العناصر البلاغية والجمالية لمغامرة سعيد عقل التجديدية التي يتّحد فيها الاختزال والتكثيف بالترصيع الجمالي، والمواءمة الحاذقة بين الصورة المباغِتة والرقص الايقاعي، ما جعل من صاحب «رندلى» أحد الآباء المؤسسين لتجربة الحداثة الشعرية. لذا دَعْوَتُهُ إلى التخلي عن العربية الفصحى لمصلحةِ اللغة المحكيةِ أو الحرفِ اللاتيني، لم تكن في عمقها الحقيقي سوى طريقته في التعبير عن المأزق الإشكالي الذي كان عليه أن يواجهه، فاستنفد كلَّ ما تختزنه مناجم تجربته الثرية من قلائد البلاغة وكنوز الجمال، حتى إذا وصل بلغة الضاد – توشيةً وتأنُّقًا وصقلاً – إلى ذُراها الأخيرة، أراد أن يفعل بها ما فعله ميكالانجلو بالتمثال الذي كاد أن يستوي بشَرًا سويًا بين يديه، فصاح به وهو يكسره من فرط الذهول: «أُنطُقْ يا موسى».

زهيدة درويش جبور:
الهوية المُرَكَّبة



عندما اقترح عليّ الصديق هنري زغيب المشاركة في هذا المؤتمر عن سعيد عقل، أول ما تبادر إلى ذهني أنه شاعر لا يمكن أسْرُه في حدودِ هويةٍ ضيقة واضحة ونهائية، وأنه، مع أدونيس، من أكثر الشعراء الذين انقسمَت حولهم الآراء، وأُلْصِقَت بهم التُهم، على الرغم من الإجماع على عبقريتهما، واختلاف المدرستين الشعريتين بينهما: أدونيس شاعر الحداثة بامتياز تنظيرًا وممارسة، فيما سعيد عقل أصيل الانتماء إلى القصيدة الكلاسيكية التي برَع في تجديدها من داخلها، وارتقى بها إلى أعلى ذرى الإبداع، مبرهنًا على أن الشعرية ليست رهنًا بشكل القصيدة، بل تكمن كلُّها في اللغة وقدرتها على توليد الإحساس بالجمال. ولا نبالغ إذا قلنا إن سعيد عقل استطاع أن يصنع من لغته المصقولة والمنصّعة والأنيقة والمتعالية أداةً لاجتراح الخارق.

الهوية «المُرَكَّبة» نقيضةُ «القاتلة»

هوية سعيد عقل المُركَّبة، المتعددة، والمتحولة، نقيضة الهويات القاتلة التي شرّحها ببراعة أمين معلوف في واحد من أبرز مؤلفاته. ولعل ما يبرّر اختياريَ مقاربةَ شاعرنا من هذه الزاوية بالذات: الظروفُ الموضوعية التي يمر بها العالم عمومًا، وشرقُنا العربي أو المتوسطي خصوصًا، والتي تكاد تبرهن صحة مقولة هانْتِغْنْتُون عن صراع الحضارات، ونبوءة مالرو أن القرن الحادي والعشرين يكون دينيًا أو لا يكون. المفارقة الكبرى أنْ، فيما تقنيات الاتصال والتواصل الحديثة قرّبت المسافات بين شعوب العالم، وفيما صار التنوع سمة المجتمعات نظرًا لحركات الهجرة وسهولة انتقال الأشخاص والبضائع، تَشهد المجتمعات مطالبات «هُويَّاتية»، وتِصاعدًا للعنف، وتفاقمَ العصبيات العرقية والدينية والإثنية. ولعل أبشع هذه النزعات: عنصرية دينية يمارسها المحتل الصهيوني في فلسطين، بلغَت ذروة تجلياتها البربرية في الحرب الحالية ضد غزة حيث ترتكب إبادة

جماعية تحت أعين مجتمع دولي عاجز أو متواطىء، للأسف! ولا يمكن اختزال الهوية في أحد مكوناتها المتعددة. فالهوية ليست ثابتة، بل تخضع لتحوّلات عدة تبعًا للتجارب الحياتية، والمكتسبات الفكرية، والتأثيرات المختلفة. فهي بهذا المعنى زئبقيَّة بامتياز.

من هذه المقدمة أنطلق للحديث عن سعيد عقل اللبناني، الفينيقي، العربي، عن سعيد عقل الفلسطيني، وعن سعيد عقل المعادي الفلسطينيين، عن سعيد عقل المتربع على عرش الفصحى، وعن سعيد عقل المتنكر لأبجديتها داعيًا إلى استبدالها باللاتينية. بعبارة واحدة: عن سعيد عقل الواحد-المتعدد.

سعيد عقل اللبناني

لبنان الذي تغنّى به سعيد عقل، ورفعَه إلى قمم المجد، ليس مجرّد بقعة على خارطة العالم، بل هو صنْو الحرية والكرامة والعنفوان والانتصار للحق. قيَم تجسَّدت في شخص فخر الدين منتصرًا في عنجر، مناديًا جنوده: «كفُّوا، قد عَفَوت أنا... بحسبيَ النصر، ما لبنان منتقمُ».

لبنان «رسالة نور» حملها قدموس إلى العالم، كما تقول الأسطورة التي استلهمها سعيد عقل ليكتب واحدًا من أجمل دواوينه: مسرحية شعرية يجدر أن تُعتمد في مناهج التعليم المدرسي إن أردنا أن نبني جيلاً أصيلَ الانتماء، فخورًا بوطنه، متمسكًا بالقيم الإنسانية السامية:

«جاء قدموسُ بالكتابة، بالعلْم إليهم، إلى الأواتي العصورِ
وغدًا يعرفون أنَّا على السفْن حملْنا الهدى إلى المعمورِ»

ولبنان حكاية شوق وتجاذُب تجمع النقيض بالنقيض، وتقرِّب الشرق من الغرب الذي سمّاه زوس الإله على اسم معشوقته، «أوروبّ»، بنت الشاطئ الفينيقي حيث نشأت واحدة من أقدم الحضارات. يُجري سعيد عقل على لسان قدموس أبياتًا تختصر دور لبنان التاريخي:

«أنا من أمتي رسالةُ نورٍ تترك الوحش غير ذي أظفار»
«ما تكبَّرت، مشرق الأرض ساحي يوم أعطي، ومغرب الأرض ساحي».

ولبنان شعب عزيز، أبيٌّ، لا يهونُ ولا يُذَل، يكره الضيم ويُكرم الضيف ويجير الجار ولا يعتدي:

«الحب؟ نحن شرَعْنا. الحسنُ؟ نحن بَدَعْنا
البغضُ؟ نحن قَطَعنا أنه العدمُ».

لبنان القِيَم

هي قيَم يرفعها سعيد عقل إلى أعلى سلم المجد في قصيدة يبث فيها نفحة قوية من العنفوان:

«أهلي ويغلون، يبدو الموت لعبتهم — إذا تطلَّع نحو السفح عدوانُ
من حفنةٍ وشذا أرز كفايتهم — زنودُهم إن تقِلَّ الأرض أوطان».

وفي قصيدة أخرى:

«ما لي أغنّيك؟ أهلي النورُ منبتهم — عالُون كالأرز جارِ الله، ما رُغموا
ما نكّسوا هامةً إلَّا لخالقها — إلَّا للبنان ما دانوا، وما احتكموا».

ولبنان شاطئٌ لو حكى تُرابُه لروى حكايا أسراب مهاجرة، وجبلٌ هو لغةٌ للحرية والتمرد على كل جبارٍ عنيد، صخورُه لانت لسواعد أهله ففاضت بالخير غِمارًا غِمارًا، قُراهُ مزروعة في الأعالي حتى بدت للشاعر الذي يتقن فن المبالغة:

«...عن قُرى من زمردٍ عالقاتٍ — في جوار الغمام زُرق الضياءِ
يتخطَّين مسرح الشمس، يَركُزْنَ — بلادي على حدود السماءِ».

لبنان الحضارة

ولبنان مدن عريقة توالت عليها الحقَب فصمدَت، وحجزت لها مكانة مميزة في الحضارة الإنسانية: هي صيدون وصور وبيروت وبعلبك وطرابلس وزحلة، توزعَت قلب الشاعر الذي لم يفرّق بينها، وإليها جميعِها يعلن انتماءه: «نحن صيدونيون، موطننا الأرض» يقول حينًا، وفي موضع آخر: «أنا بعلبك لي/.../ هنا الضياء، مجمّدًا ومقدّمًا/للشمس إن شحّت، لقلبك إن وهى».

عشِقَ سعيد عقل لبنان، ولعل أجمل ما قاله فيه، هذه الأبيات التي تختصر بلُغَتها الكثيفة لبنان الهوية والدور:

«ليس أرزًا، ولا جبالاً وماءً — وطني الحبُّ، ليس في الحب حقدُ
وهو نور فلا يضِلُ، فكدٌّ — ويدٌ تُبدع الجمال، وعقلُ
لا تقل أمتي وتجتاح دنيا — نحن جار للعالمين وأهلُ».

خلال الحرب الأهلية اتُهم سعيد عقل بأنه، مع فؤاد افرام البستاني، من دعاة التقسيم. ولدحض هذا الافتراء، أكتفي بهذه الأبيات من قصيدته في شفيق معلوف (زحلة ١٩٧٧):

واحـدٌ مجـدُ لبنـان الـذي أخـذَت عنـه الحضـارةُ مـا لـولاه لا حضَـرُ
جبيـل، بيـروت، صيـدون، طرابُلُـسُ إطارهـا البَـدع أو لا كانـت الأُطُـرُ
إن مُـسّ ذكـرُ لقانـا، أو لصـور سنى مُـسَّ الكمـال رؤى التاريـخِ والعبـرُ
أو خُمشـت لمعـة مـن بعلبـك أَسًـى توجّعـت مهُجـاتُ الحسـنِ تنفطـرُ
أقُسّم البيـت؟ مـاذا؟ الانتصـار سـدىً؟ مـاذا؟ دمـاء رفاقـي فـي الفـلا هـدَرُ؟
لبعض لبنان ناضلتُ؟! اشـهدي شيمي: كمـا السـواحلُ هاتيـك الربـى الخضُـرُ
ووحدَهـم أهلهـا أغلـى علـى كبـدي منهـا كعينـيَّ أغلـى منهمـا البصَـرُ
جميعنـا لفحَتْنـا الحـرب: ذاك بمـا قاسـى، وهـذا بقصـد المـوت يَبتـدرُ
ولـن أفـرِّقَ، ناسـي النـاس لا بعُـدوا كـذا الينابيع، مائـي الماء لا الكـدر»

سعيد عقل والقضية الفلسطينية: موقف ملتبس

في هذه القصيدة ذاتها ينحو الشاعر باللائمة على الدخيل المتآمر، غامزًا من قناة المنظمات الفلسطينية التي استباحت مناطق كثيرة من الوطن، وكانت إلى حد كبير سببًا في انقسام اللبنانيين، وفي اندلاع الحرب الأهلية التي وصفها غسان تويني بأنها «حرب الآخرين على أرضنا»، وهذا صحيح إلى حدٍ ما.

الموقف العدائي من المقاومة الفلسطينية يتعارض مع ما عبّر عنه في عدد كبير من قصائده من تعاطف مع الشعب الفلسطيني وقضيته، وهو القائل في قصيدة «أجراس العودة» التي لحَّنها الأخوان رحباني وغنتها فيروز (دمشق ١٩٦٦):

«الآن الآن وليـس غـدًا أَجـراسُ العـودة فلْتُقْـرَعْ
أنـا لا أنسـاكِ فلسـطين ويشـدُّ يشـدُّ بـيَ البُعْـدُ
أنـا فـي أفيائـكِ نسـرينُ أنا زهـر الشـوك أَنـا الـوردُ
سـندكّ نـدكّ الأسـوارا نسـتلهم ذات الغـارْ
ونعيـدُ إلـى الـدار الـدارا نمحـو بالنـار النـارْ
فلتصـدعْ فلْتصـدعْ أَبـواقٌ أجـراسٌ تُقْـرَعْ
قـد جُـنّ دمُ الأحـرار».

هـذا الموقف المناصرُ القضيةَ الفلسطينية، والمحرّض على قتال الصهاينة، لم يكن محض موقفٍ شعريَ، لأن الشاعر أكّده في حوار مع ليلى رستم (تلفزيون لبنان – ١٩٧١) ودعا إلى جمع ١٢٩ مليار ليرة لشراء السلاح ومحاربة إسرائيل. وبعدها بعدة أعوام (مطلع التسعينيات) قال في

حوار مع جيزيل خوري: «إذا حدا بيشيل إسرائيل من هون، هو أنا مش العرب! بعد بيصطلْحوا العرب هني وإسرائيل، بس نحنا صارت إسرائيل عدوّتنا». ولا يمكن تفسير هذا التناقض إلا إذا وضعنا المواقف المعبَّر عنها في سياقاتها التاريخية. كانت القضية الفلسطينية حتى ١٩٦٧ محطّ إجماع الشعوب العربية التي تعاطفت مع الشعب الفلسطيني المقتلِع من أرضه. لكن حرب حزيران ١٩٦٧ أدّت إلى سقوط القدس وخسارة الضفة الغربية وهزيمة الجيوش العربية، فنشأت بعد ذلك المقاومةُ الفلسطينية المسّلحة التي استضعفت الدولة اللبنانية بعد اتفاقية القاهرة سنة ١٩٦٩، ولم تكتف باستباحة أرض الجنوب، بل تحوّلت خلال حرب السنتين إلى قوى الأمر الواقع، فانقسم اللبنانيون حولها وصارت جزءًا من صراع داخلي استمر خمسة عشر عامًا بين القوى المختلفة، ما كان سببًا لوقوف سعيد عقل المعروف بلبنانيته إلى جانب الفريق السياسي المعادي الفلسطينيين، وأكثر: الداعي إلى إنهاء وجودهم في لبنان. يمكن القول إن مواقف سعيد عقل لا تَصدر عن عقيدة سياسية بل هي ردّات فعل على ظروف معينة.

سعيد عقل العربي – سعيد عقل الفينيقي

يذهب بعض المهتمين بمسيرة سعيد عقل السياسية أنه، كغيره من مثقَّفي الأربعينيات، انتسب إلى الحزب السوري القومي الاجتماعي، ما يبرّر حضور دمشق الكبير في شعره. لكن الشاعر نفى ذلك، كما نفى (حوار معه في «النهار» – ١٩٩٢) اعتقادًا سائدًا بأنه واضعُ نشيد الحزب. لكنه أحبَّ سوريا عمومًا، وكانت لديه قناعة بعلاقة القربى التي نسجها التاريخ وأكدتها الجغرافيا بين البلدين. فها هو، في قصيدة «سائليني»، يستحضر ثورة سلطان الأطرش ضد الإنتداب:

«قُل لذاك الليث في آجامه: واحد نحن إذا الشامُ تضامْ»

وفي قصيدة «شآم يا ذا السيف»: «شآم، أهلوكِ إذا هم على نوَب... قلبي على نوَب»، ويختم قصيدة أخرى («بالغار كُلِّلتِ»): «يا شآم، لُبنان حبي... غير أني لو تَوَجَّعُ الشام، تغدو حبي الشام»، ويقول في مطلع «قرأتُ مجدك»: «قرأت مجدكِ في قلبي وفي الكتُبِ... شآمُ، ما المجد؟ أنت المجد لم يَغِبِ». كذلك ذهب من سعيد عقل أنه كان قريبًا من حركة القوميين العرب، وأنه نظم نشيد «جمعية العروة الوثقى: «للنسور ولنا الملعبْ»، وفيها: «للنسورْ ولنا الملعبُ/ والجناحان الخضيبان بنورْ: العُلى والعربُ/ ولنا القول الأبيُ والسماح اليعربيّ». غير أن تَقَرُّبه من هذه الحركة كان بدافع عاطفي إذ هام بصبية كانت منتسبة إلى تلك الحركة.

كل ذلك يدّل على أن سعيد عقل كان شاعرًا قبل كل شيء، وأن مواقفه السياسية لم تُمْلِها قناعات فكرية بل الحماسة والانفعال. لذا كان ينتقل من النقيض إلى النقيض، كما دفعه موقفه السلبي من القومية العربية إلى المناداة بالقومية اللبنانية، فأطلق مشروع الاستعاضة بالمحكية اللبنانية عن الفصحى التي أبدع فيها وعرف أسرارها وتعمَّق في تراثها. وأكثر: بلغت به الحماسة أن ابتكر أبجدية جديدة مستوحاة من الأحرف اللاتينية. وفي دفاعه عن القومية اللبنانية ارتكز إلى تاريخ لبنان القديم وهويته الفينيقية، ما أثار غضب الكثير من اللبنانيين والعرب. وفي اعتقادي أن هذا التقلُّب في المواقف رهنٌ بالأوضاع السياسية في لبنان خصوصًا، والمنطقة عمومًا. فكلما كانت الهوية اللبنانية في خطرٍ تعالت الأصوات المدافعة عن خصوصيتها، والمؤكدة على تمايزها عن الهوية العربية الجامعة. إنه انكماش الهوية في مواجهة الهيمنة. وكانت الدعوة إلى القومية الفينيقية انطلقت في عشرينَات القرن الماضي عندما دخلت جيوش الشريف حسين بيروت حاملةً لواء الثورة العربية لتفرض هيمنتها على لبنان وسوريا.

سعيد عقل المسلم المسيحي العابر الطوائف

من أجمل قصائد سعيد عقل، تلك التي كتبَها لمكّة المكرّمة بمناسبة عيد الأضحى، كاشفًا فيها عن معرفة حقيقية بالإسلام، وعن إيمان عميق يتجاوز الحواجز الفاصلة بين الأديان. كما تشفّ عن حالة من الخشوع يعيشها الشاعر مع الطائفين حول الكعبة في رحاب المسجد الحرام، وتسمو لتصبح بصوت فيروز فعلَ صلاة:

«فرحوا فلألأ تحت كل سما ... بيت على بيت الهدى زيدا
وعلى اسم رب العالمين علا ... بنيانُه كالشهب ممدودا
يا قارىء القرآن صلِّ لهم ... أهلي هناك وطيِّب البيدا
ضجَّ الحجيجُ هناك فاشتبكي ... بفمي هنا يا وُرْق تغريدا
وأَعزَّ ربي الناس كلَّهُمُ ... بيضًا فلا فرَّقْتَ أو سودا
الأرض ربي وردة وُعِدَت ... بك أنتَ تقطف فارْوِ موعودا
وجمالُ وجهك لا يزال رجًا ... يُرجى، وكل سواه مردودا».

إنها قمة النقاء الروحي، بلغها الشاعر في هذه الأبيات التي لا يعادلها جمالاً سوى نشيد ابتهالٍ أضحى ترنيمة تتردد في الكنائس فتغسل القلوب من أدرانها وتفتح باب الرجاء:

«أَعطنـا، ربِّ، قبـلَ كلِ عطـاءٍ أنّ نحُـطَّ التفاتَـةً فـي سَـناكَا
كلُّ مـا دونَ وجهِـكَ الجـمِّ وهـمٌ أعطنـا، ربِّ، أعطنـا أن نـراكَا
جُمِّعَتْ ربّيَ الخليقةُ في صوتي تُناجـي، وسـبَّحت تتغنَّـى
وأنـا اسـتجيرُ بالرحمَـةِ الأولـى بنـور الأنـوارِ، بالينبـوعِ
أنْ تَقَبَّـل، ربّـي، قرابيـنَ حُـبّ ورجـاءٍ، وذِلـةٍ، ودمـوعِ
وتـرأَّفْ، يـا أيهـا السـعَةُ الكُبـرى تـرأَّفْ باللائـذ المحتـاجِ»

لا كلام بعد هذه الكلمات.

وحده الصمت يليق.

هند أديب:
مشواري الأدبي والإنساني معه



يقول سعيد عقل في إحدى خماسياته :

ويكَ لا تجمعْ زمنْ
سنواتٍ وشهورْ
لم يكن يومًا سطورْ
شعرُ طيرٍ مُفْتَتَن
عمرُكَ اجمَعْهُ زهورْ

عشر سنوات مضت على رحيل سعيد عقل، إلاَّ أنها لم تترك فراغًا، بل أثبتَت حضورًا مليئًا بشعرٍ لا يبارح ذاكرتنا، ونستحضره في كلّ مناسبة.

لسعيد عقل («المعلّم» كما كان يحبّ أن نسمّيه) مكانةٌ خاصة في ضميري ومسيرتي. أمضيت عقودًا برفقة أعماله، باحثةً في خصوصية الجمالية التي تفرّد بها. كتبتُ صفحات كثيرة عنه: أطروحتين، أبحاثًا ومقالات، وشاركتُ في ندوات ومؤتمرات. شعر سعيد عقل رافقَني ويرافقُني إلى الآن. كنتُ باحثة بالمعنى الأكاديمي، وباحثة بالمعنى الوجداني، أبحث عنه في كل ما كتبه.

سأنقل هنا تجربتي الشخصية مع سعيد عقل، من دون أن أقع في النزعة الأكاديمية والادِّعاء غير المبرّر، بادئةً بالمشوار الذي قادني إليه، واكتشافي جوانبَ عدةً في شخصية هذا الشاعر الذي كان اللبنانيون والعرب منقسمين في الرأي حوله.

لبنان موطن إرث ثقافي

في بداية مشواري، رأيتُني أسبح بين موجتَين عارمتَين: موجة مؤيّديه، وموجة معاكسة تشكّك في قيمة أعماله. وسرعان ما لاحظتُ أن اختلاف الآراء حوله ينطلق في الحالتين من خلفيات إيديولوجية. فسعيد عقل لم

يكن شاعرًا عاديًا ومعزولاً عن الحياة العامة، إذ حمّل شعره في مراحل معيّنة شحنةً إيديولوجيةً قويةً تمحورَت حول نظرته إلى لبنان الذي جعل منه موطن إرث تاريخي يرقى إلى آلاف السنين، متخطيًا المفهوم «العُرُوبَوي» الذي كان يسْجن الوطن في إطار تاريخ إسلامي-عربي. وجاء عملُه «قدموس» يجسّد هذه الأفكار مرحلةَ كان لبنان يجهد لتحقيق استقلاله، فطمحَ إلى هدم الحدود الفاصلة، وإلغاء المسافات ليتجاوز لبنانُ، على المستوى الأفقي، رقعته الصغيرة. فها هو يعلن ذلك في **قدموس**:

... لا شيء في طريق الطموحِ قلتُ إنّا سنقتحم البحر والبرَّ
نجرّ الفتوحَ تلوَ الفتوحِ ومن الموطن الصغير، نرود الأرض
نذري في كلّ شطًّ قرانا نتحدّى الدنيا: شعوبًا وأمصارًا
ونبني - أنّى نشأ - لبنانا

خطر الانجرار

إذًا تجربتي مع سعيد عقل اتّسمَت بشغف البحث الدائم عن الدرب الذي يوصلني إليه. قاومتُ خطر الانجرار وراء المواقف المسْبقة من شخصه ونتاجه، والرضوخ إليها أو التأثّر بها. لم يكن سلوك هذا الدرب سهلاً عليّ، إذ إنني – على الرغم من الإطار الأدبي المحدّد لاختصاصي وعلى غرار سائر اللبنانيين من جيلي – كنت أعيش تجاذبًا حادًّا يقسّمنا فريقَين: أولُ ينتمي إلى «عروبة» منفلشة بتلاوينها الاشتراكية والقومية، والآخرُ ينتمي إلى «لبنانَويَّة» منكمشة لا يُخفي عداءه للانصهار في أمّة يغلب عليها الطابع الإسلامي.

اللبنانَوِيُّ بامتياز

كان سعيد عقل من منظِّري «اللبنانَويَّة»، ويريد لبنانًا متميّزًا فريدًا في محيطه العربي مختلفًا عنه تاريخًا وتقاليد وقيمًا. وهو اختار هذا المسار متوسلاً طريقًا كانت محطّتاها الرئيستان: «قدموس» و«يارا». ففيما أبرز في «قدموس» خصوصية الحالة اللبنانية بأبعادها الأسطورية وشبه الميتافيزيقة، أعلن سنة ١٩٦٠ في ديوان «يارا» مشروعًا جريئًا وخطيرًا بتبنّيه اللغةَ اللبنانية التي استنبط لها أبجدية خاصة صاغها من الحرف اللاتيني مع إدخال بعض التعديلات عليها. غير أنه، على الرغم من مشروعه الإيديولوجي (اللغة والحرف اللبنانيان)، استمرّ في إصدار

دواوين شعرية بعربيةٍ قلّما توصّل إلى إتقانها مثله أيٌّ لبناني أو عربي من دعاة العروبة الأقحاح. وبذلك فرض نفسه شاعرَ العربية بامتياز.

مبدعُ الحداثة الشعرية

من عملي المستمرّ على نتاج سعيد عقل، اكتشفتُ أيضًا أمرَين:

– الأول هو الطاقة الفنية الخلاّقة للشاعر (ألصوَر، الاستعارات، اللعب بالبحور والأوزان، الجمالية الأسلوبية البالغة السمو) ما أتاح لي تحديد موقعه بين التجديد والحداثة، فكان من كبار المساهمين في ولادة الحداثة الشعرية، وإنْ لم يكن من روّادها المعترف بهم.

– الأمر الآخَر هو نظْرته الخاصة إلى لبنان ورسالته ودوره. فإذا كان الأمر الأول من بديهيات العمل الأدبي (لا أحد ينكر ما لشعر سعيد عقل من أهمية في التراث الشعري الحديث والمعاصر)، فالأمر الآخَر كان أكثر إشكاليةً، لأن لبنانيين كثيرين، وأنا منهم، حدَّدوا سلبًا أو إيجابًا موقفهم من شعره انطلاقًا من مواقفه السياسية والإيديولوجية.

في بداياتي لم أكن أحبّذ أراءه في مسألَتَي اللغة ولبنان. كنتُ، كما لبنانيون كثيرون، أرى شعره تجسيدًا أدبيًا لمواقفه الإيديولوجية المسْبَقة. وكان هذا التجسيد يُضعف، بالنسبة إليّ، من مكانة شعره ويقلّل من أهميته. وعندما قبلْتُ في فرنسا موضوع الأطروحة كما عرضَه عليّ أستاذي علي مراد (فرنسي من أصلٍ جزائري) حاولتُ تجنُّبَه ورفْضَه، لكن إصراره من ناحية، وغياب أعمال أكاديمية ونقدية حول نتاجه، دفعاني إلى القبول به، ولو رغمًا عنّي.

التمييز بين الإيديولوجيا والأدب

بدايةً كان عليّ أن أَقْتَنع وأُقْنِع أصدقائي الذين كانوا في معظمهم من مناهضي طروحات سعيد عقل اللغوية والسياسية. كانت «العُرُوبَوية» حينذاك مسيطرة على عقولنا وضمائرنا، وكان الشعر الفلسطيني الملتزم نموذجَ قياسِ الشعر والأدب عمومًا. لكن قراءاتي في الآداب العالمية أرشدَتْني إلى ضرورة التمييز بين مواقف الأديب السياسية والإيديولوجية المعلنة، وأعماله الأدبية. والأمثلة على ذلك كثيرة: بَلْزاك (الملَكي)، سيلين (المتعاون مع الاحتلال النازي)، أراغون (الشيوعي السوفياتي)، ...

أول ما قمت به: تمييزي بين نتاج سعيد عقل الأدبي، ومواقفه السياسية والإيديولوجية. وهذا التمييز ساعدني على اكتشاف أصول الفكرة اللبنانية

عنده. فهو لم يكن «لبنانَوِيًّا» بالمعنى السطحي والمبتذل للكلمة بل صاغ «لبنانَوِيَّتُه» بإتقان، ودعَمها بمصادر تاريخية كثيرة، وأغناها بسِيَر وأساطير وأدبيات مختلفة، فبنى فكرة «لبنان الفريد» وصاغها، مثلما بنى «العُرُوبَويُّون» فكرة العروبة بأسانيد تاريخية وحضارية. أخذ سعيد عقل على عاتقه البحث عن خصوصية تاريخية وأسطورية وأنتروبولوجية لهذا البلد الذي انبثق من انهيار السلطنة العثمانية.

لبنانُه الأسطوري

لم يكن سعيد عقل وحده في تدعيم فكرة لبنان في الواقع وفي الضمير، بل سعى أدباء كثيرون سواه إلى رسم ملامح هذا الوطن، منهم أمين الريحاني الذي دأب على السير في طرقات لبنان وأزقّته متنقّلاً بين قراه وبلداته، فكتب مشاهداته في «قلب لبنان». فالوطن، كي ينوجد في الواقع وفي الضمير، وجب أن تحتلّ مساحتُه فضاءَ كتاب وصفحاتِه.

لبنان سعيد عقل تاريخ أسطوري وإنساني، أراد له الشاعر أن يكون مبتدأ الحضارات والقيَم والعلوم، وأن يكون مركزًا للإشعاع يختزن كمًّا من التاريخ الإنساني والإنجازات.

عروبتُهُ معطًى ثقافي

أما «العروبة» فلها في رأيه مفهوم نظري، فكرة أو إيديولوجيا، يرفضها ويبتعد عنها من دون أن ينكرها أو ينكر حضورها المتأصّل في لبنانيته. فـ«العروبة» عنده حالة حضارية نعيش معها وبها وفيها من خلال لغة عربية تجمعنا ببلدان المنطقة وشعوبها، وننتمي معها إلى تراث مشترك وحضارة واحدة. لذا رفضَها مشروعًا سياسيًّا، وتقبَّلَها مُعطًى ثقافيًّا وفضاءً حضاريًّا وإنسانيًّا، وإلاَّ لَما كتب باللغة العربية. فهو لم يتردّد في استخدامها والتغنّي بالعروبة وبالإسلام في بعض قصائده، ورأى في مسارها الطويل محطاتٍ ومعالمَ تُرسِّخ الكيان اللبناني ولا يتناقض معها. فالعربية تجمعه مع العرب وفي الوقت نفسه تؤكّد خصوصية لبنان وتمايزه وفرادته.

ها رفْضُهُ العروبةَ لم يُثْنِهِ عن التغنّي بعظمة الشام:

شامُ يا ذا السيف لم يغبِ ... يا كلام المجد في الكتبِ
قبلكِ التاريخ في ظلمةٍ ... بعدك استولى على الشهُبِ

ولا عن الانفتاح على الإسلام والتكامل معه:

أنا أينما صلّى الأنام رأت عيني السماء تفتّحت جُودا
لو رملة هتفت بمبدعها شجوًا لكنت لشجوها عودا

(قصيدته «غنّيت مكّة»).

وها هو يُشيد بلغة علي بن أبي طالب:

كلامي على ربِّ الكلام هوىً صعبُ تهيّبْتُ إلّا أنني السيف لم ينْبُ
حببتُ عليًا مذ حببتُ شمائلي له اللغتان: القول يشمخُ والعضْبُ

فلبنانيته إذًا تختلف عن العروبة سياسيًا وتنسجم معها وجدانيًا، ويعدُّها ركنًا من التاريخ والحضور اللبنانيين.

جامع التيارات فيه

على الصعيد الأدبي يتردّد معظم نقّاد الأدب ومؤرّخيه في تحديد موقعه ضمن تيّار أدبي محدّد. بعضهم يَعُدُّه من الرمزيين (أنطُون غطّاس كرم مثلاً)، وآخرون يرون فيه رومنطيقي الملامح (إيليا حاوي) أو رمزي المنحى (يوسف الخال وكمال خير بك). لكنه هو ينتمي إلى جميع هذه التيارات من دون أن يكون تابعًا لتيّار معيّن: هو ليس رومنطيقيًا صرفًا ولا رمزيًا ولا پارناسيًا، بل هو من أوائل رواد الحداثة العربية الحقيقيين شكلاً ومضمونًا.

سعيد عقل ناقدًا

صفةٌ رئيسة لا يذكرها دارسو أعماله: الناقد. فهو كتب مقدمتَين (لـ«**بنت يفتاح**» و«**المجدلية**») ونصوصًا عدة («**كأْس لخمر**») وعالجَ إشكاليات الكتابة الشعرية وعلاقتها بالسياسة وبالشؤون الإنسانية، وإشكاليات الكتابة الروائية ومفاهيمها، ومسار الرواية في لبنان. لذا وجَب النظَر إليه كناقد، أي كقارئٍ نبيهٍ وعميقِ الأعمالَ الأدبية، كما ننظر إلى كبار الأدباء الأوروبيين أمثال مالارميه وڤاليري وپروست وغيرهم. فالذي قال في مقدّمة «**المجدلية**» إن «**اللاوعي رأس حالات الشعر، والوعي رأس حالات النثر**»، هو ناقدٌ معمِّقٌ يجيد، إلى جانب الشعر، التفكيرَ في الإبداع الأدبي، شعرًا ورواية، وتاليًا يمكن اعتباره من مؤسّسي مدرسة نقدية.

صائغ كيان لبنان

أحببتُ الشاعر، واحترمتُ فكره، وإن لم أكن من مؤيّديه تأْييدًا مطلقًا. حاورتُ مَن هو في الضفة الأخرى فكرًا وتصورًا واقتناعات. تعمّقتُ في نظرته إلى لبنان كيانًا حضاريًا وإنسانيًا ولغويًا وفكريًا، وهي نظرة عمل بجهد على بلورتها ونشرها. لم ينجح تمامًا في مشروعه اللغوي، لكنه نجح في صوغ صورة لكيان لبنان الأبدي، وفي بناء عمارته الشعرية الفذّة. ومن الصعب لساكني الزمن الأرضي أن يتقبّلوا بسهولة فكرةً أبديةً وأزلية. ومن خلال سعيد عقل تعرّفتُ إلى من يمكنني اعتباره «الآخر»، فتقبّلتُه في غيريته وفي اختلافه عنّي، وأحببتُه بهذه الصفة من دون أن أتماهى معه أو أُنكره.

واليوم، مع تبنّي كلٍ لبنان فكرة «لبنان وطن دائم لكل اللبنانيين»، ومع رفع شعار «لبنان أولاً»، ليس أمام محبّذي هذا الـ«لبنان» سوى إعادة قراءة ما كتبه سعيد عقل في «قدموس»، وفي «لبنان إن حكى»، وفي بعض قصائد «كما الأعمدة»، وفي افتتاحيات جريدة «لسان الحال»، لكي يؤسّسوا للبنانَ كيانًا مستقلاً مميّزًا وفذًّا في ضميرهم، كيانًا هو جزء من عروبةٍ بحاجة إلى تحديد، تقْبل الاختلاف والخصوصيات من دون تنابذ أو ذوبان.

ألكسندر نجار:
تعلَّمتُ من سعيد عقل



كثيرون من الجامعيين والأدَباء تحدّثوا بإسهاب عن سعيد عقل. سأتناول الموضوع من مِنظار شخصي لكاتب فرنكوفوني عرف سعيد عقل وتأثّرَ به.

ذات يوم سَألتُ سعيد عقل كيف يُعرّف عن نفسه فأجابني: «شاعر، لغوي، لاهوتي، خطيب» «Poète, linguiste, théologien et orateur»).

الثورة الفرنسية خطأٌ تاريخيٌّ

معرفتي به تعود أولاً منذ كُتبي المدرسية، وتحديداً مع قصيدته الرائعة التي غنّتها فيروز: «أمي يا ملاكي، يا حبيَّ الباقي إلى الأبد» وأذكر أنه كان الكاتبِ الوحيد الحي بين سائر الأدباء المذكورين في كتابِ الأدب العربيّ. وغالباً ما كان والدي يتحدّث عنه ولا يفوّت أيًّا من مقابلات تلفزيونية كان يشدّدُ فيها على حبّه للبنان، وعلى سعيهِ الحثيث إلى العثورِ في تاريخِنا الفينيقي عن الأسباب الكافية لرفع بلدِنا الى الصفّ الأوّل بين البلدان المتحضّرة.

سنة ١٩٨٩، في الذكرى المئوية الثانية للثورة الفرنسية، قابلْتُه للمرة الأولى في منزله في عين الرمانة أستطلع رأيهُ حول هذا الحدث التاريخي. كنتُ مرتبكاً عندما استقبلني الشاعر الكبير الذي كنتُ ألقي قصائدَه في المدرسة، وتأثرت جدًّا بترحيبه الحار وتشجيعه عندما أهديته كتابي الأول. وبهرتني سعة اطّلاعِه، وثقافته الواسعة وإلمامه بالفرنسية. إلا أنني دُهشتُ عندما قال لي إن الثورة الفرنسية كانت خطأً تاريخيًّا لأنها شكّلت نهاية النظام الملكي الذي سمح لفرنسا أن تَنْشرَ إشعاعَها في العالم :

« A l’époque de la Monarchie, le rayonnement de la France était incomparable. C’était le cœur de l’Europe, la fille aînée de l’Eglise. Avec la Révolution qui s'est dévorée elle-même, le déclin de la France a commencé ».

حاولتُ لاحقاً ترجمة بعض أشعارِهِ الى الفرنسية. لكن غالبية قصائده عصّية على الترجمة كالماسة التي لا يمكن قطعها من دون تشويه نقاوتها. مع ذلك أصررتُ على ترجمة قصيدة من ديوانه «يارا» لنشرها في ملحق «الأوريان الأدبي».

قاموس السماء

كُتِبَ الكثير عن سعيد عقل، ولامَه البعض على مغالاته في تعصّبه الفينيقي واعتباره لبنان مركز العالم، أو على بعض مواقفه السياسية. والبعض الآخر لم يأخذ على محمل الجدّ نظريات جريئة كان يطرحها أحيانًا، كما عندما دعا إلى وضع «قاموس السماء» لا تَرِد فيه سوى «الكلمات الإيجابية» كالحب والطهارة، ونحذف منه الكلمات السلبيّة تماشياً مع قول أوسكار وايلد: «يجب التخلُّص من كل شيء سلبي في العالم»، أو عندما ابتكر أبجدية للّغة اللبنانية بالأحرف اللاتينية بات اليوم يستخدمها الجميع في الهواتف الجوّالة لتبادل الرسائل الإلكترونية. إلاَّ أنّ الكلّ يجمع على اعتباره من أبرز الشعراء في العالم العربي.

وذات يوم التقيتُه بعدما طَلَبَت مني السيدة نورا جنبلاط مشاركته في وضع كلمات أغنية «بلادي أنا» التي غنّتها ماجدة الرومي في افتتاح الألعاب الفرنكوفونية في بيروت. يومها كتبتُ بالفرنسية أبياتًا تعبّر عما قصده سعيد عقل في تلك الأبيات من رائعته «قدموس»، فجَمَعَت الأغنية بين النصّين واللغتين بطريقة سلسة ومعبّرة.

كنتُ أَشفيه من الإِلحاد

بعدما أطلق سعيد عقل جائزة أدبية باسمه لاكتشاف عشرات المواهب اللبنانية. وكان لي شرف استلامها بحضوره في مقرّ نقابة الصحافة. ثم نشر ديوانَين بالفرنسية («الذهب قصائد» *L'or est poèmes* و«حكمة فينيقيا» *Sagesse de Phénicie*)، مؤكّداً تعلّقه بلُغة بول فاليري الذي طالما اعتبره قدوة، مع تحفّظ واحد هو غياب اللّه في مؤّلفات فاليري، وأضاف: «لو عرفتُهُ لكُنتُ أَشفيه من الإلحاد».

وفي هذا السياق قال لي في مقابلتي معه لِـ«ملحق الأوريان الأدبي»:

« Je suis un grand admirateur de Paul Valéry. Mais il lui manquait Dieu. Si je l'avais connu, je l'aurais sorti de l'athéisme. Connaître Dieu, c'est connaître de grandes choses. Sans Dieu, notre civilisation serait mesquine ».

وراح يحدّثني عن اللّه أنه: «الجودة» (Dieu est qualité)، وعن الجمال الذي، وفق دوستويفسكي «سينقذ العالم»، وعن الحبّ والمرأة، وعن لبنان وفينيقيا. وكان يتمنّى أن ينضمّ لبنان إلى الاتحاد الاوروبي لأن أوروبا هي ابنة أجنَّار ملك صور، وشَرَح:

« L'Europe doit nécessairement se faire avec la Phénicie. Je ne puis concevoir l'Union Européenne sans le Liban. Victor Bérard affirmait que «la Phénicie est la mère patrie de cet outre-mer appelé Europe». On nous parle de l'entrée de la Turquie ou d'Israël dans l'Union européenne. C'est une aberration. Ces idiots de politiciens libanais devraient exiger l'adhésion du Liban à ce chef-d'œuvre poétique du XXe siècle ».

القصيدة تختصر الكون

كان يعتبر أن قصيدة واحدة تحوي الكون وتعانق الخلود، وأن القصيدة هي رحلةُ الروح من الظلمة نحو نور اللّه:

« Le plus petit poème peut contenir l'univers et embrasser l'éternité. Le poème est le voyage d'une âme ténébreuse vers l'éblouissement des sphères astrales dont Dieu est la fin ».

وقال لي: «يزعمون أن في الاتّحاد قوة. هذا كلام غير صحيح. لأن الاتّحاد يمكن أن يتمّ حول الخطأ. يجب القول إن القوة هي في الاتحاد حول الحقيقة. مَنْ يملك الحقيقة لا يخاف أبدًا».

وكان يعتبر أن الشاعر يجب أن يكون عالِماً مثقّفاً وملمّاً بالرياضيات:

« La poésie est géométrie. Un vers classique est comparable à un théorème ».

وتعلّمتُ منه أن أدرك أهمية لبنان والتراث الفينيقي الذي كان الشاعر الفرنكوفوني شارل قرم من أكبر المدافعين عنه. وهو ما حملني على وضع كتابي بعنوان «Phénicia» (صدر بالعربية بعنوان «حصار صور») عرضتُ فيه مقاومة الفينيقيين الباسلة بوجه جيوش الإسكندر. وسألني سعيد عقل يومًا بنبرة غاضبة: «كيف تحمل اسم عدو صور؟» فضحكت ووضعت اللوم على جدّي الذي كان من أوائل المحامين في مدينة.... صور.

لا إبداع بدون ثقافة

وتعلّمتُ منه أن الإبداع باطل من دون ثقافة:

« Il n’y a pas de création sans culture. Pour créer une œuvre brillante il faut nécessairement être cultivé. La culture dissipe la peur et l’hésitation. La main de l’artiste ne tremble plus ».

وكان يقول: «شكسبير وغوته وليوناردو دافنشي وميكايلنجلو... كانوا مثقفين»، ويضيف: «Le vers c’est d’abord la pensée» (أي: «بيت الشعر هو أولاً الفكر».

وتعلّمت منه أن أتَجدّد، لأن الكاتب الذي لا يتجدّد أو يُجدّد يصبح عقيمًا:

« Il faut que le poète soit novateur, il faut qu’il s’agisse d’une écriture qui sorte de l’ordinaire ».

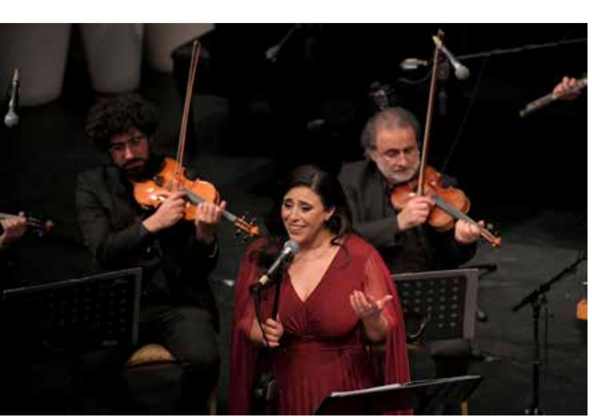
وهذا ما لمستُه في كتابيه بالفرنسية حيث تركيبة القصيدة خارجة عن المألوف ولا تشبه القصائد الفرنسية الكلاسيكية. وهذا ما فعله أيضاَ في شعره بالعربية فمهّد الطريق للشعر العربي الحديث والحركة الشعرية التي تمحورَت حول مجلّة «شعر». فهو لم يكن تابعًا أيَّ تيار رمزي أو رومنطيقي أو برناسي، بل بقي حرًّا مميَّزًا خارجًا عن المألوف».

ضرورةُ نشر مخطوطاته

صحيح أن سعيد عقل غادَرَنا قبل عشر سنوات، لكنه لا يزال حاضِرًا في ثقافتنا ووِجداننا. وعندما وضعتُ كتابي Dictionnaire amoureux du Liban (صدرَ بالعربية بعنوان «قاموس لبنان») تعمَّدتُ أن يكون سعيد عقل فيه تحت حرف «A» بالفرنسية و«ع» بالعربية، عربون وفاء وتقدير. وأتمنى على «جامعة سيدة اللويزة»، التي سلّمها سعيد عقل بعض مخطوطاته، أن تبادر إلى نشرها لأننا في حاجة إلى اكتشاف مزيد من هذا العبقري الثائر الذي أكّدت مسيرتُه قول الأديب ميشال بوتور (Michel Butor): «كل كلمة نكتُبها هي انتصارٌ على الموت». «Chaque mot écrit est une victoire contre la mort».

الأُمسية الغنائية

المايسترو أندريه الحاج يقود الأوركسترا



كارلا رميا تغني من شعر سعيد عقل

هنري زغيب يقرأ القصيدة قبل تأديتها مغنّاة

الملف الثاني

عصر الرحباني وفيروز



هنري زغيب يحمل كتابه «الأخوين رحباني طريق النحل»، وفيه قرأ عددًا من قصائد لعاصي ومنصور

عصر الرحباني وفيروز

لم تَنْتَهِ – ولن – أَبحاث ودراسات ومقالات وكتُب وكتابات ولقاءات ومحاضرات وندوات ومؤْتمرات عن الأَخوين رحباني وأَثرهما على تغيير المستوى الفني في لبنان كما في الشرق العربي، وما لصوت الخالدة فيروز من أَثر في قلوب الملايين وذائقتهم الفنية، منذ انطلاق الظاهرة الرحبانية قبل ثلاثة أَرباع القرن (١٩٤٩–٢٠٢٤)، حتى ليمكن القول، بكل ثقة، إِننا فعلاً في عصر الرحباني وفيروز.

و«مركز التراث اللبناني» الذي، منذ نشْأَته، يتعهَّد إِحياء التراث بجميع عناصره المادية وغير المادية، لا يغيب عن تلك الظاهِرة. لذا نظَّم مؤْتمرًا خاصًّا عن الإِرث الرحباني ونجمته الساطعة فيروز، في ثلاث جلسات أَكاديمية عالجَ فيه المحاضرون نواحيَ جديدةً من التراث الرحباني ومن حضور فيروز فيه، حتى إِذا انتهت المحاضرات انتقلَ الجمهورُ الكثيف إِلى مسرح «إِرْوِن» في حَرَم الجامعة لمتابعة سهرة استثنائية أَعدَّتْها المايستْرا الأُخت مارانا سعد، مؤَسِّسة جمعية ومعهد «فيلوكاليَّا»، وقادت فرقة «عشتار» (من «فيلوكاليَّا») وأُوركسترا من كبار العازفين في لبنان.

في هذا الملفّ نُصوصُ المحاضرات وملامحُ فوتوغرافيةٌ من تلك السهرة الغنائية الرحبانية.





الجلسة الأولى: ٣:٠٠ – ٤:٠٠

الدكتور فيليب سالم (من هيوستن): «عاصي ومنصور: صداقةٌ أغْنَتْ حياتي»

الفنان مرسيل خليفة: «ما كان أبْيَـنَ من بيانهما»

الجلسة الثانية: ٤:٠٠ – ٥:٠٠

الباحث محمود زيباوي: «عاصي ومنصور: بداياتٌ مَجهولة» (١٩٤٨–١٩٥٤)

الأب بديع الحاج: «فيروز الصوت والأداء»

استراحة قهوة: ٥:٠٠ – ٥:١٥

الجلسة الثالثة: ٥:١٥ – ٦:١٥

الكاتب فارس يواكيم: «المسرح الغنائي كما أحياهُ عاصي ومنصور»

الباحثة هالة نهرا: «فيروز وزياد: تيَّارٌ طليعيّ»

خلال الجلسات:

مدير المركز **الشاعر هنري زغيب** يقرأ من قصائد الأخوين رحباني

الأمسية الغنائية: ٧:٠٠ – ٨:٠٠ مسرح إروين (مبنى رئاسة الجامعة)

مجموعة أغنيات رحبانية فيروزية:

غناء: **فرقة «عشتار» – «فيلوكاليّا»**

إعداد وقيادة: **الأخت مارانا سعد**

(٢/٢)

النهار السبت 24 شباط 2024

"عصر الرحباني وفيروز" في "اللبنانية الأَميركية" LAU



في سلسلة البرامج الخاصة بمئوية الجامعة اللبنانية الأَميركية (1924 2024-LAU) دعا "مركزُ التراث اللبناني" في الجامعة إِلى مؤْتمر أَكاديمي وأُمسية غنائية رحبانية نهار الإِثنين 4 آذار 2024 في حَرَم بيروت، وفق البرنامج الاتي:

المؤْتمر من ثلاث جلسات في القاعة 903 من مبنى كلية عدنان القصَّار لإِدارة الأَعمال:

الجلسة الأُولى - 3:00 - 4:00: يفتتحها رئيس الجامعة الدكتور ميشال معوَّض ويتحدَّث فيها الدكتور فيليب سالم (من هيوستن): "عاصي ومنصور: صداقةٌ أَغْنَتْ حياتي"، و الفنان مرسيل خليفة: "ما كان أَبْيَـنَ من بيانهما".

الجلسة الثانية 4:00- - 5:00: يتحدَّث فيها الباحث محمود زيباوي: "عاصي ومنصور: بداياتٌ مَجهولة" (1948-1954) والأَب بديع الحاج: "فيروز الصوت والأَداء".

الجلسة الثالثة: 5:15 - 6:15: يتحدَّث فيها الكاتب فارس يواكيم: "المسرح الغنائي كما أَحياهُ عاصي ومنصور" والباحثة هالة نهرا: "فيروز وزياد: تيَّارٌ طليعيّ".

تتخلَّل الجلساتِ قراءةٌ مدير المركز الشاعر هنري زغيب قصائدَ للأَخوين رحباني.

الأُمسية الغنائية الرحبانية: 7:00 - 8:00 على مسرح إِروين (مبنى رئاسة الجامعة): مجموعة أُغنيات فيروزية مع فرقة "عشتار" - "فيلّوكاليّا" بإِعداد وقيادة: الأُخت مارانا سعد. والدعوة إِلى المؤْتمر والأُمسية الغنائية عامة مفتوحة.

رئيس الجامعة الدكتور ميشال معوض يفتتح مؤتمر «عصر الرحباني وفيروز»



أَصدقاءَ LAU و«مركز التراث» فيها:

تتوالى اللقاءاتُ والأَنشطةُ التي تُواكبُ مئويةَ الجامعة هذا العام (١٩٢٤–٢٠٢٤)، إحتفاءً بما قدَّمَت جامعتُنا طيلةَ قرنٍ كاملٍ من عمرها في خدمة التربيةِ والتعليمِ العالي والتراثِ اللبناني بأَعلامِه ومَعَالِمه وعَلاماتِه.

وها نحن هنا الآن في نشاطٍ آخَرَ خاصٍّ بالمئوية: «عصر الرحباني وفيروز».

وإنني أَذكُرُ، وتَذكُرون حتمًا، أَننا جميعًا، في مطالِعِنا وفي مراحلِنا التاليةِ، وَعَيْنا على صوت فيروز يَصدَحُ في ذاكرتنا بأَجملِ الكلمات وأَعذبِ الأَلحان، وما زال صوتُها يُرافقُنا صباحًا من مختلف الإِذاعات، فكأَننا نصحو لا على صُبْحٍ جديدٍ بل على صوتها يَفتتُحُ نهاراتنا قبل أَن ننصرف إِلى مكاتبِنا وأَعمالِنا.

ويكون أَنَّ صوتَها يحملُ ينبوعًا مُبدعًا من الشعر والميلوديا، ينبوعًا فيّاضًا بالعطاء والجمال، فيتكاملُ في ذهنِنا وذاكرتِنا ثالوثٌ مكرَّسٌ مرصودٌ على حُبِّ الجمال، ثالوثٌ إِسمُه عاصي ومنصور وفيروز، يَرفِدُنا بأُغنيات الحب، ومحبةِ الوطن، ومسرحيَّاتٍ باقيةٍ في بالنا بمشاهدِها وحواراتِها ورُمُوزِها، وبحضُور فيروز الذي يجعلُها أَيقونةً من لبنان تشِعُّ على العالَم. وليس أَدلَّ على هالتِها المُشِعَّة من أَن يكون رئيسُ فرنسا افتَتَحَ لديها زيارتَهُ لُبنان، في بادرةٍ تدلُّ كم هي عنوانٌ إِبداعيٌّ فريدٌ لِلُبنان.

وها هي جامعتُنا، في سياق الاحتفالات بِمِئَويَّـتِها، تُكرِّس اليومَ بهاءَ الحضور الرحباني الفيروزي في هذا المؤْتمر بِقِسْمَيْه: المنبريِّ الأَكاديميِّ هنا في هذه القاعة، والفنيِّ الغنائيِّ هذا المساء في مسرح إِروين، كي تتكامَلَ الصورةُ بين المُداخلات على هذا المنبر، والأُغنيات على المسرح. و«مركزُ التراث» في الجامعة أَحسَنَ اختيارَ عنوان هذا المؤْتمر فسمَّاه «عصر الرحباني وفيروز». وإِنه فعلاً هكذا عصرُنا الفنيُّ منذ ثلاثة أَرباع القرن حتى اليوم، وسوف يُقَالُ بعد سنواتٍ طويلةٍ إِننا عِشْنا في عصر الأَخوين رحباني وفيروز.

شُكرًا لـ «مركزِ التراث» على إعدادِه هذا المؤتمرَ وتنظيمِه في سياقِ الاحتفالاتِ بمئويةِ الجامعة، وعلى الأُمسيةِ الفيروزيةِ التي تنتظرُنا هذا المساء، حتى نجسِّدَ معًا كيف جامعتُنا، منذ قرنٍ كامل، تعمَلُ لِمجدِ لبنان تربويًّا وثقافيًا وتراثيًا وفنيًّا، وهو دورٌ رئيسٌ في أَهدافِ جامعتنا أَن تكون في مجتمعنا واحةً للتلاقي والحوار.

والآن، أَتركُ المنبر للسادةِ المُحاضرين يفْتَحون لنا الآفاقَ الرحبانية والفيروزية سيرةً ومسيرَة.

شكرًا لِمشاركتِكُم معنا في مئويَّة LAU. وأَهلاً بكُم جميعًا.



هنري زغيب، بين الخطيب والآخر في المؤتمر، راح يسرد صفحات من سيرة الأخوين رحباني، ويقرأ أشهر القصائد التي صدرت مغناةً بصوت الخالدة فيروز

د فيليب سالم: عاصي ومنصور... صداقةٌ أَغنَتْ حياتي



كانا أَخوَين. وكـأَنْ لم يَكُنْ قبلَهُما أَخـوَانٌ مثلُهما. كانا واحدًا في المحبةِ والأُخُوَّةِ والإبداع، حتى ليَصعب أن تَعرف أَيَّهما الشاعرُ وأَيَّهما الموسيقار.

كُنّا نَتَغَدَّى كلَّ خَميسٍ لدى «مطعم فيصل» في رأْس بيروتٍ. في الطريق إلى المطعم، كان عاصي يُمسك بيدي ويشدُّ عليها هامسًا في أُذُنـي: «هيدا منصور مْهمّ. إذا صارلي شي بدَّك تْخلّي عينَك عليه». كان منصور يَكْبَرُني سنًّا. ومع ذلك، بعدَ أَن غادَرَنا عاصي، أَصبح لي منصور أَخي الأَصغر كما كان لعاصي، وَصارت عيناي تُلاحِقانه ولو من بعيد.

مَن صنَعَ الكـون؟

كانَ عاصي يسأَل في الماورائيات: مَن صَنَعَ الكون؟ مَن أَعطى الحياة؟ لماذا كلُّ هذا الوجود؟ هَل اللّه هو اللّه الذي نَعْرِفُه: الذي «نَزَلَ مِنَ السماءِ وَتَجسّد»؟ أَم أَنه «شيءٌ آخر». ومَن عرفَ عاصي عن كَثَب يَعرِفُ أَنه مُصِرٌّ على معرفة ماهية هذا «الشِيْ». كان يَخافُ الموت، ويَودُّ أَن يَعرِفَ شيئًا عن «الشِيْ» قبلَ اللقاءِ به. يسأَلُني: «هل رَأَيْتَ في طِبّكَ شيئًا من مَلامح هذا «الشِيْ؟». وعندما أَجوبَتي لا تَروي عطشَ تساؤُلِه، يُصَابُ بِخَيبةٍ وَيُتمتم: «فيه شِيْ.. أَكيد فيه شِيْ». كانَ عقلُه يَضجُّ دائمًا بالأَسئلة. يَسأَلني عن الخَليّة والخلايا. وارتكبتُ ذات يوم خطأَ أن أَشرح له كَيفَ تَعملُ الخلايا بتنسيقٍ مَهيب، وكيفَ عِندما تنامُ تَبقَى الخلايا تعمل كي توفِّر الحياة. وشَرحتُ له أَنَّ الخَليةَ الواحدةَ أَصغرُ مُركَّب في جَسَدِ الإنسان، وأَنها كالكون لا حُدودَ للمعرفةِ فيها. ذُهِلَ عاصي وامتلَكه الفَرح، وبات مُدمنًا على معرفةِ وظائفِ الخَلايا، ويَسأَلُني عنها كلَّما التقَينا. إلاَّ أَنَّه لم يَسأَلْني يومًا عن الخليةِ السرطانية، متجنِّبًا الكلامَ عنها، معتبرًا أَنَ عَلاقَتَه بي عقْدُ تأْمينٍ يقيه الإِصابة بالسرطان.

صوتُ رجُل غريب

غادَرَنا عاصي وبَقِيَ منصور، وأَكمَلْنا مشوار الصَداقة التي لا تريدُ شيئًا سوى الصَّداقة. وعلى الرغم من آلاف الأَميالِ بيني وبينه، كانَ يعيشُ معي. يَرِنُّ تلفون مكتبي في هيوستن تقولُ لي مُساعدتي: «رَجُلٌ غَريبُ الصوتِ يريدُ التحدُّثَ إليك». ويكون ذاك صوتَ منصور يَهْدُر في عيادتي فترتَجِفُ حيطانُها: «أَيمتى جايي؟ صار فيه عصافير. بدنا نتغدَّى عند الحلبي. لا بَقى تْطَوِّل». وعندَ الانتهاءِ من المُكالمة، تعودُ مُساعِدَتي تَسأَلُني: «لِمَ هذا الرجلُ غاضِبٌ عليك»؟ وكيفَ أَشْرَحُ لها أَنَّ ما اعتقدَتْهُ غَضَبًا هو أَجملُ ما سَمِعَتْهُ أُذُني. هذا النوعُ من الصداقاتِ يَعيش في الشرق ولا يعيشُ في الغرب.



فيليب سالم في بيت منصور الرحباني (إلى يساره) وإلى يمينه هُدى حداد والياس الرحباني

طريق بطرَّام تَمُرُّ في أنطلياس

عند كل زيارة لي إلى لبنان، في الطريق من المطار إلى بطرّام، أَمُرُّ على أنطلياس لزيارة منصور في بيته الذي يضمُّ أَجملَ ذكرياتي: هذا منصور، وهذه تريز، وهؤُلاء مروان وغدي وأُسامة. بيتٌ يَضِيقُ بالفَرح. تَكادُ حِجَارَتُه تسأَلُني: «أَينَ كُنْتَ؟» أَختلي بمنصور ساعاتٍ عذبةً في غُرفةِ مكتبه. نحكي قصصًا وحكايات. يُداهمنا الوقت. أَتذكَّر أَن البيتَ في بطرَّام يَنتظَرُني. أُعانِقُ منصور وأُودِّعُه.

في نيسان ٢٠٠٢ كان احتفال بتكريمي في قصر الأُونسكو. ومما قال منصور: «قل لهم نريدُ وطنًا كبيرًا، وطنًا للطموح، يؤَمِّن للباحث تجاربَه

فلا يغترب كي يُحقّقَ الخيرَ للآخرين. قل لهم نريدُ وطنًا للإبداع، ولا إبداعَ خارجَ العدالة، ولا عدالة خارجَ الحرية».

عاصي ومنصور كانا «ولاد ضيعة». عَرفا دروبَها وبيوتَها وأَشجارَها، كما عرفا أَنّ حقيقةَ لبنان تَكْمُنُ في حَضارتِها. في الضيعةِ يتعلمُّ المرءُ الولاءَ للأَرض، الولاءَ للأَهَل، الولاءَ للوطن. وكم حَظِّيْ كبيرٌ أَنني وُلدتُ وعِشْتُ في ضَيعةٍ مِن لبنان.



فيليب سالم في مطعم «بيبي عبد» (ميناء جبيل)،
إلى يمينه صاحب المطعم،
وإلى يساره منصور الرحباني وزوجته تريز

قبل غيابه الأَخير

قبلَ وفاتهِ هاتفَني: «أَنا في المستشفى. يقول الأَطباءُ إنَّ وضعي الصحي صعب. بدِّي شوفَك». بعد يومين كنتُ في بيروت. مِنَ المطار تَوًّا إلى المستشفى. هذا منصور: الصخرةُ، الجبلُ، طَريحُ الفراش ويَصْعُبُ عليه التنفُّس. قبَّلتُهُ على جبينهِ أَلفَ قُبلة، وجلستُ بجانبهِ ساعاتٍ أُمْسِكُ يَدَه وأُصغي إليه: «هالوْلاد حَظُّنْ قليل. ما عندي مال ولا عندي أَرض ورِّثْهُنْ. بس تاركلْهنْ أَربع خمس مسرحيات». ومَضَى منصور وبَقِيَت المَحبة، وبقيَت الكلمة.

قدسيَّة الثالوث الرحباني

عاصي ومنصور حكايةُ عُمر. حكايةُ حَضارة. وجاءت سيدةُ لبنانَ الأُولى فيروز، فاكتملَ الثالوثُ اللبناني المقدّس. قد يَختلفُ اللبنانيون في أُمورٍ كثيرة، لكنّهم لا يختلفونَ في قدسيةِ هذا الثالوث الذي رَفعَ لبنانَ إلى فَوق، وأَغنى حضارَته، وأَعطاهُ معنًى ناصعًا وهويةً جديدة.

قبل سنواتٍ عديدةٍ نشرتُ في «النهار» ثلاث افتتاحيات في ثلاثة أَيام متتالية، بعنوان واحد: «معنى لبنان». يومها، أَهدَيْتُ تلك الافتتاحيات إلى رُوحَيْ عاصي ومنصور. وهل يمكن الكلام عن مَعنى لبنان من دون الانحناء أَمامَ هذا الثالوث الذي جعل لبنانَ منارةً للحضارةِ ومنبعًا للفرح، وملأَ سَماءَ هذا الشرقِ حُبًا وعُشقًا؟ صارَ الفرحُ ينبعُ عندنا، ثم يَتدفّقُ على مساحةِ الشرقِ كلّه. منذ خمسينَ سنةً ولبنانُ في حُزنٍ وأَلمٍ عميقَين، لكنه لم يتوقَّفْ عَنْ تصديرِ الفرح، لا إلى العالم العربي فقط، بل إلى جميع بقاعِ الأَرض. إنّهُ لبنان، أَرضُ الفَرحِ ولو انها شَبعَتْ دماءً وكانت شاهدةً على الحروبِ والنزاعات. إنّه لبنانُ المؤمنُ بثقافةِ الحياة على رغم الموتِ الذي يَلِفُّه. نَحْنُ لم نُولَد لِنَموت. نحن وُلِدنا لنحيا. ويُخطئُ من يَظنّ أَن الثالوث الرحباني رَسَمَ لبنانًا غيرَ لُبنانِنا. كان لُبنانُه لبنانَ الحَقيقي. أمّا لبنانُنا اليومَ فهو لبنانُ المزوّر.



فيليب سالم يشارك منصور الرحباني يوم ذكرى ميلاده

رح شُوف عاصي؟

عاصي ومنصور قِصّةٌ كبيرة. يَوْمَ زُرتُ منصور في المستشفى سأَلني: «أَتُرى سأَلتقي بعاصي؟ وهل سَيَعرفني وأَعرفُه؟» كانا أَخوينِ على الأَرض، ويُصرَّانِ أَن يَبْقَيا أَخوينِ في السماء.

ماتَ عاصي، وماتَ منصور، لكنّهُما تَرَكا لنا وللبنانيينَ جميعًا وصيةً تَقول: «إِعبَدوا لبنانَ بَعْدَ الله».

بلى: يَجب أَنْ نَعْبدهُ كي نَستحقَّه. يَجِبُ أَن نَعْبدهُ كي نُعيدَهُ إِلى الحياة.

مرسيل خليفة:
فيروز، أُقَبِّلُ صوتَكِ



عاصي ومنصور في فوّار أنطلياس يتهامسان: «أنتَ أنا وأنا أنت... وما بيننا الأُرجوان وموكبُ الزمان على جسدٍ كُنَّاهُ سويًّا وكانت لنا خيمةٌ منصوبةٌ على تُخُوم حقل من الزَّنبَق.»

بُونا بولُس

عاصي ومنصور في أنطلياس حيثُ يقيمان، ومن ثَمّ في أقاصي الدنيا حيث تَشُدُّ أعمالُهما رِحْالَها وتغتربُ. لسعةُ الشِعر في شِعرهما لغةٌ تَفوحُ لها رائحةُ المدى، وينتشر عرْفُها في البعيد. لا من قديمٍ معتَّقٍ في جِرار الكلام هي، ولا من بقايا مُنمنمات الألحان.

الراهب الأنطوني بولس الأشقر أستاذهما الأول. قَذَفَتْ به السماء في دَيْر مار الياس أنطلياس، وأَشْعَلَ بمزاميره الرائدة ومقاماته الصادحة عطشَ صحراء الخامتين الواعدتين. كانا أمام جملتَين مطرَّزتَين بِسَجع النهَوَند ينحنيان ويبكيان، أو من سكرة بإيقاع السَمَاعي الثقيل يَأْثَمان. تلكَ رحلتُهما ولوعتُهما ومتاعُهُما الأقْدَم. وبولس الأشقر كتاب يعلّمُهما كيف يأنَسان بما تَعَلَّما.

صوتها أولُ الحُب

الأَخَوان فَتَّحا الأبواب التي لا حُرّاسَ عليها، وأطلقا السحريّ في الموسيقى والشِعر شهدًا يتقطَّر. وَهَبَا الوجود الممكن للمُحال، وصنَعا في لحظة صمتٍ ما قال العاشق لعشيقته حين شَعَّ الحنينُ إلى الوصال، وأطلقا في البياض موجَ الرحيلِ إلى البعيد على صَهوة الشهوات.

وفيروز؟ فيروز سورةٌ ترتلُها القادمات من أغاني الريف، حاملاتٍ قِرابَهنَّ صُبحًا، ولقطاف مسائهنَّ تُهيئْنَ السِلال. صوتها حكمةٌ، ورعشةٌ

لا يعرفها سوى الأنبياء، قرينُ رؤية ما لا يُرى. صوتها الوجعُ الشديدُ يرفع روحًا عن المألوف. صدى البعيد الذي يأتي ليأخُذَكَ. صوتُها الشدَّةُ والصَدمةُ والدهشةُ. هو الولادةُ من مخاضٍ لا ينتهي. هو الكرزُ على صدور قَرَويّاتٍ يَحملنَ حطب المساء البارد، ويروِّضْنَ بالمواويل شَبَقَ الماعز، أو يردِّدنَ نحيب الروح في الجهات. هو أولُ الحب، وبُحَّةُ الناي في مساءات الرُعاة. هو أغنيةٌ ترصِّعُ صورة تُحاكي ما في الروح من نسقٍ فوضويّ يُشيّدُهُ الخيال.

يوم ارتعشتُ أمامهم في عمشيت

كنتُ في مطلع شبابي متحمسًا أخرقَ يريد أن يغيّر العالم. وذات يوم، التقيت عاصي ومنصور وفيروز في بلدتي عمشيت لدى بطرس جريس سعد وكانوا في زيارة عائليّة. يومها تحولت الضيعة ساحة من ساحات أعيادهم، إذ انتشر فيها الخبر بأن الرحابنة مدعوُّونَ إلى الغداء في ذاك البيت العمشيتي. يومها وقفتُ بقامتي الصغيرة قرب حافة الدرج الطويل المؤدي إلى البيت العالي، ورحنا نتهامس ورفاقي الصغار أننا سنلمح وجوه هؤلاء المدعوّين: عاصي ومنصور وفيروز.

إلى ذاك البيت العالي ذاته دُعيتُ لاحقًا مع عُودي، وكنتُ بدأت بالدراسة الموسيقيّة، وكان الرحابنة هناك. يومها دخلتُ وتعثّرت بطرف السجادة وسْط الدار، فاحمرَّ وجهي خجلاً لكنني تمالكت إذ سمعت عاصي يقول لي: «شو بدّك تسمعنا يا شاطر»؟ كنتُ تعلمْتُ في الكونسرفاتوار «لونغا نَهَوَنْد» فعزفتُها بصوتٍ خافت مستعجل، وفي وجهي اعتذارٌ كأنني أقترف عملاً سيِّئًا أريد التخلُّص منه بسرعة. وحين عدتُ إلى البيت، كان وجه أمي مشرقًا يحرِّضني على أجوبة عن أسئلة قرأْتُها في عيني ماتيلدا. أخبرتُها عن إطلالة منصور وكلام عاصي وصمت فيروز، وعن تهيُّبي أمامهم، فذكَّرتْني بموعدي مع أُستاذي في التمرين على العود. «حين بكى الطفل، وأراد أن تقطف له أمُّه القمر، أتت بدلو الماء وصوبته إلى السماء. مدّ الطفل يده إلى الماء فانكسر القمر. ضحك الطفل ثمّ نام». صحيح أن الولد ضحك ثم نام، أما أنا فبقيت ساهرًا أُلملم تناثر القمر على وجه ذاكرةٍ تموج كالماء الهارب من الولد ليغطّي مساحاتٍ شاسعةً من الزمن، فيصبح ماءُ الدلو جدولاً، نهرًا، بحرًا، ضجيجًا، غناءً، رقصًا، سكْرًا، عرسًا، وجعًا، نارًا تصهر كل ما قسا فيّ وتحجّر، وتُعيده جديدًا نديًّا نقيًّا مثل قربانة أولى أو قبلةٍ أولى. عاصي ومنصور وفيروز رأيتُهم يصقلون مرآةً للقمر على صفحة الماء، ويضحكون كالأطفال أمام انكسار القمر.

من التلحين إلى التأْليف الموسيقي

بعد سيّد درويش، قَلَبَ عاصي ومنصور معادلة الغناء العربيّ. معهما انتقل الغناء من «التلحين» إلى «التأليف» الموسيقي، إذ النص الموسيقي يعيد كتابة النص الشعري ثانيةً فيحرّر الأداء الصوتي ليعبر عن ذاته من الداخل. وموسيقى الشرق المخبوءة نجحا في استخراجها، بالعودة إلى الينابيع، إلى التراث البيزنطي والسرياني الكنسيّ، إلى التراتيل والمدائح والأذان، إلى المقام والموشحات والقدود والأدوار والموّال، وإلى التراث الشعبيّ آخذَيْن من مخزونه ما أعادوا كتابته بلُغةٍ موسيقية أوركسترالية أنيقة باذخة الجمال. والتزما قضايا لبنان والأمة العربيّة وفي القلب منها قضية فلسطين، كما التزما القضايا الاجتماعيّة العادلة للفقراء والمحرومين والمهضومة حقوقهم، ورفعوا الصوت جهيرًا ضد الاحتلال والاستغلال والاستبداد. معهما خرج معنى الالتزام من حدود الوطنية والقومية ليفيض عنها إلى الرحاب الإنسانيّة الكونيّة.

شُكرًا لكم على الفيض من الإبداع

تلك رسالتهما الفنيّة الحضاريّة التي ذهبَت في رحلة مديدة من أنطلياس إلى رحاب الكونيّة.

شكرًا عاصي ومنصور وفيروز على كل هذا الفيض من الجمال والإبداع قدَّمتُمُوه زادًا لثقافتنا وذائقتنا.

شكرًا للصبر والصدق والإصرار على خط الالتزام الإنساني.

يا عاصي: أنت غنيّ، غنيّ، غنيّ، غنيّ! ورغيفك طيّب المذاق، وقُوتٌ وفير لمن يمرّ بضعف في العزيمة.

ويا منصور: كلامك الكبير يجعلنا نخجل ألاَّ نحاول أن نكون كبارًا.

وأنتِ يا فيروز... يا فيروز: لولا صوتكِ لكنتُ يتيمَ الأم. فغنِّي، غنّي بعد، غنّي كثيرًا لأن البشاعة تملأُ الوطن. وإنني أُقبِّلُ صوتكِ.

محمود زيباوي: المطالع المجهولة



بات معروفًا أن الرحبانيَّيْن بدآ مشوارهما الفني في منتصف الأربعينات، وتفرَّغا كليًّا له بعد بضع سنوات.

عُيّن عاصي شرطيًّا في بلدية أنطلياس، ومنصور شرطيًّا قضائيًّا في بيروت، إنما لم يحُدَّ ذلك من دخولهما عالم الموسيقى والشعر والغناء. وبعد أن تسلّم فؤاد قاسم إدارة الإذاعة اللبنانية (١٩٤٨) وُظّف عاصي فيها كعازف كمان وملحّن أركان (الركن في القاموس الإذاعي: ٤ أغنيات). بعد خمس سنوات دخل منصور الإذاعة رسميًا كما جاء هذا الخبر في مجلة «الصيّاد» (كانون الثاني ١٩٥٣): «ترك السيد منصور رحباني عمله في البوليس وانصرف الى مشاركة شقيقه عاصي في التأليف والتلحين».

الإشارات الإذاعية الأُولى – ١٩٤٨

لا وثائق دقيقة عن فترة تقديم الأخوين وصلاتهما في الإذاعة. وأفضل مرجع عنها: جداول برامج الإذاعة المنشورة في المجلات، ومنها مجلة «الإذاعة» اللبنانية (كان يُصدرها فايق خوري). وأقدم ما وصلَنا: إشارة في جدول برامج يوم الجمعة ١٩ آذار ١٩٤٨ وفيها: «ثنائي رحباني ميقاتي» من الساعة ١٢:٤٥ إلى ١:٠٠. ما يعني أن الإذاعة خصصت ربع ساعة لفقرة موسيقية يؤديها عاصي الرحباني على الكمان مع بهيج ميقاتي على العود.

في إشارة ثانية من جدول الجمعة ٢ نيسان ١٩٤٨: «ثنائي رحباني شويتي» من الساعة ١٢:٤٥ إلى ١:٠٠ (شويتي عازف العود قسطنطين شويتي).

بعد أسبوع تظهر إشارة «فرقة الرحباني في أغان منوعة» من الساعة ٩:٤٠ إلى ١٠:٠٠. ثم تحوَّل هذا الموعد إلى برنامج أسبوعي في التوقيت الصباحي ذاته، إنما من دون أيّ تعريف بأعضاء هذه «الفرقة» ولا بمواد ذاك البرنامج فهو في أيار «حفلة منوعة من روائع الموسيقى»، وهو في حزيران «برنامج غنائي»، وبعده «تمثيلية لفرقة الرحباني».

الحفلات الغنائية الأولى

خارج الجداول الأسبوعية الخاصة ببرامج الإذاعات، يرد ذكر «الرحباني» في خبرٍ عن حفلة موسيقية غنائية يقيمها الأستاذ خليل مكنية في منتدى «وستٍ هول» (الجامعة الأميركية) في ٣١ كانون الثاني، «يشترك فيها معه السيد توفيق الباشا في عزفه وألحانه، وفرقة رحباني في اسكتش غنائي، كما يغني السيد فرحات هاشم قصيدتين لعلي محمود طه وموسى سليمان، وتغني الآنسة نازك قصيدة من نظم سلام فاخوري».

الإذاعة ١٩٤٩

في جداول برامج ١٩٤٩ يتردد ذكر اسم «الرحباني» بتحوُّل اسم الفرقة إلى «ثلاثي رحباني»، إضافة إلى دخول اسم المطربة «نجوى» (وهي شقيقتهما سلوى الرحباني). وفي شهر آب، تتحول الإطلالة الرحبانية إلى موعد أسبوعي في فقرة من ١٥ دقيقة كل أربعاء الساعة ٧:٤٥ مساءً. ومما جاء: «ثلاثي رحباني في حفلة غنائية» في ١٧ آب، وفي ٢٤ آب «نجوى في ثلاث أغنيات: «لا تنسني»، «يا ساحر العينين»، و«مهى»». ثم يظهر «ثلاثي رحباني في حفلة منوعة» في ٣١ آب، ثم في ٦ أيلول: «نجوى في ثلاث أغنيات: «حبيبي من لبنان»، «لا تحيينا»، و«سلام المحب»، ثم في ٥ تشرين الأول: «نجوى في حفلة غنائية»، وفي ٢٦ تشرين الأول «فرقة الرحباني في حفلة غنائية»، ثم «ثلاثي رحباني في برنامج غنائي خاص»، و«نجوى في حفلة غنائية» في ٩ تشرين الثاني.

في تلك المرحلة المبكرة من مسيرتهما، ضمن برنامج «من شعرائنا الخالدين»، لحَّنا «ذكرى بردى» من شعر الأخطل الصغير وضمت الأغنية ١١ بيتًا من قصيدة طويلة ألقاها الشاعر في حزيران ١٩٣٢ يوم شارك في حفلة الكلية العلمية الوطنية في دمشق. ثم استعاد الأخوان هذا العمل، وسجَّلاه مع فيروز في بداية تعاونهما مع الإذاعة السورية في مطلع الخمسينات.

التجديد لفخامة الرئيس

خارج الموعد الأسبوعي، نجد مشاركة رحبانية في احتفال الإذاعة بـ«تجديد ولاية الرئيس بشارة الخوري» (١٨ أيلول) إذ قدم الأخوان قصيدة من شعرهما لحّنها وغنَّاها المطرب المصري محمد أمين، إضافة إلى برنامج غنائي مدته ربع ساعة أحيته نجوى، وفيه أغنيات «تجديد

الولاء»، «أنت يا بلادنا» و«تحية الرئيس». وبعد إذاعة البرنامج جاء في مجلة «الإذاعة»: «قال صديقنا الأستاذ عبد اللّه المشنوق في زاوية «أقرأ على مسؤوليتي» في الزميلة «بيروت المساء» أن معزوفة «لبنان يا لبنان» للأخوين رحباني التي أُذيعت في برنامج عيد تجديد ولاية فخامة الرئيس الجمهورية كانت من أجمل ما أُذيع من المحطة. والأخوان رحباني هما بحق المجددان الوحيدان في الموسيقى الشرقية». ولعل تلك الشهادة من أقدم ما قيل في تجديد الأخوين رحباني.

رسائل إعجاب

وفي زاوية «بريد القراء» نشرت المجلة شهادات تعكس إعجاب المستمعين بالمطربة نجوى، بينها شهادة بتوقيع ع.ج. من بيروت: «في صوتك صفاء وحنوّ وشجو، وأداؤك للأغنية لا يجاريك فيه أحد براعة ومقدرة وتصويرًا. لي خمس شقيقات لا يزيد سن كبيرتهن على العاشرة، يترقبن أغانيك وحفلاتك، ويجلسن إلى الراديو في موعد إذاعتك، وهنَّ في سكون عميق ونشوة شاملة، حتى إذا انتهيتِ من الغناء صفَّقن لك مرحًا وطربًا... إن اللون الذي تغنينه يمثِّل اللون التقدمي في الموسيقى العربية، فلِمَ لا تنطلقين في أجواء الفن، ولِمَ لا تتيحين للجمهور فرصة رؤْيتك عن كثب في حفلات مسرحية. وعلى الأقل لِمَ لا تُنشر صورتك في مجلة الإذاعة ليرى جمهور المستمعين وجه المطربة التي تغلغل صوتها في أعماقه».

نجوى قبل فيروز

لا نجد في أرشيف إذاعة لبنان أي تسجيل باسم «نجوى»، ما يوحي بأن تلك الوصلات كانت تُبثّ بشكل حيّ ولا تُسجَّل، كما روى منصور الرحباني بعد عقود. وفي جداول مجلة «الإذاعة» عناوين أغنيات أدتها فيروز لاحقًا: «لا تنسَني»، «يا ساحر العينين»، «مهى»، «ولا تحيِّينا»، «سلام المحب». «لا تنسني» معروفة في تسجيل يعود إلى ١٩٥٥، مرحلةَ اختمرت التجربة الرحبانية في التوزيع وأخذ فيها صوت فيروز هويته المعروفة. أما «يا ساحر العينين» و«مهى» فنعرفهما من تسجيل أول بصوتَي فيروز وحنان معًا في إذاعة دمشق ١٩٥١، ولها تسجيل ثانٍ بعد ١٩٥٥، أي مرحلة الاختمار. والفرق بين المرحلتين هائل: لم يتغيَّر اللحن ولا النص، إنما جاء التحول في التوزيع والإخراج الموسيقي وأداء فيروز،

فبدت الصياغة الأولى «ركيكة» مقارنةً مع الصياغة الثانية. «لا تحيِّينا» هي على الأرجع «ترمقنا لينا»، معروفة بتسجيل يعود إلى المرحلة الثانية. أما «سلام المحب»، فهي «يا من تقصد جناتنا»، مسجلة بصوتَي فيروز وحنان في مرحلة البدايات، وهي من الأغاني الراقصة التي دأب الأخوان رحباني على إنتاجها في تلك الحقبة.

الأخَوان قبل الأخوين

اسم «الأخوين رحباني» لم يرِد بهذه التسمية في الجداول لكنه حضر في نصوص الأغاني التي نشرتها مجلة «الإذاعة»، مما يعني أن عاصي ومنصور اعتمدا هذا الاسم الجامع منذ البداية. وإذ يبدو أن تسمية «ثلاثي رحباني» تشمل عاصي ومنصور وشقيقتهما سلوى (عُرفت باسم نجوى) يتضح من حديث لتوفيق الباشا مع محمود غزالة عند نهاية التسعينات جاء فيه: «اللقاء مع الأخوين رحباني كان عرَّابه خليل مكنية الذي جاءنا يومًا بخبر أنه اكتشف شابين يقدمان الأغاني الخفيفة المرحة، يعزفان ويغنيان، ولا يلتزمان بالأنماط الغنائية السائدة، وقد اكتشف فيهما طموحًا إلى الأفضل، ودعانا أنا وزكي ناصيف أن نلتقي بهما. تم اللقاء في كازينو سعادة على الدورة، حيث كانا مع صديق لهما هو فرحات الهاشم يؤلفون الثلاثي الرحباني، يقدمون الأغاني الخفيفة. وكان الثلاثي يعزف ويغني في وقت واحد: عاصي على الكمان ومنصور على البزق وفرحات على الكمان، وهو يتمتع بصوت أجمل من صوتيهما».

... وجاء صبري الشريف

خارج الإذاعة كان للأخوين رحباني نشاطات فنية، منها مشاركتهما في حفلة خليل مكنية في الجامعة الأميركية سنة ١٩٤٨، وفْق خبرٍ في «النهار» (٢٧ شباط ١٩٤٩) جاء فيه: «تقدم لجنة الإنعاش القوميً في الجامعة حفلة موسيقية في وست هول تشترك فيها المطربة إيفيت فغالي، وفرَق الأخوين رحباني والسيد سامي الملاح وفرقته، وذلك في الساعة الثامنة من يوم السبت».

الأعمال الرحبانية الأولى جذبت صبري الشريف (يومئذٍ رئيس القسم الموسيقي في «محطة الشرق الأدنى للإذاعة العربية» التابعة لوزارة الخارجية البريطانية) فجاء من قبرص إلى لبنان ووقّع مع الأخوين رحباني اتفاقًا لتسجيل مجموعة أغانٍ للمحطة. ودأبت هذه الإذاعة على إصدار

مجلة باسمها إلى أن أغلقت أبوابها إثر الاعتداء الثلاثي. ومن مراجعة جداول البرامج المنشورة يمكن تَتَبُّع مسيرة الأخوين رحباني في تلك الحقبة.

شهادتان من ١٩٤٩

في منتصف أيار ١٩٤٩ ظهر اسم «الأخوين رحباني» في زاوية «أغان خفيفة»، منها «يا ساحر العينين»، «غناء نجوى»، وتكرر هذا الموعد بشكل ثابت طيلة أسابيع. أثارت الأعمال الرحبانية إعجاب اثنين من كبار العاملين في الحقل الموسيقي في العالم العربي: مدحت عاصم وعبد الحليم نُوَيرة، وتجلّى هذا الإعجاب في مقالاتهما المنشورة في المجلة ضمن باب «برامجنا في ميزان النقد».

فمن هما؟ وماذا كتبا؟

١. مدحت عاصم من أول موسيقيين جمعوا في دراستهم بين الموسيقى الشرقية والغربية. أشهر أعماله «دخلْت مرة بجنينة» (أنشدتها أسمهان). كان مدير القسم الموسيقي في الإذاعة المصرية منذ نشوئها، وساهم في إنشاء أول أوركسترا مصرية وأول فرقة موسيقية تقليدية للإذاعة المصرية.

في زاوية «برامجنا في ميزان النقد» (مجلة «الإذاعة» ١٠ تموز ١٩٤٩) كتب: «لقد سُعدت حقًا وأنا أستمع إلى اسكتش «عذارى الربيع» للأخوين رحباني. كان برنامجًا طيبًا. لعله من خير ما سمعت من برامج في «إذاعة الشرق الأدنى». كل ما فيه لطيف وجميل لولا غلبة الموسيقى على الكلام في بعض المواقع. أبعث بقبلة إعجاب إلى الأخوين رحباني، مع أملي أن يسيرا على هذا النهج الجديد ويحافظا على لونه ومستواه».

٢. عبد الحليم نويرة بدأ حياته الفنية سنة ١٩٣٦ ملحنًا في الإذاعة المصرية، ثم اتجه إلى التأليف الموسيقي الأوركسترالي، ووضع الموسيقى التصويرية لعدد كبير من الأفلام المصرية، وكان أبرز من قاد فرقة موسيقى الإذاعة المصرية.

في زاوية «برامجنا في ميزان النقد» (مجلة «الإذاعة» آخر تشرين الأول ١٩٤٩) كتَب: «سُررتُ كثيرًا لِمَا لاحظتُه من أن بعض شباب البلاد الشقيقة يحاولون التخصص في الأغاني الخفيفة، لأن هذا النوع من الأغاني أصبحت الموسيقى العربية في حاجة ملحة لوجوده. قدّم الأخوان رحباني تانغو «حبيبي من لبنان» وتانغو «زورق الحب» ورومبا «عدنا

رأيناها»، وقد أعجبتُ جدًّا بهذين الأخوين فهما يشعران بهذا النوع من الأغاني الخفيفة شعورًا صادقًا ويعطيانه حقَّه مع طابعه الخاص، فضلاً عن أَدائهما السليم وترابط الأصوات مع الأوركسترا». غنّت «نجوى» تلك الأغاني، وغنّت بعضها من بعدها أصوات أخرى. سجّلت حنان لاحقًا «زورق الحب» في الإذاعة السورية، وغنّت مع فيروز رومبا «عدنا رأيناها» ضمن أغانٍ راقصة قدّمتاها معًا كثنائي طورًا باسم «حنان وفيروز»، وطورًا باسم «لماً ولميا».

شهادة من ١٩٥٠

في مطلع ١٩٥٠ عاد مدحت عاصم إلى الحديث عن الأخوين رحباني، وامتدح لحن أغنية «أنت يا مي زهرة»، وقال عن مؤديتها نجوى: «لم تكن مَن غنّتْه جميلة الصوت بما تعارف عليه أهل الفن من وصف جمال الصوت، ولم تكن مجوّدة للأداء النغمي من الناحية الموسيقية، لكنها كانت تفهم ما تقول، وتعبّر عن هذا الفهم بما تسكبه من روحها في الغناء، حتى أحسستُ بأنفاسها حارةً تصعد مع النغم، وكدت أسمع خفق فؤادها مع اللحن. وهكذا في الغناء، كما في الناس، قد يغْني الفهم وما في الروح عن الحُسن والجمال». تلك الأغنية كانت من شعر قبلان مكرزل، وهي من الأغاني الرحبانية الراقصة التي يصعب إحصاء عددها. عرفنا بعضها لاحقًا بصوت فيروز في تسجيل من تسجيلات دمشق يعود ترجيحًا إلى سنة ١٩٥٢.

من يبحث عن ثروات تلك البدايات؟

قدّم الأخوان رحباني أعمالهما الأولى بصوت شقيقتهما سلوى في الإذاعة اللبنانية على الهواء من دون تسجيل مسبق، ويبدو أنهما لم يعتمدا هذه الطريقة بشكل كامل في «محطة الشرق الأدنى». فمن مراجعة جداول البرامج يظهر أن بعض تلك الأغاني كان مسجلاً كما يُستدَل من تكرار عدد من العناوين.

في الخلاصة: قد يكون بعض هذه التسجيلات مخفيًّا في محفوظات إذاعة «الشرق الأدنى» بعد انتقالها إلى قبرص فلندن، وهو حاليًا بين محفوظات الـ«بي بي سي» في انتظار من يكتشفه ويُصنّفه.

الأب بديع الحاج:
خامة الصوت وتقنية الأداء



أولاً: بدايات فيروز من مجلة «الإذاعة اللبنانيّة»

١٩٥٠

قال لنا الأُستاذ حليم الرومي إنه اكتشف صوتًا جديدًا يَعتبرُه من أعذب الأصوات الغنائيّة التي سمعها في لبنان. وقد أطلق على صاحبته إسم «فيروز» وسيقدّمها في برامج محطة الإذاعة اللبنانيّة بعد أن سهر على تربية حنجرتها وتهذيبها وتهيئة ألحان خاصّة بها.[١]

فيروز: أما صوت «فيروز» الشجي المطرب الذي نسمعه دومًا في حفلات الإذاعة، فهو صوت سوف يأخذ مكانته في القريب العاجل بين أحسن الأصوات الغنائيّة في لبنان. محمد بديع سربيه[٢].

١٩٥١

أعترف بأن المطربة الشابة فيروز تملك في حنجرتها خيوطًا صوتية ممتازة، وأن مواهبها الفنية تؤهلها لأن تحتل في زمن قصير مكانة بارزة بين مطربات لبنان.[٣]

١٩٥٢

أجادت فيروز في أغانيها الخفيفة المرحة: «كفى يا قلب»، و«حبيبي اليوم»، و«إلى فارس»، و«إلى فلاح». أما فيروز فهي ولا ريب بلبل الإذاعة الصداح.[٤]

---

١) «الفنّ في سطور»، مجلة الإذاعة، بيروت، ١٩٥٠/٢/١٩، عدد ٣١، ص ٤.

٢) مجلة الإذاعة، بيروت، ١٩٥٠/١٠/٨، عدد ١٢، ص ١٣.

٣) «ما وراء الأخبار»، مجلة الإذاعة، بيروت، ١٩٥١/١٢/٩، عدد ٢١، ص ١٠.

٤) «برامج الإذاعة الفنيّة والأدبيّة على محكّ النقد»، مجلة الإذاعة، بيروت، ١٩٥٢/٢/٣، عدد ٢٩، ص ١١.

لا شك أن المطربة الشابة فيروز هي من أقرب المطربات في محطة الإذاعة اللبنانية إلى آذان وقلوب المستمعين... وأعترف بأن في حنجرة هذه المطربة أوتارًا صوتية مطربة، وهي عندما تغني تذوب مع اللحن، وتعيش في جو الأغنية التي تغنيها، وهذا ما جعل الآذان تعشق صوتها وتحب أغانيها. محمد بديع سربيه.[٥]

بين الموهبة والتدريب

فيروز مطربة إذاعية من الدرجة الممتازة. عرفها الجمهور لأول مرّة عن طريق محطة الإذاعة اللبنانيّة التي تبنَّت صوتها وعهدَت إلى نخبة ممتازة من الملحنين بذلك الصوت الذهبي ليتعهَّدوه بالصقل والتربية فتنقلت فيروز في تلمذتها الفنية على أيدي أساتذة محنّكين، ولم يكن استعدادها الفطري بأقل من حنكة هؤلاء الأساتذة.[٦]

١٩٥٣

فيروز في الحجاز: حدثنا الأستاذ عبدالله أحمد منيعي رئيس قسم البرامج في الإذاعة السعودية عن برامج تلك المحطة الشقيقة فعلِمْنا منه أن الإذاعة السعودية العربية لا تذيع الأغاني مطلقًا مهما كان نوعها، لا بأصوات الرجال ولا بأصوات النساء. وتكتفي بإذاعة الألحان الصامتة لعبد الوهاب وفريد الأطرش وغيرهما. ثم قال: وتلقينا السنة الماضية أغنية بصوت فيروز أدتها لمناسبة ملكية كريمة، وهي مهداة من الإذاعة اللبنانيّة الى الإذاعة السعودية. وبعد أخذ رأي ولاة الأمور تقررت إذاعتها بتوصية من وزير المال مباشرة. وكان صوت فيروز أول صوت نسَوي يرتفع في إذاعة المملكة السعوديّة. أما الإعجاب فحدِّث عنه ولا حرج.[٧]

«الفتاة التي مسحت جميع مطربي ومطربات الشرق العربي» بقلم وفيق العلايلي[٨]

كنت البارحة أستمع صدفة الى فتاة في عمر الورود تغني في الراديو، عندما دخل صوتها الحنون الدافئ الناعم إلى فؤادي. هزّ هذا الصوت

---

٥) محمد بديع سربيه، «همسة الأسبوع»، مجلة الإذاعة، بيروت، ١٩٥٢/٢/٢٤، عدد ٣٢، ص ١٢.

٦) «حليم الرومي يرشح هؤلاء للمجد»، مجلة الإذاعة، بيروت، ١٩٥٢/٧/١٣، عدد ٥٢، ص ٦.

٧) مجلة الإذاعة، بيروت، ١٩٥٣/٧/١٢، عدد ٥٢، ص ١١.

٨) وفيق العلايلي، مؤلف مصري كاتب قصة وسيناريو وحوار. من أعماله: فيلم «لبناني في الجامعة» عام ١٩٤٧، وكتب قصة فيلم «مرحبا أيها الحب» عام ١٩٦٢.

الشجي المليء بالعواطف والمشاعر قلبي، وعشت مدة قصيرة مع ترنيم الملائكة تردد مقاطع «وطن النجوم». ولم أشعر بالعالم المادي الذي يحيط بي مطلقًا، لأنّ فيروز عندما تغنّي، تغنّي بقلبها وعاطفتها وتذوب شخصيّتها مع النغم المناسب واللحن الهادئ الشجيّ الحزين الصادر من أعماق الفؤاد. إنها فتاة لم تمضِ عليها إلاّ سنوات معدودة، ولا يعرفها الناس إلاّ من وراء المذياع والمذياع فقط، ولا يعرف أكثر الناس صورتها، وشكل وجهها، ولون عينيها، لكنها أصبحت الفكرة المسيطرة لكل من أحب الطرب والمطربين. كيف تقفز فتاة مثلها الى الصفوف الأولى متخطية نجوم المسرح والسينما ومطربي ومطربات الشرق العربي الذين لهم عشرات السنين في ميدان الطرب والغناء؟ أيّةُ قوّة تكمن وراء هذه الفتاة الضعيفة؟ أيُّ سحر حطّ رحاله في أوتار صوتها فجعل سامعيها يذوبون رقّة وطربًا؟ إنّ في غناء فيروز شخصيّة خاصّة به. قد يكون الصوت قويًّا وجميلاً، ولكن عندما لا يكون له «برسوناليتي» فهو كغيره من أصوات المطربين والمطربات الذين لا يحصى عددهم.[٩]

١٩٥٥

قالت مجلة «الجيل الجديد» المصرية: «طلب محمد عبد الوهاب من حسين السيد أن ينظم حوارًا يجمع بين صوت عبد الوهاب وفيروز التي يقول عنها الموسيقار الكبير أنها تتمتع بصوت عذب نادر.»[١٠]

بعد أيام، كتب الناقد نور الذين مقالاً بعنوان «أغنية بصوت فيروز أو بدونه» جاء فيه: «استمعتُ من إذاعة الشرق الأدنى إلى أغنية «عبده حابب غندورة»، وأُعجبْتُ بهذه الصورة الساذجة من الحب كما رسمها الأخوان رحباني، وبغناء العروس فيروز، ولم أكن قبلاً أُقدِّر القسط الكبير من النجاح الذي تساهم فيه فيروز، حتى استمعتُ إلى نفس الأغنية من الإذاعة اللبنانية بدون صوت فيروز. أنا من المعجبين باللون الرحباني، لكنني أصبحت أعتقد اعتقادًا جازمًا أن نجاحهما كمؤلّفَين وملحّنَين يعود بالدرجة الأولى الى السحر الذي يضفيه على إنتاجهما صوت فيروز. لم أكتب ما كتبتُ حتى أقلّل من شأن أو قيمة مجهود الأخوين رحباني، بل لأبرهن عن الفرق الظاهر في القيمة الفنيّة بين عمل بالإشتراك مع فيروز وعمل بدونها».[١١]

٩) مجلة الإذاعة، بيروت، ١٩٥٣/٩/٢٠، عدد ١٠، ص ٦.

١٠) مجلة الإذاعة، بيروت، ١٩٥٥/٦/١٢، عدد ٤٨، ص ١٥.

١١) مجلة الإذاعة، بيروت، ١٩٥٥/٧/٢٤، عدد ٢، ص ١٢.

١٩٥٧

كتب سعيد عقل عن فيروز: «الصوت الذي يعتز به شعب بأسره، ويعتبر مجدًا له وعطيّة. فيروز هي سفيرة لبنان الى النجوم...».[١٢]

ثانيًا: خامة الصوت وتقنية الأداء

فيروز وتقنيّات الغناء

من الثابت علميًا، في جميع ألوان الغناء العربي أو الأوروبي، أن مصدر الصوت هو الحنجرة. وبعد خروج الصوت من الحنجرة تتدخَّل عوامل عدة في تحديد نوعية الرنين النهائي لهذا الصوت كما يستقر في آذان المستمعين.

من هذه العوامل: قدرة المغني أو المغنية (بالموهبة وبالتدريب) على التحكُّم باستخدام طاقة النفَس الخارج من الرئتين، ثم التحكم باستخدام تجاويف الجسد الطبيعية التي يتردّد فيها الصوت الخارج من الحنجرة، قبل أن يتحدّد المعدن النهائي لرنينه. هذه التجاويف تتراوح بين الصدر والرقبة وسقف الحلق والجيوب الأنفية وعَظْم الجُمجمة.

ترتبط تقنيات الغناء العربي عمومًا بوضعية الحنجرة أثناء إصدار الصوت. ويكون بث الصوت عبر وضعيتَين أساسيتَين: صوت الصدر وصوت الرأس، ووضعية ثالثة: الصوت من الأنف.

فماذا عن هذه التقنيات؟

١. **صوت الصدر:** «قد يميل القول، إذا صح التعبير، إلى أنه أقرب إلى صوت الصراخ أكثر مما إلى الصوت الرنّان. ولهذا النوع من الأداء حسناتٌ في الغناء الشعبي والفولكلور اللبناني»[١٣]. وبالفعل: لو استمعنا مثلاً إلى صوت صباح لوجدنا خير دليل على استعمال الصوت الطبيعي، أي صوت الصدر بكامل قوّته. من أغانيها: المواويل اللبنانية وأبو الزلف والميجنا. ومن وديع الصافي موّال «جبلنا»، تحديدًا في «الأوف» بين المقطع الأول (جبلنا) والمقطع الثاني (يا قلبي)، وكلمة عساك في مقطع (يا قلبي).

٢. **صوت الرأس:** كما مثلاً لدى ماجدة الرومي في «عمبحلمك يا حلم يا لبنان» و«نشيد الحب» لجبران خليل جبران وفيه تصل إلى درجة (سي ٤) في غناء كلمة «ألله».

---

١٢) مجلة الإذاعة، بيروت، ١٩٥٧/١٠/٦، عدد ٢٦، ص ٣.

١٣) لانا خاطر، تقنيات الصوت في الغناء العربي وكيفية الحفاظ على سلامته، مجلة الموسيقى العربية ٢٧ أيار ٢٠٢١.

التنقُّل بينهما

ثمة مغنون عرب يجيدون التنقل بين تقنيَّتَي صوت الصدر وصوت الرأس. وهي ظاهرة عند المغنيات خاصة لا عند الرجال، كما في أغنية «يا طيور» وفيها تتنقّل أسمهان بين صوت الرأس وصوت الصدر بمهارة وبسرعة حسب الجملة المغناة.

٣. الصوت من الأنف: تقنيةٌ قديمةٌ غايتُها إخراج الصوت بعيدًا عن الصدر، للتخفيف من الشدّ على الحبال الصوتية، فيعتمد المغني على الرنين في الأنف. وهي تقنية يعتمدها المشايخ في التجويد القرآني. واستخدمت لاحقًا لدى مدرسة المشايخ في مصر الحديثة مع نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين (الشيخ أبو العلا محمّد والشيخ يوسف المنيلاوي وغيرهما).

٤. الصوت الممزوج: ومثاله الأعلى: فيروز. فالغناء بالصوت الممزوج تقنية خاصة وعلْم مستقلّ. ولا يكون فيه الخلط بين: الصوت المتنقل بين صوت الصدر وصوت الرأس، وبين الصوت الممزوج وهو نوع من إصدار صوتٍ، عند مخرجه في الأساس، يكون مزيجًا بين صوت الصدر وصوت الرأس[١٤]. ويميّز هذه التقنيّة في الغناء عن غيرها: الانسيابيّة في الخامة الصوتيّة، وتمكُّن المغنّي من الحفاظ على ذات الخامة واللون في غنائه على جميع الدرجات من الأعلى إلى الأسفل مرورًا بالمفاصل. «وكانت عن فيروز تلقّت دروسًا في الغناء الكلاسيكي الغربي، وطوّعَت صوتها من خلاله حتى صارت وضعيّة الصوت عندها»[١٥]. ففي موَّال أغنية «كتبْنا وما كتبْنا» نسمع فيروز (وهي مصنَّفة ألتو Alto) تغني على الدرجات العالية بتمكُّن وأصالة، لتعود وتهبط إلى القرار بذات الصوت من دون أن نلاحظ الفرق بين الخانات. هذه السهولة والليونة بالتنقُّل بين الدرجات تعطي المغني مرونةً ولياقةً صوتيةً، وتمنحه مساحات غنائية أوسع مما يعطيه صوت الصدر.

اللفظ السليم ومخارج الحروف: فيروز، بشخصيّتها، طبيعيّةٌ في التصرّف وفي الكلام، وكذلك عاصي ومنصور. من هنا، عندما غنّت اللهجة اللبنانيّة جاء أَداؤُها طبيعيًّا، لذلك أحبّه الناس. وهي أيضًا أَتقنَتْ اللفظ في الفصحى وأَجادَتْه، كما برَعَتْ في لفظ مَخارج الحروف. من هنا أنها تغنّي كأنّها تتكلّم من دون تَصنُّع، وفي لفظها وضوحٌ فلا يفوتك شيْءٌ ممّا تؤدّيه من كلمات وحروف، في الفصحى كما في المحكية.

١٤) لانا خاطر، تقنيات الصوت في الغناء العربي وكيفية الحفاظ على سلامته، مجلة الموسيقى العربية ٢٧ أيار ٢٠٢١.

١٥) المرجع السابق.

شهادة رحبانية

كتب جان ألكسان في كتابه «الرحبانيّون وفيروز: «في ٢٢ آب ١٩٧٧، وفي حوار صحافي بيني وبين منصور الرحباني، سألتُه رأْيه عِلْميًّا في فيروز وصوتها فأجابني: «فيروز إنسانةٌ متفرّدةٌ صوتًا وتمثيلاً. صوتُها من أوسع الأصوات النسائيّة بالطبقات الصوتيّة، وهو يزداد حلاوةً عامًا بعد آخر». وفي لقاء آخر سُئِل منصور عن تأثير صوت فيروز على العمل الرحباني فأجاب: «كل الأثر. ربينا معًا، نحنا وصوت فيروز، صرنا نكبَر معه ويكبَر معنا، والموسيقى تكبَر ونتطور معًا، وصرنا نكتشف لديها إمكانات قويّة. بدأنا نلحِّن لتلك الإمكانات، ونحاول أن نطوّر الصوت حتّى ينطلق إلى آفاق أوسع، وكانت فيروز تستجيب لكل ذلك. ولو كنّا نتعامل مع مطربة غير فيروز، لَما استطعنا أن نلحّن ما قدّمناه، لأن فيه تعجيزًا في الأداء لا يمكن أن يؤَدِّيه أيُّ صوت إلا فيروز».[١٦]

١٦) جان الكسان، «الرحبانيّون وفيروز»، التكوين، دمشق، ٢٠١٠، ص ٧٧–٧٨.

فارس يواكيم: الأخوان رحباني وفيروز وإحياء المسرح الغنائي العربي



تتصدَّرُ قائمةَ المتميّزين في الموسيقى العربية الحديثة أسماءُ محمد عبد الوهاب أمير ملحّني الأغنية الفردية، والأخوين رحباني وفيروز أمراء المسرح الغنائي العربي.

أسماء أخرى كثيرة أبدعت روائعَ موسيقيةً، لكن محمد عبد الوهاب يبقى الأول بين ملحِّني الأغاني كونه، على امتداد سبعين سنة، مارس جميع ألوان الغناء والتلحين. لكل ملحِّنٍ مزاياه، وعبد الوهاب جمع مزايا الآخرين أيضًا.

مطالع المسرح الغنائي في مصر

أما العائلة الرحبانية فأبدعت ما أحجَم عنه الآخرون: المسرح الغنائي. لم يبْتكر عاصي ومنصور هذا اللون الموسيقي في العالم العربي، لكن لهما الفضل الأول في إحيائه بعدما غاب.

بدأت في مصر نواةُ لون من المسرح الغنائي تتشكّل مع فرَق شامية، بدأت مع سليم النقاش، وازدهرت مع أبو خليل القباني، وفرقة اسكندر فرح ونجمها سلاَّمة حجازي المطرب الأول في زمانه. كانت مسرحيات تتخللها قصائدُ وحوارياتٌ ملحَّنة ينشدها نجوم الطرب كان وجودهم عاملاً أساسيًّا في جذب الجمهور إلى المسرح. مسرحيات فيها فواصل غنائية. وكانت الفرقة التي تقدمها تسمى «جوق» كون الغناء جزءًا أساسيًّا في هذه العروض.

انطلاقُ عصر النهضة الفكرية في عصر الخديوي اسماعيل تَزامَنَ مع تشييد دار الأوبرا، ومجيء فرَق أوروبية قدَّمَت عروضًا تنوعت بين الأوبرا والأوبريت.

الأوبرا مسرحية غنائية متكاملة تعتمد على الموسيقى والغناء، يُؤَدَّى الحوار فيها غناءً بألوانه وطبقاته المختلفة: غناء فردي وثنائي (دويتو)

وجماعي (كورالي) مع الإلقاء المُنَغَّم، بمصاحبة الأوركسترا الكاملة. وهي تشمل الباليه والتمثيل الصامت.

الأوبريت نوع من المسرحيات الغنائية، تفرَّعَ من الأوبرا الهزلية الفرنسية وله مكوّناتها، لكنه يختلف عنها في أن الحوار يؤدّى قسم منه بالتمثيل والقسم الآخر بالغناء، وليست اللوحات الراقصة حُكمًا من الباليه، لكنها مصممة وَفْقَ رقصات شعبية محلية.

أعلام المسرح الغنائي المصري

بداية المسرح الغنائي في مصر كانت مع سيد درويش وداود حسني وكامل الخلعي، إذ أفادوا مما شاهدوه من فرق أوروبية قدمت عروض الأوبرا والأوبريت في مصر. استوعبوا القوالب: لوحات غنائية تتضمن غناء المجموعة، وحوارات ملحنة وأغانٍ فردية. وشاهد الجمهور هذا اللون مع جوقات مسرحية كثيرة.

توفي سيد درويش سنة ١٩٢٣، وداود حسني سنة ١٩٣٧، وبعده بسنة توفي كامل الخلعي. تلاهم جيل جديد مع محمد القصبجي وزكريا أحمد ورياض السنباطي ومحمد عبد الوهاب، إلى مساهماتهم في تلحين الأغاني الفردية.

كان عبد الوهاب أقلَّهم إنتاجًا فرديًّا إذ اشترك مع كامل الخلعي ومحمد القصبجي في تلحين «المظلومة» التي قدمتها فرقة منيرة المهدية سنة ١٩٢٦. طمحَ إلى تلحين مسرحية «مجنون ليلى» لأحمد شوقي لكنه توقف بعدما لحن حوارية جمعتْه مع أسمهان، وقصيدتين أداهما هو: «سجا الليل» و«جبل التوباد».

زكريا أحمد كان أغزرهم مساهمةً في هذا المضمار، وكانت «عزيزة ويونس» آخر أعماله، سنة ١٩٤٥.

محمد القصبجي لحّن بمفرده مسرحية «حرم المفتش» سنة ١٩٢٦، وتفرّغ لإبداع الأغاني الفردية.

رياض السنباطي بدأ مع فرقة منيرة المهدية سنة ١٩٣٢ بتلحين فصول قصيرة، ثم اشترك في العام التالي مع داود حسني وكامل الخلعي في تلحين مسرحية «سميراميس». ثم لحّن مسرحيتين، وتوقف.

بعدذاك، غاب المسرح الغنائي في العالم العربي.

... وجاء الأخوان رحباني

مـع مطلع ستينات القـرن العشرين، سطعت الأضـواء مـجـدَّدا على المسرح الغنائي، مع دخول الأخوين رحباني هذا الفضاء بمثابرة تحدَّت الصعاب. خاضا هذا اللون الإبداعي بعد عقد من بداية احترافهما التأليف الموسيقي، فمسيرتهما الفنية بدأَت عام ١٩٤٨/١٩٤٩، وما إلاّ بعد عشر سنوات حتى كانت إطلالتهما المسرحية الأولى مع مهرجانات بعلبك سنة ١٩٥٧ بمنوعات غنائية عنوانُها «أيام الحصاد»، وسنة ١٩٥٩ بمنوعات أخرى عنوانُها «المحاكمة».

صحيح أنّ الأغاني الكثيرة التي لحّنها الأخوان رحباني وأنشدتها فيروز عرفَت نجاحًا كبيرًا في لبنان وعموم بلاد الشام ولاحقًا في الدول العربية جميعها، لكن إبداعهما لم يقتصر على تلحين الأغاني الفردية، على غرار كبار الموسيقيين العرب الذين وردت أسماؤهم سابقًا وساهموا لفترة قصيرة من مسيراتهم الفنية في تلحين أغاني الأوبريتات والمسرحيات الغنائية قبل انسحابهم من هذا المضمار.

تلحين الأغـانـي الـفـرديـة مهمة أسـهـل ومـردودهـا الـمـادي أوفـر ولو استغرقت أحيانًا بضعة أشهر تلحينُ أغنية واحدة. في من الأغاني يتولّى الملحّن تأليف المقدمة الموسيقية والمذهب والكوبليه الأول، ويتكرر لحن الكوبليه الأول في المقاطع التالية. يتقاضى الملحن أجرًا من المنتج لدى تسجيل الأغنية في الاستوديو، ومكافأة (سخية أحيانًا) من المطربة أو المطرب. ولأن عرضها على الجمهور لا يتطلب سوى أوركسترا مصاحبة، يكرر المطربات والمطربون تقديمها للجمهور في الحفلات المختلفة. وكان يـزداد المردود المالي مع العائدات الـواردة من «جمعية المؤلفين والملحنين» نظير الأداء العلني، لأن إذاعة الأغاني الفردية لنجوم الطرب هو السائد في الإذاعات ومحطات التلفزيون.

على الرغم من هذه الأفضليات، خاض الأخوان رحباني تجربة المسرح الغنائي، فلحَّنَ عاصي ومنصور اسكتشات موسيقية من إنتاج إذاعة لبنان وإذاعة دمشق وإذاعة «الشرق الأدنى» وسواها، فكان تلحين تلك الاسكتشات تدريبًا لهما على تلحين أغانٍ فردية تمتزج مع حواريات غنائية.

وإذا مساهمات محمد عبد الوهاب ومحمد القصبجي وزكريا أحمد ورياض السنباطي في المسرح الغنائي اقتصرت على التلحين، فإبداع الأخوين رحباني شمل كتابة النص المسرحي ونظم أشعار الأغاني والحواريات وتلحينها، فضلاً عن التوزيع الموسيقي وقيادة الأوركسترا.

معهما تبلْوَر المسرح الغنائي

إذًا: المسرح الغنائي بمعنى الكلمة تبلور ونضجَ مع الأخوين رحباني. ولن أتطرق هنا إلى عروض لا تخضع لقواعد المسرح الغنائي بل اقتصرت على سهرات موسيقية غنائية دون بناء درامي، مثل «المحاكمة» و«قصيدة حب»، أو «ناس من ورق» (برغم خيط رابط بسيط فيها)، و«البعلبكية» (بدايتُها مَغناة «رحيل الآلهة»، وختامها أغنية «بعلبك أنا شمعة على دراجك»، والباقي ألحان وأغانٍ جميلة.

قبل التفاصيل، أنوّهُ بمساهمات فيلمون وهبه وإلياس وزياد رحباني كضيوف شرف في تلحين بعض الأغاني، وفي تأليف بعض المقدمات الموسيقية للمسرحيات. أما الباقة الكاملة من المسرحيات التي ظفرت بإعجاب الجمهور، فمن إبداع الأخوين عاصي ومنصور.

«موسم العز»

كانت «موسم العز»، من بطولة صباح ووديع الصافي، أول مسرحية غنائية، بل قُلْ هي النواة التي نضجت وأثمرت في المسرحيات التالية. قُدِّمت في مهرجانات بعلبك سنة ١٩٦٠، في إطار «الليالي اللبنانية»، مع توصيات إدارة المهرجان بالاهتمام بالفولكلور اللبناني والقيم الاجتماعية اللبنانية. وقد لبّت المسرحية هذه الرغبات، فاشتملت على كوكتيل غني من المشاهد الغنائية التي استعرضت العديد من الملامح الفولكلورية: ضيعتان بينهما تنافس وتحدٍ عبر رفع القَيْمة وفن رقص الدبكة وقول الزجل، ورقصة السيف والترس وسهرات ساحة الضيعة وطهو المآكل اللبنانية، وتربية دود القز لصنع الحرير. بعد التباعد يتم التلاقي في موسم الحرير، موسم العز، و«ضيعتنا صارت ضيعتكم» وتقام الأفراح والأعراس، وتكون الوصية «بعد الله اعبدوا لبنان». ويتغنى الجميع في دبكة الختام «القوي لبنان، الغني لبنان، الهنا والجنى بسما لبنان».

«جسر القمر»

في ثلاث مسرحيات غنائية أخرى، كانت الضيعة مسرح الأحداث: «جسر القمر» و«الليل والقنديل» و«دواليب الهوا»؛ والأخيرة مثل «موسم العز» من بطولة صباح، أما جميع الأعمال الرحبانية لغاية «بترا» (١٩٧٧) فرفعت رايتها الغنائية فيروز، وكان وجود هذه الأيقونة بصوتها الساحر وأدائها البديع قيمة نفيسة مضافة إلى إبداع الأخوين رحباني.

في «جسر القمر» ضيعة القاطع متخاصمة مع ضيعة الجسر، ويفصل بينهما الجسر. وفي جداره فتاة مرصودة تلوح لشيخ المشايخ وتخبره أن لا شيء يخلّصها سوى الحب، وأن تحت الجسر كنزا مدفونا لا يعثر عليه إلا المحبّون. يدير أهل القاطع المياه التي كانوا قطعوها عن أهل الجسر. وفي تصالحهم كسر للبغض وانتصار للحب وخلاص للفتاة الأسيرة.

«الليل والقنديل»

في «الليل والقنديل» تعتاش الضيعة من بيع القناديل، التي يصنعها الأهالي، لأهالي الضيع الأخرى، وتحفظ منتورة الغلّة التي تتوزع في نهاية الموسم. ومشروع الأهالي الحالي هو تعليق قنديل كبير على رأس الشير لينير للمارة الطريق إلى القرية. يتضرر هولو المجرم المُطارد نصير العتمة ويهرب من الضوء ويلجأ إلى خيمة منتورة التي تأويه شفقة، لكنها تُصدَم بعد رحيله عندما تعرف هويته. يغريه خاطر، زميله المجرم الآخر، بتحطيم القنديل الكبير، لكن هولو يتحفظ كرمى لمنتورة، فيكون الحل البديل سرقة كيس الغلة. ويتم ذلك، وتصاب منتورة بصدمة كونها قصّرت في حماية مال الأهالي، تطفئ قنديل خيمتها ويأكلها الحزن. لكن هولو من باب الامتنان لمعروفها السابق يعيد كيس الغلة إليها.

«دواليب الهوا»

وفي «دواليب الهوا» نرى الإقطاعي الذي يحتكر كل إنتاج الزيتون في الضيعة ويترك للأهالي حقل القصب، ذا المردود الضعيف. لكنه يطمع به أيضا ويغري السمسار فيتراجع عن شراء موسم القصب. وتنقذ «حلا» الأهالي بعد تعرفها على بياع دواليب الهوا، الذي يدرب الأهالي على صنعها. ويغتاظ الإقطاعي من هذا المشروع فيسعى لحرق حقل القصب. لكن خطته تفشل، ويأتي أهالي الضيع المجاورة مع أطفالهم ويشترون دواليب الهوا.

مسرحيات ريفية، فيها خيط درامي يؤهلها لتحصل على تصنيف المسرح الغنائي، برغم بساطة الفكرة وسهولة الحلول الدرامية فيها. لكن في الثلاث الأخيرة فانتازيا شعرية والأغاني أكثر التصاقا بالموضوع. اتهم البعض الأخوين رحباني، بغير وجه حق، أنهما باعا الناس أوهاما عن مجتمعات مثالية. يمكن القول إنها تضمّنت شوفينية عالية، وإنها عبّرت عن القيم الريفية التقليدية بصالحها وطالحها. لكن استعراض المسرحيات الأخرى جميعها يثبت أنها خرجت من العباءة الريفية، إلى مواضيع مختلفة، حتى لو كانت القرية هي المكان الذي تدور فيه الأحداث.

«فخر الدين»

سلسلة إبداعات تنتمي إلى «المسرح الغنائي» بامتياز، محققة شروطه. لم تروّج لمجتمع خيالي مثالي بل حفلت بالنقد.

نبدأ بـ«أيام فخر الدين» وهي عن أمير لبنان في القرن السابع عشر، الذي نشط في الإعمار، وازدهار الاقتصاد، فثارت حفيظة السلطنة العثمانية وأرسلت جيشا عديده أضعاف عديد الجيش اللبناني. وانضمت خيانات من الداخل إلى التفوق العددي، فأدّت إلى انكسار فخر الدين. وفضّل الاستسلام والمنفى لأجل صون لبنان من الدمار.

«الشخص»

في مسرحية «الشخص» رأس السلطة لا يعي ما تفعله الحاشية التي بيدها مقاليد الأمور. الناس، الشعب، في عوز بينما الحاشية تغرق في النعيم. ويبرز التعسّف في التعامل مع بائعة بندورة غنت أمام الشخص حين زار البلدة. يصدر عليها الحكم القاسي بمصادرة العربة، أداة رزقها. وتجمعها صدفة بالشخص ويندهش عندما يعرف أنها صاحبة الصوت الجميل ولا يدري شيئا عمّا حل بها، ولا عمّا يجري في البلد، وتختم البياعة بالغناء «جينا لحلال القصص تا نحلّ قصتنا، لقينا في عنده قصة يا ماحلى قصتنا».

«يعيش يعيش»

تدور أحداث «يعيش يعيش» في امبراطورية «ميدا» التي تخضع لحكم عسكري، تكثر فيه الانقلابات. قادة الانقلاب الجديد يعدون الشعب بالحرية والازدهار، ويعيش الناس على حلم الوعد. لكن الوعود تتبخر وتسود الدكتاتورية. ولتأكيد الاختلاف بين السلطة والشعب المغلوب على أمره، تأتي أغنية الختام «طلع المنادي ينادي، ما فيهاش إفادي.. الرعيان بوادي والقطعان بوادي».

«جبال الصوّان»

في «جبال الصوان» يناضل الناس من أجل الحرية ورفع الظلم ومقاومة الاحتلال. لكن فاتك المتسلط يهزمهم بجيشه الكبير، ويرفض المواطن مدلج الاستسلام، فيقتله فاتك عند بوابة الضيعة. يعيش الناس في مذلّة

ويُنكّل بهم، ويهاجر قسم منهم يأسا، وينتظرون مجيء مُخَلّص. يتحقق ذلك بعودة «غربة» ابنة مدلج، فتقوم بحشدهم ورفع معنوياتهم ورفض الاستسلام «بدنا نكمّل باللي بقيوا.. كتار، قلال، منكمّل باللي بقيوا». تقف «غربة» في مواجهة «فاتك»، لكنه يقتلها في حيثما قُتل أبوها. ويكون موتها مشعلا الثورة في وجدان الأهالي، الأمر الذي يرغم «فاتك» على الهرب.

«صح النوم»

في «صح النوم» حكاية الوالي الذي ينام ولا يحكم. يستيقظ مرة كل شهر، ويضع خاتمه على ثلاث من معاملات الأهالي، ويتعب فيعود إلى نومه لشهر آخر. استاءت المواطنة «قرنفل» التي تنتظر منذ ستة أشهر ختم طلبها، لترمم بيتها الذي انهار سقفه، فسرقت خاتم الوالي، ووقعت معاملتها وجميع الطلبات المنتظرة، ورمت الختم في بئر مهجورة. وعندما أفاق الوالي اكتشف الأمر وحكم على قرنفل حكما قاسيا، لكنه لا يستطيع أن ينفّذه لفقدان الخاتم.

«ناطورة المفاتيح»

يستمر تناول موضوع الحاكم الذي بينه وبين الشعب هوة سحيقة في مسرحية «ناطورة المفاتيح». الملك متعسّف يرهق الشعب بالضرائب ويستولي على نصف منتوجهم. لا يطيق الأهالي الظلم فيقررون الرحيل ويتركون مفاتيح بيوتهم مع الفتاة «زاد الخير». يصعق الملك عندما يكتشف هجرة الشعب وفراغ المملكة منه، فيطمئنه المستشار بأن وجود «زاد الخير»، ولو وحدها، يكفي لوجود رعية. لكن الفتاة ليست طيّعة، فيفتح الملك أبواب السجون ليصبح لديه شعب، ولو من المجرمين. لكن هؤلاء يهربون، ولا يبقى سوى «زاد الخير» التي لا تذعن، فيتوسّل إليها الملك أن تعمل على عودة الرعية، وأصبح الأمر بيدها، فتقنع الأهالي بالعودة، وتشاركهم الفرحة «رجعوا الناس وعمرت المدينة»، ويعترف الملك صاغرا: «شـو أنـا بَـلاكُـن/ أنا بَيْـدَرْ مَهْجُور/ أنا قَشّة بالرِّيْح/ أنا بَيْرَق مَكْسُور».

«المحطة»

أما في «المحطة» فتظهر «وردة»، الفتاة الغريبة في حقل زراعة البطاطا، وتسأل عن وصول القطار. إزاء دهشة الفلاحين تصرّ وردة على أن

هذا القطار سيأتي حتماً ويأخذ الناس إلى مكان أفضل. يتصور الفلاحون أن الحقل هو في الحقيقة محطة للقطار، وقريبا سيصل القطار. تنتشر شائعة المحطة في عموم البلدة، والناس بين مصدق وغير مصدق. ينتهز أحد اللصوص الموقف، فيبيع الناس بطاقات قطار مزيفة. ويستغل آخرون الفرصة، لرفع أسعار الأراضي، وتكوين ثروة. ومع تنامي شعبية المشروع يفتتح رئيس البلدية «المحطة» رسميا، ويشتري الأهالي البطاقات، في انتظار وصول القطار. يتأخر الوصول ويتسرب القلق إلى النفوس، يبدو أن القطار لن يأتي. بيد أنه يصل فعلا إلى المحطة. يعجل الناس في الصعود، أما وردة التي لم تتمكن من الحصول على بطاقة، فتبقى وحيدة في المحطة التي اخترعتها.

«لولو»

في مسرحية «لولو» حكاية الفتاة التي خرجت من السجن بعدما أمضت فيه ١٥ سنة عقابا على جريمة لم ترتكبها، إنما ألصقوا التهمة بها ظلما. تعود إلى البلدة وتسعى إلى الانتقام من الذين لفقوا لها التهمة. وحين يخشى هؤلاء افتضاح ذنبهم يتفقون مع طبيب نفسي لأجل إدخال لولو المصحّة النفسية إلى الأبد. يفشل مخططهم، فيسعون لقتلها لكنها تردع القاتل الذي يقر بأسماء المحرّضين. تغادر لولو القرية وتترك أشرارها في أسوأ حالاتهم يتبادلون الاتهامات.

«ميس الريم»

وفي «ميس الريم» تصل زيّون إلى هذه البلدة التي تحمل الاسم ذاته. تتعطّل سيارتها فتسأل عمّن يصلحها، فأخبروها أن الميكانيكي الوحيد أقفل دكانه بسبب خلافه مع خطيبته. وصار لزاما على زيّون أن تصالحهما ليُصلح الميكانيكي سيارتها. لكن الخلاف بين عائلته وعائلة خطيبته يتفاقم. وبعد مجهود منها تحدث المصالحة، يتعانقون وينسون زيون؛ فالميكانيكي منشغل بأمور الزفاف. يدفع الأهالي السيارة إلى خارج الضيعة. «هالسيارة [أو هالدولة] مش عم تمشي، بدنا حدا يدفشها دفشة.. بيحكوا عن ورشة تصليح، وما شفنا ويني هالورشة».

«بترا»

في مسرحية «بترا» يذهب الملك ليحارب الرومان الغزاة، فتتولّى زوجته الملكة شاكيلا الحكم. يصل جنديان رومانيان متنكّران مع بقية

القوافل ويتمكّنان من خطف الأميرة الصغيرة «بترا» في ربيعها السابع، ويحتفظان بها رهينة ويهرّبانها خارج المملكة. فشلت محاولات العثور عليها، وهدد الجندي الروماني الملكة بأوخم العواقب إذا لم تجبر زوجها على الانسحاب من المناطق التي حررها من حكم الرومان، وإلا تُقتل ابنتها بترا. رفضت الملكة أن تضحي بكرامة المملكة وأن تهمل دماء الجنود الشهداء، حتى لو أضحت حياة ابنتها في خطر. يرجع الملك ظافرا بالنصر، لكن فرحته يمحوها الأسف عندما تخبره الملكة بالثمن الذي دفع لكي يتحقق النصر.

قراءة متأنية في اثنَتَين

أتوقف هنا عند مسرحيتين تتميّزان بخصائص تستحق النظرة المتأنية: «بياع الخواتم» و«هالة والملك».

١. «بيَّاع الخواتم»

هي باكورة الأعمال التي تستحق لقب «المسرحية الغنائية» بجدارة. بناؤها الدرامي متماسك ويتنامى صعودا عبر مشاهد تتوالد لتصل إلى الذروة. وهي أولى مسرحيات الرحباني التي تميّزت ببناء درامي متين. ولولا بعض المشاهد القصيرة التي يُؤَدَّى فيها الحوار تمثيلاً، لجاءت ملحّنة من أولها إلى آخرها. هي مُطَوّلة لحنية، الأغزر في تاريخ المسرح الغنائي العربي. وإذا تحوّل الأداء في المشاهد الحوارية من التمثيل إلى الإلقاء المنغّم، لأصبحت المسرحية ملحّنة بكاملها وتستحق لقب «أوبرا». فضلاً عن غزارة الألحان فهي كاملة التنوع، من الأغاني الفردية، إلى الثنائيات، إلى الأغنيات الجماعية، وفي مختلف الألوان، من الأغنية العاطفية، إلى الكاريكاتورية (مشاهد الشاويش) إلى الفولكلورية، إلى الإيقاعية التي ترافقها الدبكات. هذه خصوصية «بياع الخواتم» الموسيقية. فضلا عن مضمونها الرمزي حيث المختار (السلطة) يخترع مجرما يسمّيه راجح ليقول الأهالي «إني بحميهم من مجهول عليهم جايي»، ويتيح الفرصة للمارقين فيرتكبون السرقات التي تُنسب جميعها إلى «راجح»، إلى أن يظهر رجل اسمه الحقيقي راجح، فتغرق البلدة في القلق ويضطرب المختار، إلى أن يتواجها، هو وراجح، بحضور الأهالي الذين يتوسلون إلى راجح أن يتركهم في أمان في موسم الخطبة، ثم يدركون أنه ليس مجرما بل بائع خواتم وعقود اللولو وأنه جاء يعرضها لهم في عيد الخطوبة، فيهتفون «نشكر اللّه اللي إجا راجح المليح، وراجح المعتم أخدته الريح».

٢. «**هالة والملك**»

مسرحية بالمعنى الحقيقي للمسرح. وأقصد هنا أنها يمكن أن تعرض على المسرح بأداء ممثلات وممثلين، بنصها الكامل كما هو، ومن دون غناء. مشاهد متماسكة، يتنامى فيها الحدث ويتطور، والشخصيات جميعها ذات صلة عضوية بالبناء الدرامي. ما من شخصية دخيلة، من الملك إلى أفراد الحاشية وبينهم العرّافون والمستشارون، وسائر أفراد البلاط، من القادة العسكريين وأمناء المال والأشراف، يجمع الفساد ما بينهم، كلّ على طريقته. على النقيض من هؤلاء، أربع شخصيات: الملك، وهالة بائعة الأقنعة التي تصوّر الجميع أنها الأميرة لأن العرّاف تنبأ بحضورها وستكون الملكة، ووالدها «هبّ الريح» السكّير المزمن، وشحاد البلدة. الملك لا حلم عنده لأن لديه كل شيء وقد بلغ أعلى مراتب السلطة. والشحاد لا يرغب في أن يكون ملكًا، لأن ذلك سيقتل حلمه الدائم بأن ينجز الأفضل. وهالة ذات الموقف المبدئي، رفضت لقب الملكة، وعادت إلى قريتها «درج اللوز» مع أبيها. وكما النص المسرحي كذلك هو الإبداع الموسيقي، فجميع الألحان ذات طابع درامي منسجم تماما مع الموقف، هي تصوّر المشاهد ولا تسعى أن تكون ذات صبغة تطريبية تكاد تستقلّ عن المسرحية. يصعب حذف أغنية أو مشهد موسيقي من دون حدوث خلل في المسرحية.

من دون فيروز

بعد الانفصال الفني بين فيروز والأخوين رحباني، اختتم عاصي ومنصور مشوارهما الفني الطويل معًا بمسرحيتين: «المؤامرة مستمرة» و«الربيع السابع». وكلاهما من بطولة رونزى، في الأولى أمام جوزف عازار وفي الثانية أمام ملحم بركات. أنتجت المسرحيتان خلال الحرب، وليس فيهما تلميح بل إشارات واضحة إلى واقع لبنان في الثمانينات، مع بعض المباشرة في المشاهد والحوارات.

هالة نهرا:
فيروز وزياد تيّارٌ طليعيّ



يتبدّى لدى زياد الرحباني تميُّزُ القولِ الشعريِّ أو الكلاميِّ الصِّرف في أغاني فيروز (أغنية «صباح ومسا» على سبيل المثال لا الحصر)، على اعتباره يجنحُ نحو المغاير واللمّاح والطريف والبسيط، بأسلوب السهل الممتنع المكتنز بفرادتِهِ وطازجيتِهِ الدائمة، وهو يوقظُ الدهشةَ غالبًا لدى المتلقّي، مع أنّ تجربةَ زياد في الكتابةِ تلتصقُ طبيعيًا بعمقِهِ وموهبتِهِ الطالعَين من غور الحياةِ الواقعية والعاكسَين إياها.

وإن كان من مبالغة في القول إنّ زياد الرحباني شاعرٌ – وهو كاتبُ كلماتِ أغنيات عدَّةٍ يُمَوْسقها ببراعة – فهو خالقُ مسحةٍ شاعرية أحيانًا كما في الأغنية المذكورة، وفي أغنية «شو بخاف دِقّ عليك»، تُعزّزها أيضًا موسيقى خلاّبة في ميلها نحو الشِّعريةِ poétique. وهذا الخلْقُ مختلفٌ عن المعهودِ ولو تمظهر عاديًّا بنظر بعضهم.

ظاهرة مؤَسلَبَة

إن إدراكَ زياد الرحباني الفنّي، في الكتابةِ الموسيقية وكتابةِ الكلمات، ممسوسٌ بوعي تجريبيّ خلّاق وجريء ويشكّل حالةً وظاهرةً مُؤَسْلَبة على المستوى العربيّ، وعبثًا يحاول بصورةٍ واعية أو لاواعية أن يقلّدَهُ كثيرون، لأنّ زياد مبدعٌ استثنائيٌّ حرٌّ في اجتراح ما يشاء: لغةً وميلوديا وهارمونيا ورؤيةً للصوت أو رؤيةً آلية أو أوكسترالية.

يَفتِلُ زياد بِمِغزَلِهِ الخاص خيوطَ كلماتٍ في فَلَكِ اليوميّ والتلقائيّ المتداوَل، ويلوّنها ويرصُفُها على طريقته، ليُعيدَ إنتاجَها ضمن رؤيةٍ فنيةٍ إبداعيةٍ شاملة تلتحفُ بالموسيقى وتخدم الأغنيةَ وحضورَ فيروز الغنائيّ.

هذه الجسارةُ قولاً وتنغيمًا، وهذا النبضُ الزياديُّ الفريد، قَرَّبا فيروز إلى قلوب الشباب والجيلِ الجديد أو بالأحرى الأجيال المتعاقبة التي عشِقتْ تجربة زياد معها أو تعلّقتْ بها. لزياد أيضًا سطْوتُه ومكانتُه في

المشهد الفني اللبناني والعربي، وتجربتُه مع فيروز أَغنتْهُ فنيًا وأغنَتْ فيروز أيضًا في مرحلةٍ مختلفة عن مرحلةِ تعاونِها مع عاصي ومنصور.

يخرب بيت عيونك شو حلوين!

مع زياد أيضًا جمعت فيروز بين النخبويّ والشعبيّ، وتجرِبَتُها أظهرَتْ قدرتَها على مواكبةِ لغة العصر، ونيلِ إعجابِ واستظرافِ الجمهور في الكثيرِ من الأحيان. فزياد جعل فيروز تنطق بمفرداتٍ وعبارات مثل «يخرب بيت عيونِك» («عَ هدير البوسطة»)، و«مَلاًّ إنتَ» («كيفَك إنتَ»).

هذه الإضاءة على زياد تبدو ناقصةً إن لم نتنبّه إلى إدراج تجربته الموسيقية ضمن مسارٍ لبنانيٍّ عربي معيّن، وإن لم نكتنِهْ تموضُعَها الموسيقي وتَمَركُزَها الفنّيّ. وللتاريخ وحده أن يبلّرَ الأبعادَ الإضافية لتلك التجربة، ودلالاتها المتلفّعة بعباءةِ الإرثِ المحلّيِّ والقوميّ من جهة، وبأدواتِ اللغة الموسيقية العالمية النافذةِ إلى سِكَك الآخر من جهةٍ أخرى.

سوى أن زياد ابن المدرسة الرحبانية، مدرسة «الأخوين رحباني»، رغم تمرُّده الإبداعي عليهما أحيانًا وفرادة بَصمته الموسيقية. وهو انصرف جزئيًا إلى الشرقيّ والطربيّ الحديث آنًا، وإلى سُبُل الدمج المختلف نوعيًا آونةً.

العظيمان عاصي ومنصور

سار الأخوان رحباني العظيمان (عاصي ومنصور) على تربةِ التراثِ الموسيقيِّ المحلّيّ وأرصفةِ الفولكلور الخام. وحثَّتْ خُطاهما على ولادةِ حركةٍ جديدة ضمن أُطُر النبشِ في ملامح الهوية الموسيقية اللبنانية. وإبرازِ فِعْلهما موسيقيًا لا يعني التنكُّر لما قام قبلهما في لبنان، ولا الانتقاص من قيمةِ الآخرين. لكنّ أعمالَهما المغايرة للسائد آنذاك عكستْ لغةَ عصرٍ جديد بأدواتٍ جديدة. ولعلّهما عمدا إلى إضفاء «البوليفوني» على روح التراث، فالتراث الموسيقي اللبناني قبلهما لم يكن يعرف كُنه البوليفوني، عدا محاولات تجريبية لم تَقْوَ آنذاك على ولوج جوهر التراث فبقيَت محصورةً بين حلقاتها النخبوية. أمّا عاصي ومنصور فكانا متنبّهين إلى خواص اللغة الموسيقية المحلّية، ومدركَين مزاجَها العربيّ والشرقيّ العام، ما أدّى إلى حلٍّ استثنائيّ للمعادلة شبه المستحيلة بين «التراث والتجديد».

تداخل زياد مع الأخوين

في العودة إلى نتاج زياد ارتباطًا بعمل الأخوَين، انطلق من الأسسِ الأوّلية في هذا الميدان، لينأى عنها لاحقًا فيصيرَ على مسافةٍ قصيرةٍ من مشروعِهِ الخاص. ويتبدّى مدى التداخُل بين الأخوين وزياد في خمسة أمور:

١. دعائمُ الدمج الحداثيّ ومفاهيمُه المتطوّرة غير المكتفية بالنظام الغربي التونالي tonal المقتصر على المينور والماجور فحسب، بل المستعينة بتراكيب نظامٍ مقاميٍّ آخر يُعرَف بـ«مودال» modal.

٢. الجمعُ بين التمرّسِ العلميّ والعمليّ بالخلفيّتين الغربية والعربية.

٣. ترتسم ظلالُ الأخوين على حائط زياد التأليفيّ والتوزيعيّ، بل على سلَّم قِيَمه المتمثّلةِ في اللجوء إلى الدمجِ كوثبةٍ مُلحّة، في سبيل تطوير الموسيقى اللبنانية والعربية.

٤. كيفية عبور الضفّتين الشعبية والنخبوية معًا، وفي آنٍ واحد.

٥. كيفية مقاربة إشكالية ثلاثة أرباع الصوت، في التوزيع الأوركستراليّ كما في حقل التوضيب arrangement.

«إلى عاصي»

وعى الأخوان وزياد ألاَّ يقعا في فخّ الإسقاطِ البوليفوني -الهارموني الغربي على أسْطُر الأنساق والأغاني والصيَغ الموسيقية المقامية العربية. وتأكيدًا على ذلك قال زياد: «من الأمور التي تعلّمتُها... إبراز الهوية الشرقية والوطنية للموسيقى، والتأكيد على هويّتي الثقافية أينما وُجدْتُ في العالم، بالتركيزِ على المقاماتِ الموسيقيةِ الشرقية، والمحتوية منها على أرباع الصوت، وإبرازِها بطريقةٍ مركّبة غير تقليدية عبر الكتابة الهارمونية لهذه المقامات». ورَدًّا على سؤال الناقد الراحل نزار مروّة عن الوعي الذي دفعه إليه والدُهُ عاصي أضاف زياد: «أنتج (الوعيُ) اقتناعًا تامًّا بالنسبةِ لي أنّ أيّ موسيقى عالمية لم يعد بمقدوري التعاطي معها تأليفًا، عزفًا، أداءً، إلاَّ من خلال مناخِ الموسيقى الشرقية».

تقديرُ زياد عمل الأخوين ظهَر في ألبوم «إلى عاصي» (١٩٩٥)، إذ أعاد توزيع أغانيهما ونكَّهَها برؤيتِهِ التجديدية فقارنت الأجيال بين الرؤيتين تلقائيًا.

«ليس من جاز شرقي»

ثمةَ جزءٌ من مشروعِ زياد المتفرّد، صُنِّفَ في جانبٍ منه، لا في كله، في خانة «الجاز الشرقي»، وهو يظهر مثلاً في تجربتِهِ مع فيروز بـ«الليالي» (يا ليلي ليلي ليلي يا ليلي يا ليل) في ألبوم «كيفك إنت» (١٩٩١) إذ إن الدمج – في هذا المثال الإبداعيّ الفتّان والفريد عربيًا وعالميًا – برز بين «الليالي» الارتجالية الطربية المشرقية العربية، وبين روح الجاز بصوت فيروز الساحر. وبينما أخذتْ تنتشر في الفضاءِ النخبويِّ اللبناني عبارةُ «جاز شرقي» كاصطلاح ملازم ذاك الخليطَ الموسيقي الجديد، تبرّأ زياد من المصطلح، وصَرَّحَ بأنّه «غَير علْميّ» لأنّ الجاز هو الجاز في الشرق كما في الغرب، مُخلِّفًا بذلك مجادلاتٍ نقديةً لم تُبَتّ حتّى اليوم. وبمعزل عن ذلك، تمظهرتْ معالمُ مزجِ الروحِ الشرقية بالغربية الممهورة بالألمعية الحادّة، في أعمال زياد لفيروزَ مثالاً لا حصرًا: «وَحْدُنْ»، و«معرفتي فيك» (١٩٨٧)، و«كيفك إنت» (١٩٩١)، و«إلى عاصي» (١٩٩٥ وفيه أعاد توزيع أغاني الأخوين)، و«فيروز في بيت الدين ٢٠٠٠»، و«وَلا كيف» (٢٠٠٢). إنها كيمياءٌ من مزيج وإشراقاتٍ إبداعية في نسيجِ موسيقاه وتقاطيعِها وخلاصتِها، يزدحمُ بالتلألؤات.

التقاط الحس الشعبي

في أغنية «عودك رنّان» (أسطوانة «معرفتي فيك») على مقام البياتي، انتقالٌ من صيغة الطرب التقليدي إلى أسلوبٍ إيقاعيٍّ حديث مضمّخ بنفَس كرديّ وبعصب التأليف المعاصر. والتأثيرُ الكرديّ منبعثٌ أوّلاً من آلَة البزق التي يتقن زياد العزف عليها (إلى جانب البيانو)، كان والده عاصي وجّهه إليها، ومن احتكاكه لاحقًا بالمناخ الموسيقي الكردي التقليدي في لبنان. وثمة بعض أنفاسه الخارجة من رئة المدرسة المصرية (في بداياته خصوصًا) كما مثلاً: «بعتّلك يا حبيب الروح» (مسرحية «نزل السرور»). وهنا تأثّر بروّاد المدرسة المصرية، لا سيما سيد درويش (والد الموسيقى العربية الحديثة). فالقدرة على التقاط الحسّ الشعبي وصوغه بأسلوب فنّيٍّ متطوّر وبسيط ومختزل، قد تجلّت في أعمالِهما بصورةٍ لافتة. فزيادٌ المبدع المحصّن بوجع الناس وحبّ الناس يشبه سيد درويش في قربه التاريخي من نبضِ الشارع، وبخاصة في الأغاني الملتزمة والوطنية.

قصة «سألوني الناس»

أثناء حوارٍ مُتَلْفَزٍ له في مصر (فضائية «سي بي سي» مع الإعلامية منى الشاذلي) كشفَ زياد عن أول لحن له غنتْه فيروز: «سألوني الناس»

(«المحطّة»، ١٩٧٣). كان يومها وضع هذا اللحن، بكلام مختلف، وهو بين الرابعة عشرة والخامسة عشرة، كي يغنّيه مروان محفوظ. وحين سمعه عمُّه منصور وسمعه عمُّهُ منصور، وكان غاب عاصي، فقرر أن يأخذ منه اللحن ويكتب له كلماتٍ عن أخيه عاصي الذي كان في المستشفى. ولاحقًا قال منصور في حوارٍ مُتَلْفَزٍ إنّ الأغنية من ألحان زياد وتوزيع إلياس الرحباني.

لحن «سألوني الناس» مشرقي عربي أصيل على نوْلِ مقام «البياتي»، وهو لحنٌ خالد يَشِفُّ عن أصالةِ زياد ومدى شُهوقِ موهبَتِهِ منذ بدايات الرحلةِ المتميّزة مع فيروز وفي فضاءِ التلحين عمومًا.

صبحي الجيز

أهمّيةُ زياد الرحباني أيضًا أنه لا يؤلّف في أُطُرِ قوالب موسيقية جاهزة ولا يَتَعَجَّلُ فِي أُمُورِهِ بل يُطلقُ الأعمالَ الناضجةَ والمَحُوكة. لا يكتفي بالتفنُّنِ الإبداعيِّ والجماليّات الموسيقية المنسابة في رؤيته الفنية الحصيفة كانسياب الماءِ في الوديان، بل يحمل أيضًا رسالةً إنسانيةً بليغة، منخرطًا بصِدقٍ وبخلفيةِ القناعة الراسخة بقضايا الواقع والأرض والإنسان وهو الذي حضَّ فيروز على تأدية «رفيقي صُبحي الجيز» (كلماته ولحنه) التي تتدثّر ببُعدٍ طبقيٍّ يساريّ (عن عامل النظافة صُبحي الجيز، وكان غنّاها قبلذاك الفنان اللبناني الملتزم خالد الهبر). ويتجلى التزامه كذلك في أغنية «خلَّصوا الأغاني» («هنّي ويغنّوا عَ الجنوب... لا الشهدا قلّوا ولا الشهدا زادوا، وإذا واقف جنوب واقف بولادو... اللي عم يحكوا اليوم هَوْ غير اللي ماتوا، المعترّ بكل الأرض دايمًا هوي ذاتو») وهي أغنية للمقاومة الوطنية اللبنانية، غنّاها قبل فيروز الفنان اللبناني الملتزم سامي حوّاط في شريط «أنا مش كافر» في منتصف الثمانينيّات.

أفق جديد للأغنية الرحبانية

أسّس زياد الرحباني لحساسيةٍ وذائقة فنيتين جديدتين تأصّلتا في مسامع المتلقّين، وأسهَمَ بجدارةٍ في رسم أفق جديد للأغنية الرحبانية والأغنية الشعبية المعاصرة والموسيقى اللبنانية والعربية الحداثية.

يستحيل اختصار تجربة زياد مع الهائلة فيروز نظرًا لثرائها ومدى تشعُّبها، وهي تجربة تحتاج إلى موسوعةٍ كاملة لإيفائِها حقّها. وليست هذه سوى إضاءة موجَزة، تحيّةً لزياد و«جارةِ القمر» فيروز في تعاوُنِهما الفنّيِّ الإبداعيِّ المثمر والطليعيّ الخالد.

الأُمسية الغنائية



فرقة «عشتار» (فيلوكاليًّا) تؤدي الأمسية الغنائية



الأخت مارانا سعد تقود الأوركسترا والكورس



الأغاني على المسرح، والصوَر المواكبة على الشاشة







هنري زغيب يقرأ القصيدة قبل تأديتها مغنَّاة



رئيس الجامعة الدكتور ميشال معوّض
يهدي الأخت مارانا سعد شعار مئوية الجامعة







الملف الثالث

مئوية «مُلوك العرب» لأَمين الريحاني

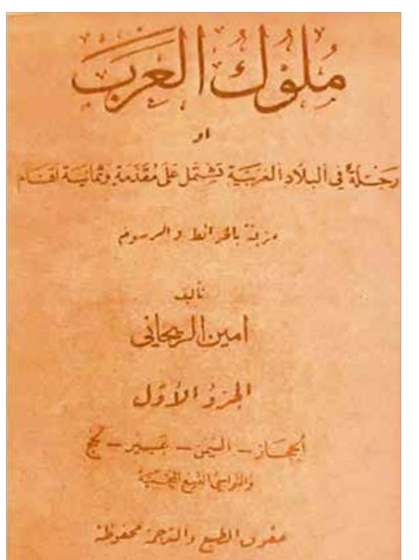


مئوية «مُلُوك العرب» لأَمين الريحاني



لأَن «مركز التراث اللبناني» في الجامعة اللبنانية الأَميركية LAU يَرصُد دائمًا كلَّ مناسبة تتعلَّق بتراث لبنان أَعلامًا ومعالِمَ وعلامات، لم يكن ممكنًا أَن تَمُرَّ مئوية كتاب «مُلُوك العرب» (١٩٢٤–٢٠٢٤) أحد أَبرز مؤلفات أَمين الريحاني (١٨٧٦–١٩٤٠) من دون الاحتفال بالحدَث، توازيًا مع صدور طبعة جديدة للكتاب (عن «مكتبة لبنان»).

لذلك نظَّم «المركز» نـدوةً من جلسَتَيْن، تحدَّث في الأُولى الأُستاذ رشيد درباس والدكتورة أَسمهان عيد حنا والدكتورة إِيمان درنيقة الكمالي، وفي الثانية الدكتور غالب غانم والدكتورة زهيدة درويش جبُّور والدكتور أَمين أَلبرت الريحاني.



الطبعة الأُولى : ١٩٢٤

افتتح النـدوةَ مديرُ «مركز التراث اللبناني» الشاعر هنري زغيب، وقرأَ رسالةً من رئيسة «مؤسسة أَمين الريحاني في الولايات المتحدة الأَميركية» السيدة مي الريحاني وجَّهَتْها إِلى رئيس الجامعة الدكتور ميشال معوض لمناسبة تنظيم «مئوية ملوك العرب»، ثم قرأَ الرسالةَ الجوابية التي أَرسلها رئيس الجامعة إِلى السيَّدة الريحاني.

في هذا الملف الثالث تنشر «مرايا التراث» نُصوص الكلمات التي أَلقاها أَصحابُها في الندوَتَين.



LAU
مركز التراث اللبناني

في سلسلة اللقاءات
الخاصة بمئوية الجامعة
(١٩٢٤-٢٠٢٤)
إحياء ذِكْر المبدعين اللبنانيين

مركز التراث اللبناني
يدعوكم إلى استذكار **أمين الريحاني**
في جلستَين أكاديميَّتَين عن كتابه

مُلوك العرب
في مئوية صُدُوره
(١٩٢٤-٢٠٢٤)

الاثنين ١٥ نيسان ٢٠٢٤

كلية عدنان القصّار لإدارة الأعمال – القاعة ٩٠٣
الطابق الأرضي – مبنى الجامعة الجديد – بيروت

الدعوة عامة
(٢/١)

الجلسة الأولى: ٥:٠٠ – ٦:٠٠

- **الأستاذ رشيد درباس:** «العرب قبل الملوك»
- **د. أسمهان عيد الياس:** «رؤيَةُ الريحاني الإصلاحية»
- **د. إيمان درنيْقة:** «المعاهداتُ الدولية والإصلاحُ السياسي»

الجلسة الثانية: ٦:٠٠ – ٧:٠٠

- **د. زَهيدة درويش جبُور:** «فجرُ التأسيس – السلطان عبدالعزيز»
- **د. غالب غانم:** «لقاءُ الحقيقة والحرية»
- **د. أمين ألبرت الريحاني:** «ملامحُ الوُجوه ومعالِمُ الطبيعة»

يدير اللقاءَ مديرُ «مركز التراث»: **الشاعر هنري زغيب**

لوحة أمين الريحاني
مائية بريشة مصطفى فروخ (١٩٣٨)
(بإذن خاص من متحف الريحاني-الفريكة)

(٢/٢)



ندوة

مئوية «ملوك العرب» في «اللبنانية الأميركية»

في سلسلة اللقاءات التي تجريها «الجامعة اللبنانية الأميركية» (LAU) لمناسبة مئويتها هذا العام، نظّم «مركز التراث اللبناني» فيها ندوة عن كتاب أمين الريحاني «ملوك العرب» لمناسبة مرور 100 عام على صدوره.

وافتتح الندوة مدير المركز الشاعر هنري زغيب، حيث قرأ رسالة من رئيسة «مؤسسة أمين الريحاني» مي الريحاني إلى رئيس الجامعة الدكتور ميشال معوّض.

وكانت المداخلة الأولى للوزير السابق رشيد درباس حول «العرب قبل الملوك» اقترح من خلالها «تجزئة فصول «ملوك العرب» إلى كتب مستقلة ليسهل تداولها».

المداخلة الثانية كانت للدكتورة أسمهان عيد الياس حول «رؤية الريحاني الإصلاحية» حيث أشارت إلى أنّ «القومية هي الفكرة المركزية في الكتاب وفي رؤية الريحاني الإصلاحية، وتقوم على محاربة الطائفية وتقديس العروبة».

من جهتها، تناولت الدكتورة إيمان درنيقة المعاهدات الدولية والإصلاح السياسي، مؤكدة أنّ «الريحاني أدرك أهمية الأمة العربية، وكان هدفه الإعلاء من عزّة العرب ووحدتهم».

أمّا الدكتورة زهيدة درويش جبور فتناولت فصل مؤسس المملكة عبد العزيز بن سعود، وقالت «نعترف للريحاني بكبير الفضل في مساهمته الفعّالة في التعريف بالجزيرة العربية وما شهدته من أحداث تاريخية من خلال كتاب يتمتع بالراهنية مهما طال عليه الزمن».

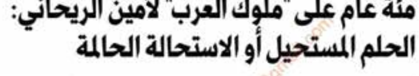
وتولّى الدكتور غالب غانم لقاء الحقيقة والحرية في الكتاب، مشيراً إلى أنّه «كان كشفاً عن حقيقة وحرية قائمتين في واقع الجزيرة العربية، وبحثاً عن حقيقة وحرية منشودتين في خاطر أمين الريحاني».

وتخلّل الندوة عرض الأغنية المصوّرة «أنا الشرق» لأمين الريحاني من كتابه «هتاف الأودية»، من لحن وجدي شيّا وغناء لور عبس.

وأعلن هنري زغيب عن ندوة الشهر المقبل في 13 أيار، وهي سهرة زجل لإعادة هذا الفن إلى الأذهان بعدما وضعته منظمة «اليونسكو» على لائحة التراث العالمي.

النهار
91 سنة





مئة عام على "ملوك العرب" لأمين الريحاني: الحلم المستحيل أو الاستحالة الحالمة







Ameen Rihani Organization
6 Montgomery Village Avenue
Suite 330
Gaithersburg, MD 20879
Tel: 301.562.1100
Fax: 301.562.1161

الإثنين الواقع في 15 نيسان 2024

حضرة الدكتور ميشال معوض، رئيس الجامعة اللبنانية الأميركية المحترم
بيروت

تحية صادقة، وبعد

يسرّ مؤسسة أمين الريحاني في الولايات المتحدة الأميركية، أن تتوجه إليكم لتهنئتكم بمناسبتين قَيِّمتَين:
أوّلهما: العيد المئوي لجامعتكم العريقة التي تشكل اليوم صرحًا علميًّا عريقًا يفخر به لبنان بكبيره وصغيره، كما يفخر به العالمُ العربي بقَضِّه وقضيضه

وثانيهما: الذكرى المئوية لكتاب أمين الريحاني **ملوك العرب،** التحفة الأدبيّة اللبنانيّة والعربيّة التي يفخرُ بها, لبنان كما يفخر بها أيضًا العالمُ العربي

ولقد أحسنت الجامعة أن كلّفت مركزَ التراث اللبناني فيها، وتحديدًا مديرَ المركز الأستاذ الشاعرهنري زغيب، بتنظيم هذا الاحتفال الآكاديمي المميّز، والدعوة إلى مؤتمرعلمي يُلقي الضوء على أول دورعربي كبير للبنان الكبير باتجاه العرب ووحدة كلمتهم ومستقبلهم الزاهر

إننا نتوجه إلى الجامعة اللبنانية الأميركية في بيروت، كما نتوجه إلى مركزالتراث اللبناني فيها لمشاركتهما بمئوية ملوك العرب، وهي لفتةٌ بارزةٌ مستلّةٌ من قلب لبنان إلى قلوب العرب أجمعين وذلك منذ مئة عام تمامًا

فباسم أمين الريحاني نسمح لأنفسنا بان نهتف قائلين: أدام الله الجامعة اللبنانية مركز التراث اللبناني فيها ليبقيا المشعلَ والقدوةَ والمثال، لصَون الأميركية، وأدام لبنان بتراثه العريق

مي الريحاني
رئيسة مؤسسة أمين الريحاني
في الولايات المتحدة الأميركيّة

I renounce falsehood, whatsoever be the guise it assumes, and I embrace truth, wheresoever I find it.
Ameen Rihani

رسالة مي الريحاني إلى رئيس الجامعة...

بيروت في ١٥ نيسان ٢٠٢٤

السيدة مي الريحاني

رئيسة «مؤَسسة أَمين الريحاني» في الولايات المتحدة الأميركية

أَودُّ أَولاً أَن أَشكركِ على رسالتكِ النبيلة التي تهنِّئيننا فيها بمئوية الجامعة، وتنوِّهين بمئوية كتاب «ملوك العرب» لأَمين الريحاني.

وأَودُّ ثانيًا أَن أَقدِّرَ ثقتَكِ بالجامعة وبـ«مركز التراث اللبناني» فيها لمناسبة تنظيمه مؤْتمرًا خاصًا بأَمين الريحاني وكتابه الرؤْيوي «ملوك العرب».

وأَودُّ ثالثًا أَن أُؤَكدَ لكِ، ولجميع المهتمِّين من مستواكِ العالي، أَنَّ جامعتَنا التي تتفرَّد بين جميع جامعات لبنان بإِنشائها مركزًا خاصًا بإِحياء تراث لبنان، إِنما تؤْمن بأَن أَجيالنا الجديدة لن تجد بوصلة الوطن إِلَّا حين تَطَّلعُ على ما فيه من عطايا حضارية، وعلى مَن فيه من أَعلام حملوا لبنان في قلوبهم وأَقلامهم وزرعوه أَرزًا مباركًا في أَرضه وأَينما حلوا في أَوطان العالَم.

وها هي الجامعة، منذ أَنشـأَتْ «المركز» قبل اثنتين عشرين سنة (٢٠٠٢)، ما زالت تدعم نشاطه كي يواصل رسالته التراثية والحضارية، على منبره أَو من خلال منشوراته، وفي مجلته «مرايا التراث»، إِيمانًا منَّا بأَن الجامعة ليست صالةً ومنبرَ محاضرات وطلابًا ينهلُون العلومَ ويتخرَّجون، بل هي واحةُ تَفاعُل ثقافي حضاري تراثي يغذِّي أَجيالنا الجديدة بالتعليم العالي والفكر العالي كي يتخرَّجوا لا حاملين فقط شهاداتهم الجامعية، بل حاملين معهم إِرثًا يحملون شُعلته من جيلهم إِلى الجيل التالي، فتتواصلُ بهم رسالةُ لبنان الحضارية.

إِنّ مهمَّتَنا في الجامعة لا أَن نُخرِّج متعلِّمين وحسْب، بل مثقفين في كل ميدان معرفي.

وما هذا المؤْتمر عن أَمين الريحاني إِلاَّ الضوء الآخر على أَضواء لبنان التي يتعهَّد «مركزُ التراث اللبناني» تشكيلها أَمام جمهور الجامعة طلاَّبًا وروادًا ومتابعين.

أَكرِّر شُكري لكِ، وأَتمنى لـ«مؤَسسة أَمين الريحاني»، في لبنان وفي الولايات المتحدة الأَميركية، دوام الازدهار كي تُكْمل رسالة الريحاني الكبير عَلَمًا خالدًا من أَعلام لبنان الفكر المُشِعّ على العالَم.

بكل احترام

د. ميشال معوّض

رئيس الجامعة اللبنانية الأَميركية

رشيد درباس:
العرب قبل «الملوك»



جارُ الرضا الشاعر هنري زغيب الذي «يُهَمْشِر» الأدب والشعر (يرفع الكلفة بينهما وبين الناس) كلَّفني أن يكون لي دلو في هذا النمير المنتسب إلى «الفريكة»، فَرَقَّاني إلى هذه السدَّة الموقرة في الجامعة التي تسقي العطاش وتفتح الصدر للواردين، وقال لي بلهجة الأستاذ المؤَدِّب: «عليك أن تكون أمينًا على الريحان، وأن تضغط بدقائقَ قليلةٍ ذلك العرف الفائح، بل عليك أن تجعل من كل حرف حُقًّا حافظًا، فهذا حَقُّ قرنٍ من الزمن، نام في حوالى ألف صفحة، فلما اكتملت مئته، فغمت السطور بما حوَت في إطار مئوية الجامعة، حيث دعا إلى هذا اللقاء «مركز التراث اللبناني» لاستذكار أمين الريحاني.

لم تكن لي فرصة للاعتراض لكنَّ لي رخصةَ التحفُّظ، لأن اللقاء أكاديمي، من عنوانه ومكانه والمشاركين، وأنا لا أنتمي إلى الأكاديمية ولا عاقرتُ البحث والتدريس. فما أنا إلا عاشق، كما يقول أبو الطيب، وكل عاشق أعقُّ صَفِيِّه لائمه، فلا تلوموني إذا خرجتُ عن القواعد، وتركت الزمام لسَنِّ القلم لكي يَصول في حدائق المشاعر، ويتوه في صحراء العرب.

لِماذا "العرب قبل الملوك"؟

سأَلني الأُستاذ هنري عن العنوان الذي أَعطيه لمداخلتي فقلتُ «العرب قبل الملوك». ولما استخرجتُ الكتاب من رفَّي المكتبة والذاكرة تيقَّنتُ أنني مُحِقٌّ بهذا الاختيار، لأن أمين الريحاني ذهب إلى جزيرة العرب ليستطلع أحوالها من ملوكها، فاكتشف أن معظمهم لا يعرفون أبعد من حدود مَشْيخَاتهم، وليس منهم من سرح في ربوع العرب كلها، وليس فيهم من يستطيع أن يقول: «أعرف بلاد العرب وسكانها وحكامها، وقبائلها،

وأحوالها». لكنه استثنى الملك حسين (الشريف حسين بن علي) الذي كان أكثرهم علمًا بالسكان والأحوال من بدو وحضر، ويعرف نزعاتهم وعداواتهم وسياسة أمرائهم لأن مركزه المشرَّف بالكعبة التي يحجها المسلمون يساعده على ذلك. أما الإمام يحيى فهو العالم الأكبر بأمراء العرب في أقطار اليمن وحضرموت وعسير وبعض الحجاز، لكنه يجهل البلاد النجدية وسلطانها، أو لعله لم يكن يبالي بذلك.

وعلى ما تقدم، عاد أمين الريحاني من رحلاته، بل من مغامراته المتقشفة والخطرة، وعانى ما عاناه من تعب ومرض، بعد أن طرح شباك الشغف في الخلجان والبدو والحضر، ليعود لنا بهذه الحصيلة الغنية التي يرجع له الفضل في صيدها لأنه راح يستقصي ويصول ويجول في سبيل المعرفة الميدانية فكان أمر العرب بالنسبة له، قبل الملوك، لأن كثرتهم لم تكن تكترث لما يجري في جوارها.

رحلات القلب الشجاع

أعود الآن إلى ملك الملوك، أي مؤلف الملوك، الذي يبدأ كتابه بالقول: «إن البغض والخوف تَوْأَما الجهل، فكأنه يعرِّفنا على نفسه بأنه رجل نقي النفس من الشحناء، وله القلب الشجاع الذي طاف به في المجاهل وألجأه إلى الخيم وأسلمه لهجير الصحراء والعواصف الرملية، كي يخرج من الجهل إلى العلم، ومن الخرافة إلى المعرفة. يقول: «نشأت على معرفة فرنسا «معرفة مُطَوَّسة» (نسبة إلى الطاووس) وكنت على إلمام بالفرنسية والعربية، وذهبت إلى نيويورك، فرشفت الجام تلو الجام من العلوم المشوبة، ومنها أشياء من الجهل المتلألئ» (...). وغنمتُ في غزواتي الكتبَ الانكليزية كتابًا استوقفني ظاهره الفخم، للمؤلف «واشنطن إيرفينغ» عنوانه «الألهمبرا». فلما قرأتُه عرفت انه يتحدث عن «الحمراء» لؤلؤة تاج العرب في الأندلس، وأحسست أنه مازج عقليَّتي الفرنسية الأميركية بشيء من الخيال الشرقي. وحدثت نفسي: آه أيتها البلاد العربية، لم يشأ اللّه ان أجهلك حياتي كلها فبعث إليَّ، وأنا بعيد عنكِ، إنكليزيًا يعرِّفني على رسولك ويصف لي محاسن أبنائك (...). رافقت العرب في خروجهم على الترك، وذهبت إلى الأندلس فسمعت أسماء تنادي اسم القومية من أجل الوطن، وتدعوني إلى مهبط الوحي والنبوة».

في حضرة الشريف حسين

يشيد الريحاني بالحفاوة التي استقبله فيها الشريف حسين، ويحاول أن يصفه من داخله قبل المظهر: علاوة على وجهه الحسن والشكل الأنيق والمَهيب، هو شديدُ البأْس ثابتُ الجنان، راوغ الأتراك وهادنهم واشتبك معهم حين ضربوا مكة والكعبة بالمدفعية. ويضيف أن الشريف حسين كان يؤمن بمبدأ التبادل بالمحامد والموجبات، لكنه كان يتمتع بمكر ملحوظ، وكان غالبًا ما يذهب إلى التورية ويتوسل الفكاهة ليُعرب عن رأيه السياسي. هكذا جلب ضبًّا إلى مجلس كان فيه القنصل البريطاني، وراح يحدثه عن أن سلاح هذا الحيوان ودرعه وسيفه، هو ذنَبه، والمثل يقول: «أعقد من ذنب الضب». ثم استطرد قائلاً للقنصل: «الضب غير الحرباء، وهو صغير لا شرَّ فيه يتَّقى، ولا خير يُرجى». خرج القنصل مسرورًا من طلاوة الجلسة وقال للريحاني: «هذه ألطف جلسة أعقدها مع جلالته». لكنه أدرك لاحقًا كم كانت المعاناة من فك ألغاز الديوان الهاشمي وكشْف الستار عن رموزه.

يفرد الريحاني فصلاً يشرح فيه خوف الملك حسين من العلْم، وخطرَه على أبناء الحجاز، فمنعهم من السفر إلى الخارج لتلَقّي العلوم الحديثة خشية زعزعة الإيمان. ثم ينتقل بعدها إلى الخلاف بينه وبين ابنه الأمير فيصل الذي أحبَّه أهل سوريا وفضَّلوه على أبيه لِما كان يتمتع به الابن من فكر منفتح بعكس والده المحافظ.

عاش الشريف حسين في كنف السلطان العثماني حوالى سبع عشرة سنة وتبوَّأَ المناصب. لكنه عندما أعلن منشور الاستقلال في ١٩١٦/٦/٢٧ صبَّ جام غضبه على الجنود الأتراك في دولة «الاتحاد والترقي»، وأدائهم بالخروج عن الدين والزندقة، واحتج على إعدام الأحرار في لبنان وسوريا، فاعتُبر ذلك منشورَ استقلال العرب وأساس الوحدة العربية. وهذا ما دعا الريحاني للتساؤل في آخر الفصل: «ما لنا نحن العرب غير المسلمين في نهضة أساسها سورة البقرة؟ ثم يستطرد بأن سيرة الملك وحاله من أساليب الدهاء تدل على أنه اتخذ الدين والعاطفة الدينية في العرب سبلاً لتحقيق المقاصد. ويستخلص من كل هذا بأن ملوك العرب لا يُفلحون ولا يَفوزون فوزًا تُخْشى نتائجه وتدوم ما داموا يتخذون الطائفية وسيلة لتحقيق سيادته. والملك حسين في فوزه وفي خيبته برهان شريف على هذا.

في رحاب اليمَن

هذه النتيجة التي توصل إليها الريحاني في زيارة الحجاز تعززت لديه في سياحته الدراسي إلى بلاد اليمن التي بدأها من عدن حيث استحصل

على كتاب توصية من القاضي عبدالله القرشي الذي يصف نفسه بالمملوك لجلالة الإمام، مرورًا بِلَحْج والحواشبة حيث أكرمه السلطان. لكنه لما هم مع رفيقه الشاعر قسطنطين يني صباحًا بالمغادرة سمِعَا أصوات الأواني الفخارية تكسر على باحة إقامتهما. أسرَعا فارَّيْن لكن حرس السلطان لاحقهما بإطلاق النار، فلما توقفا عَلِما بأن زوجة السلطان ترسل لهما الإفطار والعسل فقال الريحاني عنها: «يا فريدة الزمان لأنت السيف في إكرام الضيف: تضربين من أجلنا الكسَل وتُلحقيننا بالعسل».

من طرائف تلك الرحلة اليمنية أن كتاب القرشي أوصى بـ«السيَّد أمين» خيرًا. فلما قرأ قائد الجيوش علي بن الوزير كلمة «سيِّد» ظن أنه من العائلة الشريفة فسأله: «هل أنت حسني أم حسيني». هنا يقول أمين: «غيرتُ ديني في خمسِ لحظات خمسَ مرات بين الحسن والحسين ومارون وداروِين إلى أن هداني الله إلى بيت من الشعر لصديقي الشيخ فؤاد الخطِيب: «ولكل ربع من ربوعك حرمةٌ... وهوى تغلغل في صميم فؤادي»، مردفًا أنه مثلهم من سلالة قحطان ودينه هو العروبة، فاستحسن بن الوزير جوابه.

وفي مجلس ابن الوزير ذاك، علم الريحاني أن ساعة «القات» عند اليمنيين كساعة الشاي عند الانكليز، وأن بعض وجهاء البلد دخلوا إلى المجلس ومعهم حزمة من القات، وقالوا إن تلاوة آية تُسْقط الطائرات كالذباب، فأفحم قسطنطين وبادر إلى القات باليقين. ومن الطرائف أيضًا أن الإمام يحيى، وهو لم يكن يكف عن تخزين القات، طلب من قسطنطين يني نظم قصيدة في هجاء القات، فنظم شعرًا طريفًا وجميلاً كاد يدفع حياته ثمنًا له عندما حاول أحد زعماء القبائل قتْلَه، لكن الإمام يحيى حماه ورَدَّ عليه بقصيدة أخرى في مدح القات وإظهار فوائده.

أمير الجيوش ابن الوزير

قبل الاسترسال في الحديث عن لقاء الإمام يحيى، نعود إلى أمير جيوش آخر هو عبدالله بن الوزير الذي أبدى امتعاضه من الملك فيصل لأنه، بدلاً من إصلاح الحال بين أبيه وابن سعود، ذهب ليبحث عن ملِك لدى الأجانب، وأضاف: «العرب كذابون وساقطون ويحبون المال». بعد هذا قال له مرافقه: «الناس مع الإمام اليوم، ومع أعدائه غدًا. والسبب في ذلك: المال و«الجهل المسلَّح». أما وصولهما لمقابلة الإمام، فاستغرق أيامًا من الوجل والشك والقلق، فلمَّا مَثُلا أمامه قال له الأمين: «أنا أخو العرب وأُحب العرب وأتمنى توافقهم». لكنه راح يتساءل في مجلسه إذا

كان الإمام مثل أمراء جيشه، أم هو كريم لطيف متسامح كالشريف حسين؟ وهل يشف ظاهره عن باطنه أم هو من المتيقّن ويخدع بما يكنُّ بما لا تُفْصح عنه الوجوه؟

ومن صفات مجلس الإمام أن صنعاء تهتم بالعظمة والمحسوبية أكثر مما وجده بالحجاز. قال الريحاني «إنني أدعو الى وحدة العرب»، فأجابه الإمام «بل أنا مع وحدة المسلمين». فأَسِفَ على أمة عربية مجيدة ترفع المذهب على الكتاب، بل تجعل المذهب وسيلة الاستيلاء والسيادة.

ومن فكاهات مجلس الإمام أنه، كلما دخل زائر، عرفه عنهما قائلاً: «قسطنطين وأمين مسيحيان من لبنان»، فعلق قائلاً: «مولانا شغوف بالسجَع» فأجاب الإمام: «أنتم السجع نفسه». وفأجأه الإمام بعمْق علمه الشرعي وحبَّه للشعر وقدرته على نظمه، إضافة إلى سعة اطلاعه على السياسة الأوروبية. كما كان يقرأ الجرائد المصرية بانتظام، وكان في الوقت نفسه حذرًا من الانفتاح على العرب فيتحصَّن بالعزلة، وإن كان بعض الأعيان يرغبون في فتح كوى صغيرة في سورها يطل منها اليمن على العالم فيستنشق هواءه دون أن يعرض نفسه لرياحه. ورغم هذا فهو لا يعادي الانكليز، بحسب قوله، لأنه كلَّف مندوبه في اليمن القاضي القرشي لمفاوضتهم في حين كان الانكليز يديرون مفاوضات مستمرة مع الشريف حسين والإمام يحيى الزيدي والإمام الادريسي الشافعي وابن سعود في آن معًا.

في بلاط صنعاء

وصل الريحاني إلى صنعاء يتملّكُهُ هاجس ما نبهه إليه الإنكليز في صنعاء بأن الزيود متعصبون جدًا. لكنه وجدهم متشددين في العقيدة، متساهلين في المعاملة، علْمًا أن الإمامة كانت تتنقل بين الحسنيين والحسينيين، وهي مغايرة للإثني عشرية، فإمامها حاضر وليس غائبًا، لكنه يتبدل بالوارثة أو بحد السَيف حيث كان المتحاربون يلجأون إلى أعداء الأعداء للاستقواء بهم، وهي عادة عند العرب لم تتغيَّر من عهد الأمويين في الأندلس حتى اليوم.

اللقاء الأول بالسلطان عبدالعزيز

كانت خطتي لهذه المداخلة تقوم على تقديم اثنَين آخرين من ملوك العرب: عبد العزيز آل سعود والشيخ أحمد الجابر الصباح. فلما وصلتُ

إلى الملك عبد العزيز وجدت الوقت قد سال مني. علمًا أن العزيزة الدكتورة زهيدة درويش جبور خصصت مداخلتها للحديث عن السلطان عبد العزيز وفجر التأسيس، فلم يعد لي متسع لمزيد. لذا آثرت التوقف عند ما قاله الريحاني عن لقائه الأول بالسلطان ابن سعود، إنه بعد مقابلته السلطان عبد العزيز قابل أمراء العرب كلهم فما وجد فيهم أكبر من هذا الرجل، فهو كبير في مصافحته وفي ابتسامته وفي صراحته إذ يفصح في أول جلسة عن فكره.

جورج أنطونيوس ومارون عبود

وإنني ما كدت أتعرف على ملوك العرب مجددًا حتى ظهر أمامي ابنُ دير القمر خريج جامعة كامبردج بالهندسة: جورج حبيب أنطونيوس مؤلف «يقظة العرب» بالإنكليزية The Arab Awakening، الكتاب الذي يراه نبيه أمين فارس في مقدمته «تاريخًا للقومية العربية التي يعزو أنطونيوس يقظتها إلى حكْم محمد علي باشا والي مصر كوليدة الاحتكاك والتأثر بالغرب وخاصة نشاط المبشِّرين البروتستانت من بريطانيا والولايات المتحدة». أما وجه التوافق بين الريحاني وأنطونيوس، فله امتدادات مع مارون عبود الذي تجلَّت عروبته بما فصَّله وتعمَّق فيه عن أدباء العرب وشعرائهم. كأني بثلاثتهم طليعة استثنائية مستشرفة وشريفة، تعتز بنصرانيّتها وتتمسك بانتمائها، قادت رعيلاً كبيرًا من الطوائف كرسل في دروب التنوير في القرنين الماضيين، وأكدوا على أن الشجرة ذات غصون، والعروبة ذات شجون، والسماء ذات أبراج، وكلٌّ في فلك يسبحون.

اقتراح لـ"مركز التراث اللبناني"

ولن أنهي بل أن أقترح على «مركز التراث اللبناني» وإدارة الجامعة الموقرة القيامَ بتجزئة فصول «ملوك العرب» إلى كتب مستقلة ليَسْهُلَ تناولها على قراء العربية تعميمًا لفائدة هذا المؤلَّف الفذ الذي حبَّره الرجل الشوَّاف أمين الريحاني، والشَوف لغة هو الجلاء، والمشوف هو المجلو. فالريحاني جلا بالبصر والبصيرة والصبر والحكنة حالةَ جزيرة العرب، يدفعه إلى ذلك حبُّ العرب قبل ملوكهم، فلما قاربهم اكتملَت أمامه هذه الصورة التي رسمها قبل مئة عام، وتستحق أن تجزَّأ إلى صوَر كثيرة تُخْرجها من الهجوع في المكتبات إلى التداول بين القراء.

د. أسمهان عيد الياس:
رؤية الريحاني الإصلاحيّة في «ملوك العرب»



إنه كتابٍ موسوعي لرائد من رواد النهضة العربيّة الحديثة والمعاصرة، همّه إصلاح البلاد العربيّة، ولَمُّ شملها بدعوة الملوك إلى التفاهم والوحدة. وفي سبيل هذا الهدف تكبّد مشقّات كثيرة، فكان رائدًا مقدامًا شجاعًا، لا يخاف ولا يهاب الصعاب، يقطع صحراء تلو أخرى، يتعرض للمرض، والجوع ولا ييأس، بل أكمل رسالته بثباتٍ قلّ مثيله. فمن أين أتته هاتان العزيمة والحماسة للانخراط في رحلة تجمعه بملوك العرب لمناقشة قضايا ترتبط بمسائل تخصّ حياتهم ومجتمعاتهم؟

يَبعث على الحيرة أنّه مسيحيٌّ سمع الكثير عن النصارى وهو يتجوَّل، والكلام فيه غلوٌّ وغموض وسطحيّة. وبرغم ذلك لم يتراجع ولم يتردد، فسافر وتنقَّل وحاور، مبرهنًا عن اقتناع بعروبة حضاريّة، محورُها حياة مشتركة، يصونها العقل والانفتاح والبحث عن الحقيقة والإصلاح، بغية وضع حدٍ للتعصب والتخلف.

هكذا أمين الريحاني (١٨٧٦–١٩٤٠) عاش سنة ١٩٢٢ تجرِبة فريدة من نوعها جمع مراحلها في هذا الكتاب الضخم. ميزة تلك التجربة أنها حيّة، لا تعتمد على الروايات والتأويلات بل على حياة معيشة لها إيقاعها ورؤياها، تفهم الواقع وتعمل على إحداث تحولاتٍ في فضائه السياسي والديني والاجتماعي. فكيف تجلت جهوده الإصلاحيّة قبل مئة عام؟ هل حقق نجاحات؟ وهل ما نواجهه اليوم من تجارب له ارتباط بأفكار الريحاني الرؤيويّة؟

١. الكتاب

يتألف كتاب «ملوك العرب»[١] من مقدمة وجزءين وخاتمة، في نحو ٦٠٠ صفحة. وهو سِفْرٌ قيِّم تمتزج فيه السياسة بالاجتماع. يتخلله وصف للبلاد العربيّة وعادات أهلها وتقاليدهم، وملوكهم السبعة: حسين ملك الحجاز، يحيى إمام اليمن، السيد الإدريسي حاكم عسير، عبد العزيز سلطان نجد، أحمد الجابر الصباح أمير الكويت، آل خليفة في البحرين، الشيخ خزعل خان أمير عربستان، وفيصل بن الحسين في العراق. وقال الريحاني إنّ «جميع هؤلاء ملوكٌ وإن اختلفت ألقابهم، كلّهم مستقلّون بعضهم عن بعض، ويجهل شخصيًّا بعضهم بعضًا، باستثناء الملك حسين وابنه فيصل» (١/١٨ ص ٢١٧٤).

سأعالج «رؤيّة الريحاني الإصلاحيّة» من خلال حواره مع ثلاثة منهم: حسين ملك الحجاز[٢]، يحيى ملك اليمن[٣]، والسلطان عبد العزيز ملك نجد[٤]. فما الإصلاح الذي كان يَنْشُدُه الريحاني من خلال رحلته إلى تلك البلاد العربيّة؟

٢. معنى الإصلاح:

الإصلاح لغةً: إِحداثُ تغييرٍ في الشكل او الحالة، أو إدخالُ أسلوب عمل أفضل. والإصلاح هو ضدٍ الفساد. والإصلاح الذي يقصده الريحاني هو إيقاظ العرب، وتوعيتهم على الخلل الحاصل في مجتمعاتهم، والأخطار التي تحيط بهم، ودعوة ملوكهم إلى الاتحاد في سبيل استقلال بلادهم وتطورها وارتقائها، ما يعني أن الإصلاح يبدأ من رأس الهرم انطلاقًا من الإصلاح السياسي، لأنّ السياسة والتخطيط أساس كل وطن مزدهر وثابت الأركان. والوطن الذي يتولى شؤونه سياسيون ناجحون تنتظم فيه شؤونه

---

١) الريحاني، أمين. المؤلفات العربيّة الكاملة، تقديم وتحقيق أ. د. أمين البرت الريحاني، المجلد الأول، مكتبة لبنان ناشرون، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠١٦.

٢) أهم مدن الحجاز: في الداخل: مكّة والمدينة والطائف. وعلى البحر: جدّة ويَنبع والوجه. مذهبه: السنّة: حنفيّون وشوافع. والشيعة: جعفريّون وزيدّون. (الريحاني، أمين. المؤلفات العربيّة الكاملة، تقديم وتحقيق أ. د. أمين ألبرت الريحاني المجلد الأول، بيروت – لبنان، ط١، ٢٠١٦، ص٢١٨٣).

٣) أهم مدنه: صنعاء وذمار ويريم وإب وتعز وزبيد وبيت الفقيه ومناخة. مذهبه: الزيديّة والإسماعيليّة، والسُنة (شوافع) واليهود. (م. ن. ص ٢٢٢٣).

٤) أهم مدنه: الرياض وبريدة وعنيزة وحايل وثرمدة وشقرا والمجمعَة وحُريملا والهفوت والقطيف. مذاهبها: الوهّابيّة والشيعة وبعض السنّة.(م. ن. ص ٢٤٨١).

الاجتماعيّة والتربويّة والاقتصاديّة (منى الدسوقي، «التطور والإصلاح عند الريحاني»، ص ٢٦٩).

٣ مبادئ الإصلاح السياسي

تأثر الريحاني بمبادئ الثورة الفرنسيّة (حريّة، مساواة، أُخُوَّة). اعتقد أنّ التطور ناموس الحياة في كل صورها، وانجذب نحو مبادئ الديموقراطية التي كان يرتكز عليها الحكم في الولايات المتحدة الأميركيّة[٥]. هكذا شدد على مبدإ التساهل وعدم التعصب ودعا إلى التسامح ونبذ التعصب: «التساهل نَجَمَ عن التعصب وهاتان كلمتان ضدان ... لولا الأول لما كان الثاني. فالتعصب ولّد التساهل والتساهل ولّدَ السلام، والسلام ولّد النجاح، والنجاح ولّد السعادة»[٦]. ودعا إلى حكم مدنيّ مبنيّ على مبدإ فصل الدين عن الدولة، ملاحظًا أنّ «الدين في السياسة لا يأتي بغير الفساد والخراب والموت، لذا علينا إبعاده عن السياسة وإبعاد السياسة عنه»[٧]. ورأى أنْ لا خلاص لأبناء قومه من حكْم الأجانب إلا بالاتحاد، ولا سبيل للاتحاد إلا باللجوء إلى الإخاء المؤسس على الاحترام المتبادل. وهذه المبادئ تتمظهر بشكل جلي في دعوة الريحاني إلى القوميّة العربيّ، كما جاء مقدمة «ملوك العرب»: «رافقتُ العرب في خروجهم على الترك أثناء الحرب... فسمعت أصواتًا تناديني باسم القوميّة ومن أجل الوطن، وتدعوني إلى مهبط الوحي والنبوة» (ص ٢١٧٢و٢١٧٣).

٤. ما القوميّة العربيّة؟ وعلامَ تقوم؟

القومية هي الفكرة المركزية في كتاب «ملوك العرب» وفي رؤية الريحاني الإصلاحية. تقوم على محاربة الطائفيّة وتقديس العروبة. لذا حارب الطائفيّة داعيًا إلى الوحدة العربيّة وإلى توحيد الصفوف. فالوحدة عنده مصدر قوة العرب وعماد مستقبلهم ومحور نضالهم، فلا حياة للشعوب الصغيرة إلاَّ بالاتحاد والتعاون والتضامن. ويرى أن الأمة العربيّة تمتلك من هذه المقومات الرصيدَ الكبير، إذ هي تتقارب في اللغة الواحدة والآداب الواحدة والعادات والتقاليد الواحدة، إلى جانب الأحوال

---

٥) الدسوقي، منى. م. س. ص ٢٩١.

٦) الدسوقي، منى. م. س. ص ٢٩٧.

٧) الدسوقي، منى، م. س. ص ٣١٥.

السياسيّة الواحدة: «أليست لغتنا واحدة؟ أليست آدابنا واحدة؟ أليست عاداتنا وتقاليدنا واحدة؟ أليست مواردنا الروحيّة، وإن تعددت الطرق اليها، واحدة؟... فإذا كان إلهنا واحدًا، ولساننا واحدًا، وبلادنا في سهولها وجبالها وصحاريها واحدة، ومصائبنا السياسيّة كلها واحدة، أفلا ينبغي أن يكون وطننا واحدًا لا تقسيم فيه ولا تجزئة؟ وعرض لمساوئ التقسيم والتفريق، فرأى أنْ «لا حياة لنا إذا تقسمنا وتجزأنا أحزابًا وطوائف. ففي انقسامنا واعتزالنا بعضنا بعضًا موت الوطنيّة، وباب لاحتلال أجنبي لا حدّ له ولا شروط تقيِّده»[٨].

الخطوة الأولى في تثبيت القوميّة العربيّة: السعي إلى تعرُّف ملوك العرب بعضهم ببعض، وتفاهمهم من خلال مؤتمرات، ثم عقد معاهدات واتفاقات في ما بينهم.

سعى الريحاني إلى نشر هذه الحقيقة وتثبيتها في أذهان العرب، وراح يطوف في البلاد العربيّة من قطر إلى قطر ومن حاكم إلى حاكم، شارحًا وموضحًا وساعيًا إلى التقارب والتعاون والتفاهم بين أبناء الأمة العربيّة الواحدة، يدفعه إلى ذلك حبُّه للعرب، ودعوته إلى القومية العربية. قال في لقائه الإمام يحيى حاكم اليمن: «إني جئت من وراء البحار وأقاصي الديار، عملاً بعاطفة لا قوة للقوميّة بسواها، ولا عز للأمم بدونها. فإننا مهما استرسلنا في حب الإنسانيّة المطلق لا ننسى إذا كنا منصفين حب الوطن الخاصّ. وهذا الحب يحملني اليوم إلى السياحة في البلاد العربيّة. فإني، وإن كان لبنان وطني الصغير وسوريا وطني الكبير، أنتسب إلى البلاد العربيّة، وطني الأكبر... وإني وإن كانت المسيحيّة ديني ودين أجدادي أَدين بدين كلّ من أقام حقًا وأزهق باطلاً... بل أدين بدين كل من قال بالوحدة العربيّة وتجديد مجد العرب وسعى في هذا السبيل سعيًا شريفًا خالصًا لوجه الله. فمن أعزَّ العرب أعزَّ يا مولاي الإسلام» (١٧٣/١ ص٢٢٦٠). واستطرد: «الجامعة القوميّة أصح وأسهل تحقيقًا من الجامعة الدينيّة. القوميّة تجمع الشعوب والدين يفرقهم. إننا نحن المسيحيين في سوريا، مثل العرب المسلمين، تجمعنا القوميّة، وهي التي حملتنا على التشرف بزيارتكم ولا يجمعنا الدين». (١٧٥/١ ص ٢٢٦١).

ولكن... هل من السهل أن يتفاهم ملوك العرب؟

ليس تفاهُمُهم بالأمر اليسير، بسبب عقبتَين: داخليّة تتعلق بملوك العرب، وخارجية تتعلق بمصالح الانكليز.

---

٨) الدسوقي، منى. «التطوُّر والإصلاح عند الريحاني»، بيروت، دار المشرق، ط١، ٢٠٠٤، ص ٣١٨.

أ) **العقبات الداخلية**

ولما كانت المذهبيّة والعصبيّة والجهل والتحارب الدائم عقبات داخليّة في وجه الوحدة العربيّة، اقترح الريحاني حلولاً لهذه الأدواء: منها تضامن أمراء العرب الكبار وتساهلهم، وتطبيق الحكْم المدني، ونشْر قيَم العدل والسلام، وتأليف حكومة منظمة عادلة، وبناء مدارس وطنيّة عامة، وشقّ طرق مواصلاتٍ حديثة. (٥٢٤/٢ ص ٢٧٦٦). لكنّه اعترف بأنّ هذه الإصلاحات تحتاج إلى «خمس وعشرين سنة في الأقل من بداءة هذه المؤسسات، فتزول بوساطتها العصبيّات القديمة لتحل محلّها روح القوميّة العربيّة الكبرى، وتنبذ السيادات المذهبيّة من الأحكام المدنيّة، فتقوم مقامها سيادة العقل والعدل والتساهل بل سيادة العقليّة العربيّة الجديدة التي، فوق كل مصلحة وفوق كل سياسة، ترفع مصلحة العرب المشتركة وسياسة العرب الموحّدة.» (٥٢٥/٢ ص ٢٧٦٦).

ب) **العقبات الخارجية**

العقبات الخارجية تتمثل في أطماع الدول الاجنبيّة وخصوصًا الانكليزيّة منها، وبسياستهم القائمة على ازدواجيّة القول والفعل: يطالبون بالإصلاح ولا يسعون له، يصادقون ولا يصْدقون. قال الشريف حسين: «أخذ الانكليز منا عهدًا بالقتال فأقمنا على العهد، وقطعوا لنا عهدًا بالاستقلال والوحدة العربيّة ولكنهم ويا للأسف نقضوا العهود». (٣٩/١ ص ٢١٨٩). لذا طالبهم الريحاني بتغيير سياستهم المتبعة في البلاد العربيّة: سياسة التسويف والمماطلة ونكث العهود، فهي لم تعد صالحة في البلاد العربيّة وفي الشرق عامة، وتضر بالاسم البريطاني وكل ما يرمز إليه من علْم وثقافة وكرم أخلاق. (٣٤٩/٢ ص ٢٦٦٩).

ولكن... لماذا لم تتحقق الوحدة العربيّة؟ قال الريحاني: «رأسُ البليّة تنين ذو أربعة رؤوس تجسمت في إنكلترا وفرنسا من خلال معاهدة سايكس – بيكو، ومن تولّى الزعامة من العرب، ثمّ العرب أنفسهم». (٩٤/١ ص ٢٢١٧).

٥. الإصلاح التربوي

يجد الريحاني الأهمية في فتح المدارس فيرى فيها دليل رقي الأمة وسياج الوطن وعز الملوك وشرف الأمة: «المدارس يا إخواني، المدارس. إنّ خلاصكم لفي المدارس... حبذا أولاد يساقون إلى المدارس ولا رجال يساقون إلى الحرب... علِّموا أولادكم اليوم تجدوا ضالتكم غدًا. إفتحوا

المدارس اليوم تفوزوا غدًا بالوحدة القوميّة وبالإستقلال الوطني التام»[٩]. وهو يرى أن «بليّة العرب الأولى هي في الجهل، والجهل عدو التضامن. والجهل المسلح عدو الرقي والعمران. لا يزال أكثر الأمراء جاهلين»، (٣٤٣/٢) (...) يلزم البلاد العربيّة في هذا الزمان عشرون سنة في الأقل من السلم الدائم المستمر فتؤسس في أثنائها المدارس وتنفتح لأبنائها الأذكياء أبواب العمل في الصناعة والزراعة وفي علوم الاقتصاد والإدارة». (٣٤٣/٢ ص ٢٦٦٧). ويؤكد أنّ «إصلاح الأمة الحقيقي الثابت هو في المدارس اللامذهبيّة وفي التربيّة الوطنيّة الجامعة، من خلال جيل جديد يتلقى العلم في مدارس وطنيّة عموميّة، ويتربى تربيّة جديدة ... عندئذٍ يقوم الوطن على أركانه كلها، وفي مقدمتها الوحدة القوميّة التي لا تتم بغير التفكك الطائفي»[١٠]. والأمة لا تصير راقية إلاّ بالمدارس الوطنية المجانيّة والإلزامية. وهو شجع على افتتاح المدارس الليليّة التي تعلم الأميّين من أبناء الشعب الألف باء، كما تعلمهم حب الوطن والنظافة والصدق. (دسوقي، منى. م. س. ص٣٥٣. ملوك العرب ٥١٩/٢ ص ٢٧٦٣).

وناشد الأدباء المحافظة على اللغة العربيّة: «إنّ في أكثر المدارس السوريّة روحًا أجنبيًا من شأنه أن يبعد السوريّين واللبنانيّين عن كل ما هو عربي غير اللسان. ولو استطاع لأبعدهم عن اللسان ولَقَتل فيهم حب اللغة العربيّة». (٢٩/١ ص٢١٧٨). ويتوجه إلى الإرساليات الأميركيّة المؤسسة في البلاد للتبشير المسيحي فينصح لها بأن تغير سياستها التربوية وتحصر ما لديها من أسباب البِرّ في الطبابة والتعليم المجرد، لأنّ المسلمين في هذه البلاد متمسِّكون بدينهم ولن يستبدلوه بالدين المسيحي». (دسوقي، منى. ص ٣٥٣).

وحارب التقاليد البالية والخرافات، داعيًا إلى الاقتداء بالأوروبيين: «إنّ العرب جنَوا على أنفسهم يوم أقفلت المدارس في البلاد، فعمّ الجهل وتَوارثه الأبناء. كنا الجانين على أنفسنا يوم قيَّدنا بالجهل أرواحنا وبالخرافات عقولنا. واليوم نرى العلم والمال بيد الأوروبيّين... فهلاَّ اقتدينا بهم؟» (٣٥٠/٢ ص ٢٦٧٠). الناموس الطبيعي سنة الحياة ويعلمنا التطور، فعلينا أن نقتبس العلوم من الأوروبيين ونصبر، فالعلْم بالاقتداء أسرع وأثبت. فهلاَّ اقتدينا بهم (الأوروبيين)، فنأخذ عنهم اليوم ثم نأخذ عنهم ونربي في الوقت نفسه روح القوميّة الشاملة؟ (٣٥٠/٢ ص ٢٦٧٠).

---

٩) دسوقي، منى. م. س. ص ٣٥١. (ملوك العرب، ٥٠٥/٢ ص ٢٧٥٦).

١٠) عيد، اسمهان. النزعة العلميّة والإصلاحية في المقتطف، بيروت، منشورات الجامعة اللبنانيّة، ٢٠١٤، ص ٣٢٩ و٣٣٠).

ولكن... هل إذا تمّ الإصلاح التربوي والتمسُّك بالعلم والتمدن يصطلح المجتمع العربي؟

٦. الإصلاح الاجتماعي

يرى الريحاني أن الإصلاح الاجتماعي، كما الإصلاح التربويً، يحتاج إلى وقت، ولا بد للمجتمع العربي من أن يرتقي تبعًا لقانون التطور: «إنّ الناموس الطبيعي الذي يعمل في عالَمَي الحيوان والنبات يعمل أيضًا في الإنسان وفي الاجتماع. لا بد للمجتمع العربي من النهوض، فالأمة المتألمة اليائسة تموت، أما الأمة المتألمة الناهضة الثابتة في نهوضها فتحيا». (٣٥١/٢ ص ٢٦٧٠ و٢٦٧١).

ولما كان الريحاني يسعى إلى نهوض المجتمع العربي، حاول رصد أمراضه كي يجد الدواء الناجع لإصلاحه، فلحظ أنّ المجتمع في الجزيرة العربية يفتقر إلى أدنى مقومات الحياة: «كأنّك في تلك البلاد تعود إلى القرن الثالث للهجرة، لا مدارس، لا جرائد، لا أدويّة، لا أطباء ولا مستشفيات». (٢١٩/١ ص ٢٢٨٣ و ٢٢٨٤).

وفي حضرة الإمام يحيى، قال: «الأمة تحتاج إلى ثياب تقيها من البرد، وإلى تعليم يقيها من الجهل والمرض، وإلى تجارة تقيها الفقر والشقاء، ولا تَنال ذلك الا بالسلْم والعلْم، وأن تكون البلاد مستقلة استقلالاً تامًا... أضعفتم أنفسكم بالحروب. أمَا حان الوقت لكم كي تجربوا طريقة أخرى، طريقة السلم والتفاهم والتحالف؟ (٢٢٢/١ ص ٢٢٨٦).

وفي حضرة السلطان عبد العزيز، إذ رأى جموع البدو الفقراء ينتظرون الصدقة أمام قصره في الرياض، طالبَهُ بأن يجد لهؤلاء عملاً بدل التصدُّق عليهم. قال: «كإصلاح آبار المياه في البلاد وأكثرها حاجة إلى إصلاح وترميم، وتعبيد الطرق للسيارات، فيأكلون خبزهم بعرق جبينهم وينفعون وينتفعون». (١١٠/٢ ص ٢٥٤٠).

هذا يعني أن الأمة تحتاج إلى اقتصاد قوي بالعمل في الزراعة والصناعة والتجارة. وهذا لا يتمّ إلا عند استتباب الأمن والسلْم وانتشار العلْم، والتحرر والاستقلال والوحدة بين الأمراء.

ولكن... إن تمَّت هذه الإصلاحات، هل تساهم في إصلاح المجتمع العربي بدون إصلاح الدين وهو أساس الحكم في البلاد العربيّة؟

٧. الإصلاح الديني

لاحظ الريحاني بيتَي شِعر فوق باب قصر السلطان عبد العزيز:

لسنا وإنْ كَرُمت أوائلُنا   يومًا على الأنساب نتكلُ

نَبنِي كما كانت أوائلُنا   تَبنِي ونفعَلُ مثلما فَعَلوا

(١١١/٢ ص ٢٥٤١ و ٢٥٤٢).

فقال: «ليس أشرف منه مبدأ، يا مولاي ولا أجمل منها حكمة. وإنّي أجلّكم وأحترم أهل نجد لأنهم يعملون بها. لكنّ البيت الثاني فيه خطل ومستنقعُ جراثيم اجتماعيّة وسياسيّة ودينيّة. ولا أظنّ أننا نستطيع نبذ الماضي كُلِّه. قال مولاي: نحن نبني كما كانت تبني الأوائل، ولكننا نفعل فوق ما فعلوا». قلتُ: أحسنتَ يا طويل العمر. أصلحوا البيت إذًا:

«نبني كما كانت أوائلنا   تبني ونفعلُ فَوقَ ما فَعَلوا»[١١].

(١١٢/٢ ص ٢٥٤٢).

وقبل أن يغادر دار السلطان سأله: «هل ترون من الواجب السياسي أن تحاربوا المشركين»؟ قال: «نحن أهل نجد لا نبغي شيئًا لا يحلله الدين. فاذا حلل الدين تكون السياسة محللة. وإذا عجزت السياسة فالحرب». ١١٤/٢ ص ٢٥٤٣).

نفهم من هذا الحوار أن الدين هو الأساس، والسياسة تابعة له لتنفيذ المقتضى حتى بالسلاح. وصَمتَ الرّيحاني بإزاء هذه الإشكاليّة، وآثر عدمَ الدخول في مسألة الآيات التي تكفّر المشركين. وعبارة «نفعل فوق ما فعلوا» مُلتبسة لكونها تعني فوق ما أسسوا هم لأنه لا فكاك مع الماضي، أو تعني الزيادة لكن ضمن سقف الدين. وفي ذلك استحالة فصل الدين عن السياسة، وتحويل الماضي إلى مستقبل حديث! ويمكن القول إن في هذا الحوار الموجز، خطابَين ورؤيتين ونقيضين لا يلتقيان، بخاصة في مجال الإصلاح الديني.

---

١١) والحق يقال إنّ السلطان عبد العزيز آل سعود استعاد في دوره الأول، دور الفتوحات، ملك أجداده، وعزز المُلك بالعدل والأمن، وبالدين الذي هو من نجد مصدر الإثنين، فلا يخطئ أو يموه اذا قال نبني كما كانت تبني أوائلنا. ولكنه في تحضيره البدو، وفي تأسيس الجديد من المدن والقرى ... وفي إرساله فتيانًا من نجد إلى مصر ليتلقنوا فيها العلوم الحديثة، وفي استحضاره إلى الرياض السيّارات وبعض الأطباء والمهندسين، في كل هذا ما يُثبتُ قولَه أنّه يفعل فوق ما فعل أجداده، ولكن ضمن سقف الدين. (١١٢/٢ ص ٢٥٤٢).

حاجتُنا: شجاعة الريحاني

رؤيةُ الرّيحاني الإصلاحيّة تنويريّة صادقة لكنها توجهت إلى فضاء ذي سقف محدَّدٍ لا يمكن اختراقه لصنع معجزة إنقاذ المخلَّع. فما الذي تحقق من مشروعاته الإصلاحيّة، النهضويّة؟

هل تحقق الحكم المدني في بلاد دساتيرها تستوحي الدين؟ هل حصل الإصلاح الدّيني الذي هو جوهر الإصلاحات كلّها؟ هل تلاشت العصبيّات المذهبيّة؟ هل تحرّر المجتمع العربيّ من التبعيّة للأجنبي؟ أين الوَحدة والتضامن في ظلّ حروب شرق أوسطيّة؟ وأين الروح القوميّة الجامعة وسط تباينات تُضعف الجميع؟ أين الرؤيّة الواحدة، والآخرون يتلاعبون بجغرافيتنا وديموغرافيتنا وحدودنا وثرواتنا ومصيرنا؟

إنها إشكاليات ومآسٍ ما زالت تفرض نفسها علينا منذ مئة عام. وأمام هول انتظار سايكس بيكو جديد للمنطقة، فالعرب، وخصوصًا لبنان، يحتاجون إلى شجاعة الريحاني وفكره الحر الإصلاحي، كي تكون لنا أوطانٌ تُحتَرم حدودُها، ويشعر بالعزّ حكامها، ولا يُهاجر أبناؤها، ولا يُحتقر فقيرها، ولا يُقتل حرُّها، ويكون الدين فيها عامل بناء وحب، لا عامل عنف وكراهية.

د. إيمان درنيقة الكمالي:
المعاهدات الدولية والإصلاح السياسي



من جبل لبنان شعّ بدر منير
دربَ الأدب أضاء، وبالسياسة بصير
ذكيٌّ، فَطِنٌ، صاحبُ قلم غزير
يعبر عن آرائه بجرأة، دون أن يُلبسها أيَّ ثوب من حرير أو كشمير
جال في أرجاء الأرض محاولاً أن يوحّد العرب، وليس هذا بالأمر اليسير
فواقعُ العرب خطير ومرير
وبمزيد من التَفَتُّت والتَشَرذُم نذير
كتابه «ملوك العرب»... وهل لهذا الكتاب شبيه أو نظير؟
بتنا نسأل: هل الريحاني كاتب؟ أديب؟ أم سفير؟
إنّه اسم حفره التاريخ بحروف من الذهب والماس والزفير...

لم يعش أمين الريحاني في زمن أَقلَّ صعوبة عن زمننا الحالي. فالبلاد العربية، في الحقبة التي سبقت الحرب الكونية الأولى وما بعدها، شهدت عقودًا من الظلم والجهل والعبودية والغيبوبة الشاملة، وواجهت تحديات جسيمة تمثلت في الاستعمار البريطاني من جهة، وترَنُّح الدولة العثمانية بين فكَّي الانحدار والانهزام الداخلي من جهة أخرى. وضغطت المطامع الاستعمارية الأوروبية على المنطقة فأغرقت البلاد في أتون الفقر والجهل والذل، وأنشأت الفواصل الحدودية، وأخمدت الروح القومية، وقضت على جميع قوى الحركة والتفتح وكل معالم التشوق إلى الحرية والاستقلال.

هذا الواقع الأليم كان يتطلّب فجرًا جديدًا يطلّ من انشقاقات الظلمة والظلام، ليبعث في الأمة كلها نورًا، ويبعث في الرّوح حسًّا جديدًا، دمًا جديدًا، يقظة جديدة. وهذا ما أكده الريحاني في كتابه «ملوك العرب» على لسان شيخ قال لأمين: «كلنا والله نشتهي السلْم ولكن أين رجل السلْم؟ لا في عسير ولا في اليمن موجود، لا يتم الصلح إلاَّ بأحد الكبار يجيء، ومن وراء البحار».

هذا الرجل كان أمين الريحاني الذي سافر إلى الولايات المتحدة وهو بعدُ في الثانية عشرة. ولم تكن الصورة الذهنية عنده عن العرب حين سافر سوى أنهم (بعبع). لكنّه في أميركا، وبواسطة أحد الكتاب الإنكليز، قرأ كتاب «الأبطال» لكارليل فتعرّف على سيرة النبي ﷺ، وأحس لأول مرة بشي من الحب للعرب، وصار يميل إلى الاستزادة من أخبارهم. ثم قرأ كتاب واشنطُن أرفين عن الحمراء في الأندلس فهام بالعرب. وعندما اجتمع لاحقًا بعدد من المستشرقين، صوّروا له الحياة «رحلة في الأرض دائمة» وصوَّروا الأرض «بادية عربية».

هكذا أصبحت الرحلة إلى البلاد العربية وزيارة ملوك العرب حلْم امين الريحاني وشغله الشاغل.

طائفة الوطن القومي

أدرك الريحاني أهمية الأمة العربية حضارةً وتاريخًا، وأراد أن يعيد إلى ذلك الوجه العربي المشرق صورتَه الحقيقية لتسطع من جديد على مسرح التاريخ. كان هدفه الإعلاء من عزّة العرب ووحدتهم، ورتْق التصدعات في العلاقات بين ملوك العرب، ومحاربة الجهل والظلام. أما طائفته فكانت طائفة الوطن القومي. ها هو يقول: «إني، وإن كان لبنان وطني الصغير وسوريا وطني الكبير، أنتسب إلى البلاد العربية وطني الأكبر. وإني، وإن كانت المسيحية ديني ودين أجدادي، أدين بدين كل من أقام حقًّا وأزهق باطلاً. بل أدين بدين كلّ من قال بالوحدة العربية وتجديد مجد العرب، وسعى في هذا السبيل سعيًا شريفًا خالصًا لوجه اللّه.» ويقول عند لقائه السيد الإدريسي: «أشعر بأنه في عروقي من الدم الذي يجري في عروق العرب.»

ومع أنه كان يؤكد في كل مناسبة أَنْ «لا ناقة له في السياسة ولا جمل»، اهتم بالسياسة ومنَحَها كل إدراكه وتفكيره، انطلاقًا من أنْ لا سبيل إلى بعث النهضة العربية إلاّ عن طريق توحيد كياناتها المتعددة. لذا تحولت السياسة جزءًا من وجوده وواقعه الذي لم يكن بالإمكان أن يتخلى عنه، فكان هدفه الإصلاح وجمع الشمل وتوحيد ذات البين.

عرف الريحاني أنّ قوة الأمة ليست بقطر واحد بل بأقطارها جميعًا. ورغم تحذيرات تلقاها قبل البدء بالرحلة، وعراقيل من الإنكليز والأميركيين، امتطى صهوة المغامرة وعقد العزم على زيارة معظم الأقطار العربية، وتحمُّل الأتعاب والأهوال، وتكبُّد المشقات المختلفة من ركوب

البعير والدهناء وفي بلاد البدو، فكان له ما أراد وبلباقته المنقطعة النظير وإرادته الفولاذية وهمته العربية، استطاع أن يزور الجزيرة كلها ويقضي فيها ١٤ شهرًا، ويجتمع بمعظم الملوك بدءًا من الشريف حسين في الحجاز، فالإمام يحيى بن حميد الدين في صنعاء، فالسيد الإدريسي في عسير، فسلاطين ومشايخ لحج، فالسلطان عبدالعزيز آل سعود، فأمير الكويت أحمد آل الصباح، فشيخ عربستان خزعل، فآل خليفة شيوخ البحرين، وأخيراً الملك فيصل بن الحسين في العراق. وجميعهم رحبوا به جميعا أجمل ترحيب لما يعرفون عنه وعن كتاباته التي كان من خلالها يشارك العرب معاركهم أثناء الحرب.

اكتشف أسباب الضعف

وخلال زيارته تطلع أمين الريحاني إلى صرح الحياة السياسية فألفاه على وشك الانهدام. وتغلغل في نفوس المسؤولين عن هذا التأخر والجمود فأدرك فيها مواطن الأنانية، واستنطق ألسنة الناس حول الأوضاع السياسية والخلافات القائمة فتعرف إلى أسباب الضعف. عندها أمسك مشعل المصلح، ووقف في وجه العصر المتشبث بالقيَم الزائفة، وصمد أمام الرواسب الاعتقادية والرجعية المخيمة على العالم العربي. ولم يرفع راية الاستسلام أمام القيَم الفكرية المنهارة في الشرق المخدَّر الغافي بل سلك طريق المصلِح المتواضع الملتزم بواجبه، لا المصلِح المغرور الذي يهدم ويفخر بأنه هدم ويثور ويفخر بثورته ويقف مكتوف اليدين أمام أحجار البناء. إنّ نزوع الريحاني نحو الإصلاح لم يكن نزوعًا فكريًّا تجلّى إلى الناس عن طريق الكلمة بل نزوعًا وُجُوديًّا تجلّى في كل تصرفاته وسلوكه، ما أوقد فيه شعلة الإصلاح التزامًا، وشعلة الالتزام إصلاحًا، وجعله يتخذ الإصلاح مبدأً ومعتقدًا ونهجًا يسير عليه ويستضيء به. فهو صاحب رسالة وحدوية تحب أن ترى العرب قومًا متحدين، عزيزي الجانب، موطدي الأركان، ينعمون بالحرية والاستقلال والرخاء. وأدرك أن الوحدة السياسية وإقامة الدولة العربية الوحيدة هما الطريق الوحيدة الموصلة إلى المنعة والقوة والعزة في عصر لا مكان فيه إلاَّ للأقوياء. ولتحقيق الوحدة لا بد من تجاوز العوائق الخارجية (الاستعمار الأوروبي) كما الداخلية (واقع التبعيّة في العالم العربي).

المبحث الأوّل: الاستعمار الأوروبي

كان الريحاني من أشد منتقدي الاستعمار، وقدّم نظرة ثاقبة على العديد من مظاهر الاستعمار البريطاني في العالم العربي، تجلّت أولاً في مكانة بريطانيا في بلاد العرب، وجود الوكيل السياسي، السياسة الاستعمارية، السردية الخاطئة عن العرب، المعاهدات الدولية.

١. مكانة بريطانيا:

أوضح الريحاني بطريقة غير مباشرة أن بريطانيا سيدةُ المنطقة، والبلاد العربية خاضعة لهيمنة بريطانية تحكمها من عدَن إلى الكويت. وكان العرب عاجزين عن اتخاذ أيّ قرارٍ قبل العودة إلى بريطانيا، حتى أن الريحاني نفسه لم يكن بمقدوره القيام بأي زيارة الى أحد الملوك إلا بعد أخذ الإذن من بريطانيا.

٢. وجود الوكيل السياسي البريطاني:

انتقد الريحاني بشدَّةٍ دور الوكيل السياسي البريطاني معتبرًا إياه المُسيّر الحقيقي لشؤون الدول العربية والحاكم الفعلي للبلاد في العراق والكويت والبحرين عبر تقارير سرية كان يرسلها إلى دور الاعتماد في عدَن والهند، وهذا نوع آخر من أنواع الاحتلال. وفي هذا يقول: «الجاسوسية بعينها هي سلاح السياسة الإنكليزية في البلاد العربية. هي خادمة الوكيل السياسي في تقاريره السرية التي تتناول كل موضوع، وتحيط بكل حال، وتجتاز حتى الحدود التي تقدسها التقاليد إلى ما وراءها. إذا كان أولياء الأمر، وأحد ملوك العرب في مأزق من المفاوضات أو العلائق، وكانوا (الإنكليز) عالِمين بأن لذاك الملك أو الأمير عدوًّا من أهله أو من رعيته في بلاده، يسعون إليه بوساطة الوكيل السياسيي فيستغْوُونه بلقب أو بذهب أو بالاثنين معًا، ويستخدمونه على خصمهم لتحقيق مقاصدهم.»

في نجد – ولو بدون أي وكيل سياسي – كان برسي كوكس يسيطر على القرارات وله دور كبير في رسم الحدود، وبحضوره انعقد مؤتمر العقير (١٩٢٢) بعد فشل معاهدة المحمرة لترسيم الحدود بين نجد والعراق والكويت، فتم ذلك تحت سيطرة الدولة البريطانية المهيمنة.

٣. السياسة الاستعمارية

انتقد الريحاني سياسة المستعمرين الذين كانوا يوزعون الأموال ويُفيضون بالرشاوى على ملوك العرب، ويزودون خفْيَة القوى الطامعة

بالسلاح وأسباب القوة كي يضمنوا لوجودهم البقاء ولمصالحهم النفوذ. وعن الريحاني أنّ سمو السلطان عبد العزيز أخبره: «يظن الناس أننا نقبض من الإنكليز مبالغ كبيرة من المال. الحقيقة أنهم لم يدفعوا لنا إلا اليسير مما تستحقّه الأعمال التي قمنا بها أثناء الحرب وبعدها.» ويضيف على لسان السلطان عبد العزيز: «تراهم يدسّون الدسائس عليَّ، عليَّ أنا صديقهم ابن سعود—أحاطوني بالأعداء؛ أقاموا دويلات حولي، ونصّبوا من أعدائي ملُوكًا يمدّونهم دائمًا بالمساعدات المالية والسياسية. وفي موضع آخر من الكتاب يقول على لسان الإمام يحيى: «الادريسي حليف الإنكليز وعدوٌّنا، يأخذ منهم المال والسلاح ويحارينا به»».

وانتقد الريحاني الاستعمار الذي يدرك أن تحقيقَ الوحدة العربية أحدُ عوامل قوة هذه الأمة. لذا يسعى بكل قواه إلى تفتيت الأمة العربية. فالمستعمرون لا يريدون «الخلافة» بل أن تبقى الجزيرة العربية مقسَّمة ومجزَّأة وأن تبقى أوصال البلاد العربية ممزّقة في حالة فسيفساء سياسية؛ ومجزأة مجموعة دويلات وأقاليم وأوطان صغيرة يغار بعضها من بعضها الآخر غير قادرة على التماسك، ما يفتح أبواب النزاعات والتناحر ويقضي على الشعور بالانتماء الواحد والمصالح المشتركة. وبالفعل هكذا كان الانكليز في علاقاتهم السياسية والاقتصادية مع ملوك العرب يفضِّلون أحدهم على الآخر معتمدين سياسة «فرق تسد» لتقسيم العرب وإضعافهم وتناحرهم.

يقول الريحاني: «استخدم الملك حسين مال الإنكليز وسلاحهم على خصمه ابن سعود،.... وحمل ابن سعود على ابن الرشيد.» ويقول:«ولا نلومهم (الإنكليز) في تفضيل الإدريسي على الإمام، وابن سعود على الإدريسي، والملك حسين على ابن سعود، فالمساعدة كانت درجات، وكذا كان التفضيل». وهذه السياسة لم تؤدّ إلاّ الى توسيع الثّلَم والعداوة بين أمراء العرب المتخاصمين.

٤. السردية الخاطئة عن العرب

انتقد الريحاني سياسة الغرب التي تسعى إلى تقديم صورة أو سردية خاطئة عن العرب، معتبرةً إياهم أطرافًا هامشية في العالم وعشائر بدائية يغلب عليها التعصب والتخلف. أراد الريحاني أن يدحض هذه الصورة التي تختزل كلّ ما يتعلّق بالعرب في صورة واحدة عنوانها «البعبع»، والتي تصور الغرب بأنه مركز العالم ومتفوق في كل شيء، فالعرب بحاجة إلى سنوات للِّحاق بركب الحضارة الغربية. وفي أكثر من موقع في الكتاب يوجّه نقده الى الغرب وإلى حضارته المادية: «ماذا في نيويورك غير الضوضاء

والعناء والبلاء؟» ... «تعالوا سِيحوا معي فتعودوا إلى ما أبعدكم عنه التفرنُج والتأمرك». وينتقد السياسة الغربية التي تصور «أن الكمال كله في الأمم الأجنبية» و«البعبع» في العرب.» ويضيف أن الغرب لا يكتفي بصوغ هذه السردية الخاطئة عن العرب لتغريبهم عن أنفسهم بل أنه لو استطاع أن يبعدنا عن لغتنا لَما قصّر في ذلك: «إن في أكثر المدارس السورية روحًا أجنبيًّا يُبعد السوريين واللبنانيين عن كل ما هو عربي في غير اللسان. ولو استطاع لأبعدهم كذلك عن اللسان.»

هذه السردية التي يصوغها الغرب تسلب العرب صورتهم الزاهية وتجعلهم في حالة خوف من أنفسهم، بل في حالة انسلاب وانسلاخ واغتراب وتغريب شديدة، حتى ان العرب باتوا يصدِّقون هذه السردية ويعتبرون أنفسهم أقل شأنًا من الغرب. يقول الريحاني نقلاً عن الشريف حسين لحظة وداعه إذ بادره: «نشكركم على هذه الزيارة ونكبرها منكم. جئتم من أقاصي البلاد وأعظمها – أقول: **وأعظمها** – إلى بلاد **متأخرة** فقيرة بينها وبين الحضارة مراحل طويلة.» وليس هذا ما ينبغي للشرق أن يكون عليه. فالعرب هم الأمم التي بنت الحضارات واحتضنت الرسالات، وهم الذين قدموا للإنسانية قيم الخير والعدل والرخاء وقيم العلو الانساني والرقي الحضاري. ولا بد لهم أن يعودوا إلى هذا المخزون العظيم الجليل الذي تشكل عبر آلاف السنين، ليستخرجوا منه درره وجواهره ويبنوا سرديتهم الحقيقية الزاهية. ولكنْ... أين نحن اليوم من تحقيق ذلك؟

٥. المعاهدات الدولية:

أ) معاهدة سايكس بيكو

أشار الأمين إلى حقيقة اعتبَرَها السببَ الرئيسي في إفشال مشاريع الوحدة العربية، هي معاهدات سرية تُعقد بين الدول الاستعمارية، أهمها معاهدة سايكس بيكو التي عُقدت قبل إعلان الشريف حسين ثورتَه على الأتراك (١٥ أيار ١٩١٦) وكانت المعاهدة بين الفرنسيين والإنكليز لتقاسُم تركة الرجل المريض وتصفية الدولة العثمانية، ففرضت تقسيمًا عشوائيًا في المنطقة العربيّة لا على أساس منطقي أو جغرافي بل على مقاس التنافس البريطاني الفرنسي ولرعاية المصالح البريطانيّة والفرنسيَّة، مع تجاهلٍ وإنكارٍ مَصالح وآمال شعوب المنطقة. وكان من أُولى عواقب «سايكس بيكو» وتغليب الحكْم القُطري: هدْم مشروع السكة الحديدية التي انشغلت بتنفيذه السلطة العثمانيّة والنخبة الحجازيّة في القرنين التاسع عشر والعشرين. وللأسف، ها نحن اليوم بعد أكثر من قرنٍ على افتتاح خط سكّة حديد الحجاز-دمشق، ولا خطوط مواصلات تربطُ بين

العواصم العربيّة. وليس صدفة أنْ أسهل على الغربي من العربي أن يطير إلى أي من عواصم الدول العربيّة. هكذا نجحت الاتفاقيّة في ضخ فلسفة كيانات مفصّلة على قياس المستعمر. قرنٌ كامل ومنطقتنا العربيّة خاضعة للحكم الغربي وسيطرة غربيّة فرضت الشرذمة وتصغير الهويّات وتفتيتها لقلع شوكة كل حلم وحدوي. مع هذا، وللأسف، بعد قرن من عقد الاتفاقية ما زلنا نرى من يهللون ويفرحون ويبتهجون بـ«سايكس بيكو» كأن السيّدين سايكس وبيكو وُلدا وتربَّيا في البلاد العربية، وكأن هذه الاتفاقيّةَ مشروعٌ قومي عربي لا اتفاقية استعماريّة. ووسْط هذه الحروب الدائرة وهذه الاجتياحات الكونيّة في الشرق العربي تجب إعادة النظر في موروثات الاستعمارّ وكياناته وحدوده وأطره، وكسْر المحظورات التي أورثنا إيّاها الغرب.

ب) المعاهدات الدولية

سلط الريحاني الضوء على معاهدات بريطانيا مع البلاد العربية، كالمعاهدة الحجازية البريطانية، والمعاهدة العراقية البريطانية، ومعاهدة البحرين مع بريطانيا، ومعاهدة سلاطين لحج مع بريطانيا، ومعاهدة السيد الادريسي مع بريطانيا. واعتبر هذه المعاهدات مجحفة بحق العرب، وأدّت إلى سيطرة الدول الأوروبية على الدول العربية. وبالفعل: هل يمكن أن نتوقّع مقاصد نبيلة أو مقاصد غير استعمارية لحكومات الغرب؟ ومتى تجرَّدت مقاصد الحكومة البريطانية عن الأطماع الاستعمارية المصبوغة بصبغ الحرية والإخاء والمساواة؟ وهل يُعقَل أن يكون البريطانيون صادقين في معاهداتهم ووعودهم للعرب، وأن يقوموا بما توجبه عليهم المعاهدات؟

نكثت بريطانيا بوعدها للشريف حسين وحطَّمَت أحلامه الوردية أن يكون ملكًا على العرب. وقامت بتقسيم بلاد الشام إلى مناطق نفوذ فرنسية وبريطانية، كما جاء في البند الأول من المعاهدة الحجازية البريطانية. انتقد الريحاني عدم صدق الإنكليز فقال على لسان الشريف حسين: «ألبدو يا حضرة الفاضل ساذجون فقراء، ولكنهم صادقون. أقول: صادقون. ويرعون العهود»، وهذه إشارة إلى أن البريطانيين غير صادقين ولا يرعَون العهود. وتطرق الريحاني إلى الفكرة ذاتها في عدة مناسبات أخرى.

وعلى الرغم من معاهدة بريطانيا مع البحرين، تدخَّلت بريطانيا في شؤُون البحرين الداخلية مرارًا وتكرارًا، وبسبب شجار بين خادم ألماني وابن أخي الشيخ عيسى سنة ١٩٠٣، تدخّل الوكيل السياسي البريطاني في بوشهر، ففُرضت على البحرين عقوبات قاسية، بما في ذلك حرق سفنها الحربية حتّى تمكنت بريطانيا من السيطرة المطلقة على البحرين

ومن تقليص سيادتها واستقلالها من خلال مزيج من القوة السياسية والعسكرية، إلى أن استولت عليها بشكل كامل عام ١٩٢٣.

وانتقد الريحاني معاهدات بريطانيا مع سلاطين لحج، وكانت بدأت على شكل عهود صداقة وولاء ذات بند واحد، ثم تدرّجت إلى معاهدات طويلة ببنود عديدة وفق القاعدة السياسية: الولاء، ثم العطاء، ثم الاستيلاء.

ووجه الأمين نقدًا إلى المعاهدة العراقية البريطانية، إذ كان المستر تشرشل وعد بأن تعترف الحكومة الإنكليزية باستقلال العراق وتساعد العراقيين بتأسيس حكومة وطنية ذات سيادة تامة وتلغي الانتداب، لكنها جاءت بمعاهدة تبتدئ في بندها الأوّل بذكر الانتداب وعصبة الأمم. وإضافة الى هذه المعاهدات سلّط الريحاني الضوء على المعاهدات الاقتصادية، واعتبرها استعمارًا سرعان ما يتحول استئثارًا كاملاً فاحتلالاً، إلاّ إذا كانت هذه المعاهدات مبنية على الندية، ومن دون مادة الحماية البريطانية.

المبحث الثاني: واقع التبعيّة

واقع الدول العربية مسؤول عن تخلف العالم العربي لأنها اعتبرت نفسها بقايا مجتمعات بدائية مقارنة مع مراكز النظام العالمي (بريطانيا).

والتبعية ليست مجرد علاقة خارجية أو رباطًا مع العالم الخارجي، لأن الأثر الخارجي لا يُحدِث مفعوله إلاّ إذا توفر له وسط محلي مناسب وبيئة تتضمن عناصر تساعد على التجاوب مع الطرف الأجنبي فتكون مؤاتية لاستمرار التبعية. هكذا توفّرت في البلاد العربية الأرضية المناسبة والعوامل التي تخلق واقع التبعية. ففي حين كانت دول أوروبا تشهد ثورةً صناعيةً ضخمة وتُنشئ المصانع وتُطور تقنياتها، كانت الدولة العثمانية تُعاني من التراجع والانحدار والفساد والضعف، ما جعل العرب يرتبطون بمعاهدات تجارية مع الإنكليز لتقوية اقتصادهم المترنح ومواكبة ديناميات التطور. ولكنْ... إذا كان العرب يعانون من القصور فهل الوسيلة التي اعتمدوها هي الصحيحة؟ ومَن يؤكد أن النهوض الأسرع هو الأفضل دائمًا؟ أَلم يكن بمقدورهم تحقيق تنمية مجتمعهم بطريقة مختلفة عما تحقّق لو لم يتّصلوا بالغرب؟

سلّط الأمين الضوء على عدة عوامل أدت إلى واقع عربي واهن مهتز، وشكلت الأرضية المناسبة للتبعية: الشطر بين الأمم العربية، معاهدة سايكس بيكو والمعاهدات العربية البريطانية، تدخُّل الدين بالسياسة، استشراء الفساد في نظام الحكم.

أ) الشطر بين الأمم العربية

اكتشف الريحاني أن العرب كانوا يعيشون في غُربة وفرقة كأنهم في عوالم مختلفة منفصلة عن بعضها البعض حتى ليصعب التواصل بين مكونات المجتمع العربي. وهذا برأيه السبب الأساسي الذي يؤدّي إلى الصراعات والخلافات بينهم، ويعيق أي محاولة دمج قومية أفقية أو عمودية، كما يعيق أي عملية تنمية شاملة ذات بعد قومي. يقول الريحاني: «أمراء العرب غير الحسين بن علي، وكلهم، وإن اختلفت الألقاب، ملوك مستقلون بنعمة الله بعضهم عن بعض، وجاهلون شخصيًّا بعضهم بعضًا.» (...) «قد لا نجد بينهم َمن يعرف زميله الملك معرفة شخصية خاصة، أو يعرف من الأقطار العربية معرفة حقيقية تامة غير القُطر الذي هو حاكمه.» (...) «ليس بين ملوك العرب اليوم ملِك ساح في البلاد العربية كلها، وليس فيهم َمن يستطيع أن يقول: إنني أعرف بلاد العرب وحكامها وسكانها وقبائلها وأحوالها الاقتصادية والزراعية وشؤونها السياسية الداخلية والخارجية مما لدَيّ من تقارير العارفين وأخبار المنزَّهين عن الأغراض السياسية والتحزُّبات المذهبية.» (...) «لست مبالِغًا إذا قلت أنْ ليس في البلاد العربية اليوم رجُل واحد يعرف البلاد العربية كلها، وليس في العالم اليوم، للأسف، من يحيط علمًا بهذه الأقطار وبشؤُونها جمعاء، بحكامها وقبائلها، وزراعتها وتجارتها، وخراجها وحروبها، ومشايخها وأمرائها، بكل ما يختص بأمورها السياسية الداخلية والخارجية.» (...) «إن ملوك العرب وأمراءها ناؤون بعضهم عن بعض، وقلما يعرف بعضهم بعضًا معرفة اليقين.»

عندما وصل الريحاني إلى نجد وقابل السلطان عبد العزيز آل سعود وأخبره عن مقاصده في هذه الرحلة، قال له: «إني متيقن يا مولاي أن الوحدة العربية لا تتحقق إلا باجتماع أمراء العرب كلهم للتعارف أولاً والتفاهم، فهم اليوم في معزل بعضهم عن بعض إذا لم نَقُل في احتراب دائم، ولا يعرف الواحد منهم الآخر معرفة حقيقية» (...) «فكيف السبيل مع هذا الجهل إلى التفاهم والولاء؟»

ب) معاهدة سايكس بيكو

أدرك الريحاني أن العرب مسؤولون عن حالة الضعف والتشرذم التي يعيشونها. صحيح ان اتفاقية سايكس بيكو ظالمة ومجحفة بحقهم، إلاّ أن رأس البلية في هذه القضية، وفق الريحاني، «تنين ذو أربعة رؤوس»، أي أن الاتفاقية ليست مؤامرة بحتة بل يكمن الفشل «في أربعة أجزاء تتجسم في إنكلترا وفرنسا، وَمن تولى الزعامة من العرب، ثم العرب

أنفسهم». فالعرب نفسهم مسؤولون عن فشل وحدتهم. ويشير الريحاني إلى أن اهتمام الشريف حسين بن عليّ كان مُنصبًّا على سوريا وفلسطين لا على شبه الجزيرة العربية التي كانت تعاني من صراعات داخلية. وهذا بمثابة اهتمام بسقف البيت قبل الأساس. كان على الشريف حسين أن يُوحّد شبه الجِزيرة العربية قبل أن يسعى إلى ضمّ سوريا وفلسطين. ولعل فشله في تحقيق الوحدة العربية في شبه الجزيرة العربية جعله يفقد نفوذه في سوريا وفلسطين.

ج) المعاهدات العربية البريطانية

مشاعر الخوف والقلق وعدم الاستقرار وتزعزع الثقة بين العرب، دفعتْهُم إلى لجوئهم لعقد معاهدات مع القوى الاستعمارية. ويشير الريحاني إلى عداوة الشريف حسين مع كل من الادريسي وابن سعود، جعلته يضمر لهما العداء ودفعت الملوك لعقد المعاهدات مع بريطانيا. ويشير تحديدًا إلى البند الثاني في المعاهدة البريطانية الحجازية، وفيه: «لو وقعت فتنة داخلية من دسائس الأعداء، أو من حسد بعض الأمراء، فبريطانيا تتعهد أن تساعده عليه». لذا انتقد الريحاني معاهدات ملوك العرب مع بريطانيا لحماية أنفسهم من إخوانهم العرب، ويعتبرها كمَن يضع يده بيد العدو ضد أخيه، فلا العدو يصبح أخًا، بينما يصبح الأخ عدوًّا. هكذا ينتقد الريحاني بأسلوب ساخر ولاذع «ملوك العرب الذين كانوا يعقدون المعاهدات مع الأحلاف (أي الإنكليز) ليحاربوا الأتراك، وهم في الحقيقة كلما ضربوا الأتراك ضربة، كانوا يضربون إخوانهم العرب ضربتين وثلاثًا.

د) تدخل الدين بالسياسة:

يرى الريحاني أن ربط الدين بالدولة سبب أساسي في انحطاط الدولة وتقييدها وجمودها. لذا انتقد ملوك العرب، وعلى رأسهم الشريف حسين الذي اتَّخذ الدين أو العاطفة الدينية سبيلاً إلى تحقيق مقاصده، واستمر في جعل الدين أساسًا لبناء الدولة. يقول الريحاني «ماذا يهمنا من نهضة أساسها سورة البقرة؟ وأيُّ دخل لنا في ثورة أُعلنت في ذاك السبيل ولتلك الأسباب الدينية؟ (...) إن المرء ليأسف على أمة عربية مجيدة ترفع المذهب على الكتاب والسنّة، أو بالأحرى تجعل المذهب وسيلة إلى الاستيلاء والسيادة.» ذلك أن الريحاني يريد أن يتفوق الانتماءُ القومي على الانتماء الطائفي في الأمم العربية، رسالة منه للعرب أن يتخلصوا من القيود الطائفية التي تكبّلهم، ومن التعصب الطائفي الذي يعتبره حجر عثرة في طريق الوحدة المرتجاة. ويؤكد: «إن ملوك العرب لا يُفلحون ولا يفوزون فوزًا تحسن نتائجه وتدوم، ما داموا يتخذون الطائفية وسيلةً لتأدية

سيادتهم، وتحقيق مقاصدهم، وتعزيز العصبية فيهم.» (...) «القومية العربية أساس حقيقي لوحدة العرب، والدين يجب أن يكون عاملاً مساعدًا في الوحدة وليس العكس.» وفي حديث له مع الامام يحيى في اليمن، يقول: «إن القوميةَ تجمع الشعوب، والدين يفرقهم. وإننا نحن المسيحيين في سوريا، مثل العرب المسلمين، تجمعنا القومية، وهي التي حملتنا على التشرف بزيارتكم، ولا يجمعنا الدين». فأين نحن اليوم من أفكار الريحاني، والحروبُ والنزاعاتُ الطائفية تتوغل وتتجذر في سياسة الدول دون أن تلقى حلولاً جذرية، ونظامنا السياسي في لبنان قائم على التوافقية الطائفية باعتبارها وجهًا من أوجه الديموقراطية، بينما ليست إلا قشرة من قشور الديموقراطية، وسببًا أساسيًّا لكل ما يشهده لبنان من أزمات. ها مئة سنة مرّت، وواقعنا في المشرق العربي ممزّق ومأساوي بسبب الانقسامات الطائفية، كأنّنا جزء من متحف وليس أمامنا إلا صورة الانهيار.

هـ) الفساد في نظام الحكم

انتقد الريحاني طريقة ممارسات ملوك العرب في عصره. وأبرز انتقاداته ملوكَ العرب: اعتمادهم على رهائن أبناء زعماء القبائل كفالةَ الإخلاص والأمانة والوفاء في التبعية. يقول: «إذا كانت الرهائن أساس الملك فهي ولا ريب أساس فاسد». وانتقد اعتماد الزيديين على الحكم بالسيف بدلاً من الشورى والديمقراطية: «شروط الإمامة في الزيدية من خير ما تتطلبه الجماعات في حكامها، لولا هذا الشرط الذي يُنزل السيف منزل الشورى والمبايعة؛ فهو ولا عجب السبب الأكبر في الفتن والحروب في تلك البلاد الجميلة.» ويقول: «لا أمل في تلك البلاد بالسلم الدائم واليُمن والنجاح إلا في نزع حق الإمامة من السيف، ووضعه في الشورى الحقيقية، في المبايعة بالاقتراع».

وانتقد أيضا تجارة النخاسة، واستغرب أمر الحكام في الحجاز وفي عسير الغافلين عن تجارة العبيد فإذا بالحرية تهجرهم. وأصاب في قوله: «من يستعبد الناس لا يستحق الحرية». إنها صرخة في وجه الظالمين المستبدين وصرخة في وجه المستعمرين (الغرب) دعاة التحرر المزيف. وكان الريحاني سبّاقًا على عصره: فها نحن بعد مئة عام، وبعد ما شهدناه في غزة من أعمال بربرية ووحشية، نكتشف أن لا وجود لمعاني الحرية والشعارات البرّاقة التي ترفعها حكومات الغرب فيما هي تُمارس سلوكياتٍ تُناقض هذه القيم تمامًا.

فهل يصحح العرب مسيرتهم الوطنية القومية؟ وهل تتحقق تطلعات الريحاني التي يبني عليها آماله المستقبلية لخدمة البلاد؟ وهل يمكن

العرب تجاوز العوائق السياسية الداخلية والخارجية، والتصدي للمخاطر الاستعمارية للدخول في الشعور الوطني الواحد والوحدة القومية؟

المبحث الثالث: الوحدة العربية

سعى الريحاني إلى تحقيق التضامن العربي وصولاً إلى تحقيق الوحدة العربية. لم يترك بابًا إلاّ طرقَه، ولا سبيلاً إلاّ سلكه، وصدعًا إلاّ حاول ترميمه، وصولاً إلى تحقيق التواصل العربي والتكامل الاقتصادي المؤدي إلى الوحدة المنشودة.

أ) سعي أمين الريحاني إلى عقد معاهدة وفاقية بين الشريف حسين والإمام يحيى، وأخرى بين الشريف حسين والسيد الإدريسي

بذل أمين الريحاني جهودًا جبارة لإقناع الإمام يحيى والملك حسين بعقد معاهدة صلح بينهما، خطوة على طريق الاتحاد والائتلاف. يقول الريحاني: «ما السبيل للتخلص من السياسة الأجنبية إلا في اتحادنا، في اتحاد ملوك العرب وأمرائها اتحادًا لا يقدح بسيادة كل منهم، ولا يجحف باستقلالهم التاريخي. أضعفتم أنفسكم بالحروب، قتلتم البلاد بالحروب، أفما حان لكم أن تجربوا طريقة أخرى، طريقة السلم، والتفاهم والتحالف؟» وكذلك وُفِّق إلى عقد معاهدة بين الملك حسين والإدريسي، وأرسل بنود المعاهدة إلى الملك حسين مصحوبة بكتاب من الإمام يحيى وآخر منه.

ب) سعي أمين الريحاني لعقد مؤتمر بين الامام يحيى والإدريسي

ينطلق الريحاني الرائد المصلح في جهوده متوسعًا، فيرغب في إيجاد تسوية سليمة بين الإمام يحيى والإدريسي حول مشكلة «الحديدة». ويحضر اجتماعًا في عدَن بين الرجلين يتم بعده تسليم الحديدة إلى يحيى. غير أن الإمام لم يرض بعقد المؤتمر فيعقّب الريحاني على ذلك بقوله: «ما الحيلة بسادتنا العرب أبناء عمنا، وإخواننا؟ نريد لهم الخير الدائم وهم لا يرغبون في غير مزيج من الخير الوقتي. إني على يقين أنه لو قَبِل حضرة الإمام بعقد المؤتمر لكان السلْم اليوم مخيِّمًا على البلدَين.»

ج) سعي الريحاني لإقناع الإمام يحيى بعقد معاهدة تجارية مع بريطانيا

لا يريد الريحاني أن تبقى البلاد العربية في حالة العزلة. لذا قال للإمام يحيى: «ينبغي لكم يا مولاي أن تفتحوا البلاد للتجارة». ويرى

ضروريًّا أن يمتلك العرب أسباب القوة المادية والفكرية والسياسية حتى يستطيعوا أن يقفوا في وجه الغرب موقف الند للند لا موقف العاجز أمام المستبد والمستكبر.

إضافة إلى ذلك، حاول الريحاني أن يضع الأساس لوحدة عربية اقتصادية، واقترح أن يخصص كل حاكم عربي مبلغًا ماليًّا من إيرادات الزكاة لإنشاء مشاريع اقتصادية تخدم الجميع وتؤسس لاقتصاد عربي يستورد الكفاءات والمواد لتأسيس اقتصاد عصري. وكان يحلم بمؤتمر عربي يجمع الحكَّام العرب بأجمعهم. لكن جهوده لم تكتمل، فكانت الخلاصة التي خرج بها من هذا التطواف والمقابلات أن الوحدة الكلية شائكة و تحقيقها صعب، إذ تعرقلها معوقات كثيرة: لا أهل السنّة يقبلون حكم زيدية اليمن ولا الزيدية يقبلون حكم السنّة، ولا الشريف حسين يقبل حكم وهابية نجد. فيستنتج أن «القبائل لا تزال سائدة في البلاد العربية ومتغلّبة في أكثر أقطارها على الروح القومية.» ويخلص إلى أنْ «لا أمل للعرب في تحقيق الوحدة العربية الكلية اليوم». ومع هذا لم يفقد الأمل بل آمن أن «النهضات الخطيرة في الأمم لا تنشأ نشأة واحدة كاملة؛ فلا بد لها من خطوات إلى ذلك الكمال، وتطورات في ما يرغب فيه من وحدة الكلمة والحال.»

وفي كل الأحوال استطاع «كولومبوس العرب»، وفق حدود معينة، تقريب المسافات ووجهات النظر المتنافرة وتليين المواقف المتصلبة، والتقريب بين الأمراء والملوك، وإبرام المعاهدات والاتفاقيات وصولاً إلى مدارسة سبل النهضة وتحقيق الوحدة العربية المنشودة.

لا خلاص إلاّ بتحقيق الوحدة

لأن التاريخ يعيد نفسه، ها بلادنا العربية تواجه المزيد من التقسيم والتجزئة والتفرقة. والأحداث القاسية التي نعيشها، من حروب وحصارات وتنكيل وتهجير وتدمير، لاسيما في غزة والعديد من الدول العربية كليبيا والسودان واليمن وسوريا، تثبت أن عالمنا المعاصر فقَدَ القيادة الرشيدة الحكيمة، وبات يتخبّط بلا عقل ولا حكمة، ويندفع بلا كوابح نحو الهاوية، فنستخلص أننا لن نستعيد قدرتنا على النهوض والتقدم ومواجهة أزماتنا مواجهة مسؤولة إلاّ بتحقيق وحدة العرب وتطبيق سياسة التكامل الاقتصادي وتقديم المصالح العامة والاتفاق على رؤية مستقبلية وخطط مدروسة قابلة للتنفيذ. فالعالم يتجه نحو هندسة جديدة لنظام عالمي جديد، وأثبتت الحروب الدائرة اليوم اصطفافات جديدة بين الدول،

فها هو الوقت المناسب ليقوم العرب بإنشاء مركز جيوسياسي مهم لهم خاصة أن لديهم كل المقدرات والامكانيات من عقول ومصادر طاقة ومياه ومضائق.

وإذا القرن الماضي، منذ سقوط الأمبراطوريّة العثمانيّة، لم يكُن خيّراً على العرب، فليس اليوم من متنافسين في الاستعمار: وحدها أميركا تقرّر والمجموعة الأوروبيّة تتبع صاغرة. قد تحاول الحكومة الأميركيّة أن تتوصّل إلى اتفاقيّة جديدة من أجل صياغة نظام عربي جديد، لكن احتمال زيادة التقسيم والشرذمة أكبر من احتمالات تقليصها. وكان الريحاني سبّاقًا في إدراك هذا الواقع: لم يكن مجرّد داعٍ من دعاة القومية العربية ورائدٍ من رواد الوحدة العربية، بل ساعيًا بقدمهً كما بقلمه لأجلها، وزارعًا في العقول بذرة الوحدة العربية. أراد مجتمعًا جديدًا خاليًا من الاستبداد والاستغلال، تخفق على صروحه أعلام التآخي والتعاون والأخّوة، وعلم أن المجتمع المتقدم المتحرر الذي يصبو إليه لا يخلقه الكيان السياسي الموجود ولا تبدعه النفوس االمغموسة في الخرافات والطائفيه والعنعنات التافهة. لذا أكّد أنْ مهما تغرّبنا وانغمسنا في الحضارة الغربية، نحن جزء من الحضارة العربية، ومشاكل العرب هي مشاكلنا، والقضيّة العربية هي قضيّتنا. ومع أنه صاحب المقولة الشهيرة: «قل كلمتك وامش»، لم يقُلْ أمام القضية العربية كلمته ويكتفي بها، بل قال كلمته ووقف معها بكل عزيمة وجرأة وإخلاص، مؤْمنًا بأهمية الالتزام بالإصلاح السياسي وضرورة توخّي الحذر من المعاهدات الدولية الظالمة والمجحفة بحق العرب، والتي ما أورثتنا إلا الضعف والضياع.

تُرى: لو عاد الريحاني اليوم ليتحقق من حلمه ويشهد واقع دولنا العربية الحالي، ما كان سيقول؟

أ.د. زهيدة درويش جبُّور:
فجر التأْسيس: السلطان عبدالعزيز



إن اختياري مقاربة كتاب «ملوك العرب»، من زاوية الفصل المخصص للملك عبد العزيز، يعود لسببين:

١. موضوعيّ: يتمثل في النهضة الراهنة التي تشهدها المملكة العربية السعودية، وفي تَنَامي دورها في السياسة الإقليمية والعالمية،

٢. ذاتيّ: يندرج في سياق سعيي إلى الاستزادة من معرفةٍ أكبرَ لتاريخ المملكة التي لطالما صُّورَتْ لنا مجردَ صحراء وآبار نفط وباب رزق للكثير من اللبنانيين والعرب.

اكتشافي المملكة وشعبها

إِلاَّ أنني، منذ زيارتي الأولى للمملكة، أدركت مدى جهْلي إياها وتراثَها العريق، واكتشفتُ تنوُّعها الثقافي والجغرافي، إضافة بالطبع إلى ما تتميز به من ازدهار ورخاء في العيش، ولمستُ مدى اعتزاز الشعب السعودي بتراثه وهويته الأصيلة. ومن خلال ما سمعته من أهل البلاد، تكوَّنَت لديَّ صورةٌ إيجابية عن الملك عبد العزيز الذي يعود له الفضل في توحيد القبائل وفي إنشاء الدولة السعودية الثالثة، وعن أخته الأميرة نورَة التي تميَّزَت بالحكمة والجرأة وكانت مستشارته فاستحقّت أن تحمل اسْمَها إحدى أكبر الجامعات في الرياض.

الريحاني وسؤال الهوية

عند بداية مشواري في الكتاب، استوقفتْني مقدمتُه كونها تطرح إشكاليةً لا تزال راهنة إلى يومنا هذا في المجتمع اللبناني خاصة: إشكالية الهوية والعلاقة بالآخر سواء العربي أو غير العربي. ذلك أن الثقافات الوافدة إلى هذا البلد عديدة ومتنوعة، وربما تضيع في خضمِّها الهوية الأصل، تلك الأكثر لصوقًا باللغة والتاريخ والجغرافيا. وأزعم أن سؤال الهوية هذا شكَّل

أحد الدوافع الأساسية لرحلة أمين الريحاني إلى شبه الجزيرة العربية التي وفّرت له مادة غنية لوضع هذا المؤلف المرجع.

يبوح لنا الريحاني أن وعيه تكوَّن، وهو طفل، على الخوف من العربي الذي لطالما اقترنَت صورته بـ«البدوي البعبع» الذي تُخيف به الأمهات أطفالهن: «هس جَا البدوي»، وأن صورة الفرنسي اقترنت لديه بالتقدُّم والمدنية بفضل المدرسة حيث كان يتربى جيل على الانبهار بفرنسا، وبالتالي أحيانًا على التبعية لها. كلا الصورتان، صورة العربي وصورة الفرنسي، تكشف عن أحكام نمطية وأفكار مسبقة طالما أسهمَت في تكوين وعْيِنا الثقافي، اللهم إلا من حثّه فضول المعرفة إلى طرح السؤال، وإلى المغامرة في البحث عن حقيقة يتبناها عن قناعة. أما أميركا، التي وصلها الكاتب وهو في سن المراهقة، فقد كوّن صورتها بنفسه مباشرة بعد أن عاش فيها عشْر سنوات اكتشف خلالها نشاط الشعب الأميركي وحيويته، وأُعجب بما يتمتع به من حرية القول والعمل. لكنه توجس من ثقافتها المادية القائمة على تحقيق الربح والنجاح بأيّ ثمن، وساءه انجراف أقرانه من السوريين إلى التأمرك. كان الريحاني وقتذاك في الثانية والعشرين من عمره، وكان وعيُه الثقافي في طور التكوين حين اكتشف عبر المستشرقين الإنكليز طريقَ العبور إلى ثقافة العرب.

اكتَشَفَ العرب من الإنكليز

كارليل عرّفه على النبيّ محمد، وإيرفين على الأندلس، وبلغراف وبورتن وبركهارت ساهموا في إثارة فضوله للتعرف على العرب، وهو يدرك أنه منهم لكنه لا يعرف عنهم إلا القليل. ووقع مصادفةً على «لزوميات» أبي العلاء المعري فأُعجب بفكر هذا الشاعر الفيلسوف الذي أثار لديه لأول مرة شعور الاعتزاز بالانتماء إلى العرب وثقافتهم، وحرّك لديه هاجس التعرف إلى الجزيرة العربية مهبط الوحي وموطن طرفة بن العبد وامرئ القيس اللذين أتاحت له وظيفتُه في الدائرة الشرقية في المكتبة العمومية فرصة الاطلاع على قصائدهما. كان هؤلاء بوابة العبور إلى العروبة وقضاياها. وعندما اندلعت الحرب العظمى كان الريحاني يتابعها باهتمام، وكان شديد الإعجاب بالملك حسين (ملك الحجاز) الذي «استنفر القبائل على التُرك، وأرسل أولاده الأمراء الأربعة إلى ساحات الوغى» (ص١٠). هذا الإعجاب تحوّل إلى حلم بالتعرُّف على الملك وزيارة الجزيرة العربية، وكانت بداية رحلة يدين لها هذا الكتابُ الجامعُ أدبَ الرحلة وكتابة المذكرات والكتابة التوثيقية والغني بالمعلومات الإثنولوجية والأنتروبولوجية والجغرافية

والسياسية. لذا أجدني عاجزة عن الإلمام بجميع جوانبه نظرًا لضيق الوقت المُعطى لمداخلتي.

كتاب هادف

إنه، في الدرجة الأولى، كتاب هادف ينبع من رغبة لدى مؤلفه في بلورة الهوية العربية وتعزيز الانتماء العربي، في مواجهة محاولات التغريب والتجهيل، وفي تعريف العرب بعضهم ببعض ملوكًا وشعوبًا، سعيًا إلى المساهمة في التمهيد لوحدة عربية مرتجاة... لكنها أصبحت اليوم بعيدة المنال. ولعل الأسطر الأخيرة في المقدمة هي التعريف الأوضح بالكتاب وأهدافه: «بدَّدت الأيامُ الأوهامَ التي صوَّرت لنا الكمالَ كلَّه في الأمم الأجنبية، عسى أن هذا الكتاب يبدّد الأوهام التي صورت لنا «البعبع» في العرب».

جدَّة فاليَمَن

أول مكان وطئته قدَما الريحاني في شبه الجزيرة العربية: جدَّة. وصل إليها من نيويورك في ٢٥ شباط ١٩٢٢ بغية لقاء ملك بلاد الحجاز آنذاك: حسين بن عبد اللّه. وأمضى في ضيافته نحو شهرين، ثم أكمل رحلته إلى اليمن. وأثناء إقامته في لحج كتب إلى الملك عبد العزيز يُطْلعه على رغبته في زيارة نجد وغايته منها. وكان عليه أن ينتظر بضعة أشهر قبل أن يصلَه الجواب بالموافقة بينما كان في بغداد عائدًا من بومباي. شدّ الريحاني الرحال إلى نجد بعد أن حصل على إذن المندوب السامي الإنكليزي في العراق. ورافقه في رحلته أحدُ كتَّاب ديوان السلطان عبد العزيز إذ أعلمه بأن هذا الأخير سمع عنه وعن مواقفه المساندة للعرب ويرغب في استقباله وينتظره في الحسا.

في البحرين

المحطة الأولى في الرحلة كانت البحرين: «باب نجد الشرقي». هناك وصلت الريحاني رسالة مطلعها: «من عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل آل سعود إلى حضرة الوطني الغيور والمصْلح الكبير أمين أفندي الريحاني المحترم دامت أفضاله آمين»، يُعرب فيها الملك عن سروره باستقبال ضيفه: «باللّه لقد سررت جدًّا، فطالما كنت مشتاقًا لِلُقْياكم.

وقد حققت الأيام شوقي والحمد للّه». تشي هذه العبارات بالتواضع والبساطة، وكذلك بما كان يشغل هذا الحاكم من أمر العرب.

نجد فالأحساء

تمّ الدخول إلى نجد من بوابة العقير (إحدى موانئ السلطان الثلاثة مع القطيف والجبيل) وفيها تتبادل سفُنُ اليَمِّ وسفنُ الصحراء بضائعَها: الأرُزّ والسكّر من بومباي إلى ما وراء الدهناء، والتمر والجلود والصوف والسمن إلى البحرين ومنها إلى ما وراء الخليج والبحار. بعد استراحة قصيرة استؤنفت الرحلة على متن «الذلول» إلى الأحساء عبر صحراء النفوذ. ولا يفوت الريحاني أن يعرّف عن هذه الأماكن في الهوامش: مساحتها، موقعها الجغرافي، تكوينها الجيولوجي، إلخ، ويشرح بعض المفردات الخاصة باللهجة السعودية.

كان لا بد من وقفة استراحة في أم الذّر حيث الماء والكلأ: «طفق الركب ينكتون الرمل بأيديهم فيظهر الماء تحت قدم أو قدمين» قبل أن يكمل الطريق للمبيت في «العلاة» حيث نُصبت الخيام. هناك استسلم المسافر، بعد أن أنهكه التعب، لجمالات المكان: «تملّكني السرور ورحت أتغنى بمدح أرض يحلو هواؤها، يحلو شكلها وفسحاتها، ويحلو لونها وسكونها. يحلو وطْؤْها، تحلو مجستها.» وما ذلك الإحساس بالمتعة إلا لشعوره بدنوّ تحقيق الحلم الذي راوده طويلاً وتحمَّل في سبيل تحققه المشقة والصعاب. وبينما هو في هذه الحال أتاه النبأ السعيد: وصل السلطان.

اللقاء الأول: شخصية ابن سعود

«كانت المشاهدة الأولى على الرمل، تحت السماء والنجوم، وفي نور النيران المتقّدة حولنا. أَلْفَيْتُهُ رجلاً لا يمتاز ظاهرًا بغير طوله، وكان يلبس ثوبًا أبيض، وعباءة بُنيَّة، وعقالاً مُقَصَّبًا فوق كوفية من القطن حمراء». ولا يخفى ما في هذا الوصف من إعجاب بل انجذاب شديد يشي به حقل دلالي غني بالنور كما الاستخدام المقصود لكلمة «المشاهدة» عوض اللقاء، كأننا أمام «ظهور» بالمعنى العجائبي للكلمة.

كان الريحاني سمع الكثير عن عبد العزيز الذي تضاربت حوله الآراء: فهو من منظور أهل الحجاز والعراق «بدوي جاهل جلْف، لا قلب ولا دين له. هو من الخوارج الذين يخدعون وينافقون باسم الدين»، أما في الحُديدة وفي عدن وفي دار الوكالة البريطانية في بغداد فهو «رجل كبير، ونابغة

بلاده، والسياسي المحنك والقائد الباسل والحاكم العادل وهو أكبر أمراء العرب وأقواهم...» (ص ٥٠٧). لكن الريحاني، على طريقة رجُل العلم، حافظ على مسافته من الرأْيَيْن، محاولاً أن يعيد كلًّا منهما إلى الدوافع والأسباب. فالرأي الأول «ثمرة العداء القديم بين أهل مكة والأشراف وبين الوهابيين»، أما الآخَر فـ«يكون مصدره السياسة أو المصلحة السياسية».

ابن سعود كان يعرف الريحاني

من جهته، كان السلطان عبد العزيز قد وصلته أخبار متناقضة تتعلق بالريحاني: «قالوا لنا إنك أَمريكي وجئت تبشر بالدين المسيحي في البلاد العربية، وقالوا إنك تمثِّل بعض الشركات وجئت تبغي الامتيازات، وقالوا إنك قادم من الحجاز وإنك شريفيٌّ تسعى لتحقيق دعوة الشريف، وقالوا غير ذلك، فقلنا إذا كان في الرجل ما يُضرّ فنحن نعرف كيف نتّقيه. وإذا كان فيه ما يَنفع فنعرف أيضا كيف ننتفع. ونحن أعلم يا حضرة الأستاذ بمهمتك. بارك الله فيك» (ص٥٢٣). يشير ذلك إلى سمة مشتركة بين الرجلَين: كلاهما لا يأخذ بالأحكام المسْبقة، ويحرص على تكوين رأيه الحر بناءً على الخبرة والتجربة. وموقف الملك عبد العزيز يدُلُّ على ذكائه وثقته بنفسه ومتابعته مجريات الأحداث ومواقف الريحاني منها، ما كان كافيًا لإبعاد الشبهة عن هذا الأخير وللترحيب به ضيفًا عزيزًا: «كيف نردّ من يبغي زيارتنا وهو من صميم العرب؟ (ص ٥٢٢).

غاية الزيارة

لم يخِب ظن الأمير في الزائر الكريم الذي أعلن له صراحة عن غايته من هذه الزيارة: التعرُّف إلى الملك والتعريف بالمملكة وأحوالها من خلال الكتابة عن مشاهداته، وأخيرًا المساهمة في مد الجسور بين الأمراء العرب الذين لا يعرف الواحد منهم الآخر معرفة حقيقية، وذلك للمساعدة على تذليل عقبات تَحول دون الْتقاهم بينهم وبالتالي دون اجتماعهم وتحقيق الوحدة العربية. قابل الملك هذه الصراحة بمثلها فأتى ردّه مباشرًا حاسمًا: «ومن هُم العرب، حِنًّا العرب... أنا أعرفهم. خبرتهم وعجنت عودهم، العرب يا حضرة الأستاذ لا يعرفون إلا مصلحتهم وغالبًا لا يعرفونها فنُعْلمهم بها ونُكْرهُهُم عليها. أتعرف يا أستاذ أننا أول من دعا أمراء العرب إلى الاجتماع والائتلاف؟ سنُطلعك إن شاء الله على ما يثبت ذلك» (ص ٥٢٤).

إعجاب بابن سعود

إِثْرَ هذا اللقاء سارع الريحاني إلى دفتر مذكراته ليدوِّن انطباعه الأول يخطّه في سطور تكشف عن إعجاب شديد، بل ربما عن انبهار، وتؤشر لمستقبل العلاقة بين الرجلين: «ها قد قابلتُ أمراء العرب كلَّهم، فما وجدتُ فيهم أكبر من هذا الرجل. فهو حقًا كبير: كبير في مصافحته، كبير في ابتسامته، وفي كلامه وفي نظراته وفي ضربه الأرض بعصاه. يُفصح في أول جلسة عن فكره ولا يخشى أحدًا من الناس. رجل يعرف نفسه ويثق بَعْد الله بنفسه. جئت ابن سعود والقلْب فارغ من البغض ومن الحب... وها قد ملأ القلب، ملأه حبًّا في أول جلسة جلسناها. إني سعيد لأني زرت ابن سعود بعد أن زرتهم كلهم. هو حقا مسك الختام» (ص ٥٢٥). لا يتعب الريحاني من الحديث عن مضيفه فيكرِّس مقاطع عدة من كتابه تارةً لالتقاط صورته من الخارج، وطورًا لتفصيل مزاياه الأخلاقية: حازم وحاسم وعادل وكريم، يتمتع بالشهامة العربية والعنفوان وقوة الشكيمة، وهو محاور فطن، قوي الحجة، سريع البديهة، إضافة إليى ما لديه من روح النكتة. لا شكّ في أن الكيمياء بين الضيف والمضيف كانت عالية جدًّا.

ابن سعود: التوجهات السياسية

سرعان ما حاز الريحاني على ثقة ابن سعود الذي راح يكاشفه في أمور السياسة. فهو مستاء من الإنكليز الذين يتآمرون عليه، وينظر بعين الريبة إلى الأمراء الذين نصَّبَهم الإنكليز في العراق والحجاز والأردن: الشريف حسين في الحجاز، ابنه عبدالله في شرق الأردن، ابنه فيصل في العراق، وهؤلاء جميعًا يناصبونه العداء. فهو حليف الوهابيين وبالتالي يعتبرون أنه «خارجي وكافر». في المقابل ينظر ابن سعود بإيجابية إلى أميركا: «أميركا أُمُّ الشعوب الضعيفة. ونحن العرب منهم». أما أوروبا فيراها «أشبه بباب حديد كبير لكن لا شيء داخل الباب». يدرك ابن سعود مكامن قوته، فهو قد نجح في توحيد القبائل، وانتصر على ابن الرشيد، واستعاد نجد والقصيم، وهزم الترك في الأحساء والقطيف». لكنه لم يكتفِ بذلك لقناعته أنَّ لأجداده أملاكًا تمتد شرقًا وغربًا، جنوبًا وشمالاً. وهذا ما يفسر إلحاح ابن سعود على استعادة الأراضي بين نجد والعراق حيث تعيش عشيرتان يعتبرهما من رعايا آل سعود: عشيرة الرولا وعشيرة العمارات. وكان له ذلك نتيجةَ وساطة الإنكليز في مؤتمر العقير حيث برع في الدفاع عن حقه وفي إقناع الإنكليز من خلال مرافعة تميز فيها بالجرأة والصلابة بل البطش: «... فعشائر العراق لا ترتاح إلى حكومة قوية شديدة الساعد.

العشائر يا حضرة المندوب لا يفهمون إلا بالسيف. اشهروا السيف يرتدعوا، يتأدبوا. إغمدوا السيف يقتتلوا وينهبوا» (ص ٥٥١).

أوروبا من الرياض

إن قراءة الحاضر على ضوء الماضي تقودنا إلى الاعتراف بأن العلاقات الأميركية السعودية متجذرة في التاريخ، وأن العلاقة بالإنكليز طالما كانت مشوبة بالحذر وقلة الثقة. أما أوروبا، منظورًا إليها من الرياض، فليست بلاعب أساسي، ولا تحظى بكبير اهتمام. ويتضح لنا أن للانقسامات العربية جذورًا ضاربة في التاريخ قد تكون لها أسباب إثنولوجية أنتروبولوجية. فالعرب في شبه الجزيرة وفي العراق وفي الأردن هم في الأصل قبائل، وكما قبل نشأة الدول كانت القبائل تتناحر في ما بينها، وتخوض الحروب بعضها على بعض بحثًا عن الماء والكلأ، كذلك حكّام العرب بغالبيتهم لا يزالون يحكمون بعقلية سيّد القبيلة، تفرّق بينهم المطامع والأهواء والصراع على بسط النفوذ، يمدّون يدهم للأجنبي (المتآمر عليهم بكل حال) ليستعينوا به على الآخرين. قد يقول قائل إنّ الظروف تتغير وكذلك عقليات الشعوب وثقافتها، إلا أن ذلك لا يمحو ترسبات التاريخ.

إعادة تعريف العروبة

هذه الخلاصة تقودنا إلى إعادة النظر في تعريف العروبة، وهو في ظني أمر مطلوبٌ، خاصة في المرحلة الراهنة، ما قد يحتمل النظر في المفهوم على ضوء الجغرافيا والإثنولوجيا كما التاريخ واللغة. وفي رأيي أن اللغة هي العامل الثابت الوحيد في تحديد الهوية العربية الجامعة، فيما العوامل الأخرى تبقى متغيرات تحتمل النقاش.

يبقى أن نعترف للريحاني بكبير الفضل لِمساهمته الفعالة في التعريف بالجزيرة العربية عمومًا، وبملوكها وأمرائها خصوصًا، وما شهدَتْهُ من أحداث وتطورات تاريخية في بداية القرن العشرين حين كان الاستعمار يرسم خرائط الدول. كل ذلك بَيِّنٌ من خلال كتاب يجمع بين سلاسة الأسلوب ودقة الوصف وجمال التعبير وثراء المعلومات.

هذا كتاب يظل يتمتع بالراهنية مهما طال عليه الزمن.

د. غالب غانم:
لقاء الحقيقة والحرّية



يُقرأ كتاب «ملوك العرب» كحُلم ذاتيّ تحقّق، كبرهانٍ على انبعاث أدب الرحلة في مُقتبل النهضة الثانية، كدليلٍ تاريخيّ جغرافيّ عربيّ رافلٍ بالمشاهدات والأحداث واللُّقيّات، كمغامرةٍ وسبْق وتجاوُز، كمجموعةِ مِتَعٍ يوفّرها أسلوبُهُ وفراستُهُ وحدسُهُ وعدستُهُ، كَتَوقٍ إلى تقريبِ الشّتيت العربي بعضًا من بعض وإلى توحيده ولو «بخيطٍ من حرير» كما جاء على لسان صاحبه... ولكنّه، فوق ما يحملُهُ من القراءات ومن المسرّات والمشقّات وضروب الاستطلاع والتطّلع وألوان الفنّ، يُقرأ كشهادةٍ على لقاء الحقيقة والحرّية... إنّهما الرّفيقتان اللّتان لازمتا أمين الريحاني في حلّه وترحاله، في واديه ومغتربه، في أدبه وفلسفته، في أمانيه وتجاربه، وفي كلّ نبرةٍ من نبراتِ قلمه وصبوةٍ من صبواتِ نفسه.

المئويات الأربع

في العام ٢٠٠٩ أقام هذا المنبر الجامعي التراثي اللمّاح منتدًى محوَرُهُ الرّجل إيّاه، شاركتُ عبره بكلمة تناوَلَتْ محاضرةً له ألقاها في بيروت سنة ١٩٠٩ حول مدينته المنشودة العظمى المسمّاة «مدينةَ الحريّة»، فكانت مئويّةٌ أولى قلتُ بمناسبتها: «كان ذلك قبل مائة عام بالتمام، والشرقُ في الهزيع الأخير من ليلِ الأفول، والغلبةُ للسلاسل والظلامات، ومنازلُ الاستعباد كثيرةٌ بَيْنا الحريّة على تيهانٍ وقلق... في العصيب من الأزمنة، والملبّدِ من الآفاق، أتاك فتى المتن الأغرّ، رحّالة الجسدِ والروح والثقافات، يحدّثُ أهل بيروت عن الحريّة. تخيّلتهم، هؤلاء، لا لذّةَ لديهم تُعادلُ لذّة الإصغاء إلى الأمين الشجاع، ولا مساومةَ على حقّهم في النّهوض. وإذا كان بعضهم يتسلّل إلى الحفل تسلّلاً حتى لا يقع في دائرة العيون الجائرة، فما ذلك إلاّ ليزيد شحنةً على ما في قلبه من شحنات عِزّ، وليصبح أهلاً، مع كوكبةٍ من الرّفاق، لصياغةِ أناشيد الحياة.»

مئويّةٌ أولى لـ «المدينةِ العظمى»، وثانيةٌ لـ «كتاب خالد»، وثالثةٌ للريادة في الشعر منثورًا ومطيَّبًا ومُندًّى، ورابعةٌ لـ«ملوك العرب». مثلُ هذا الفاتح، كلّما ضرب قلمُهُ ضربةً في سهول الورق الخضيبة، تفجّرت ينابيع، وأعِدّتْ العُدّةُ لمئويةٍ تلوَ مئويّة.

من الوادي إلى البحر

في مقدّمة الكتاب، وَخَلل فصوله، ندرك أنّ الفتى الشجاع الثائر يشِبّ في جنبات وادي الفريكة فيرى نفسه في مهد الحريّة وحصنها الحصين («ملوك العرب»، الجزء الأول، ص ٩). ويقرأ «لزوميّات» أبي العلاء مترنّحًا ومفاخرًا بأنّه من الأمّة التي نبغ فيها هذا الشاعر الحرّ (ذاته، ص ٧). ويغدو في أميركا فيُعجَب بحريّة الشعب الأميركي في الفكر والقول والعمل (ذاته، ص٥). ثم ينزل بلاد العرب الأقحاح فيقترن ثانيةً بالحريّة وإن بثوبِ عرسٍ آخر من أثوابها (الجزء الثاني، ص ٣١١). ويعاهد السلطان عبد العزيز علَى أن يكون ما يقوله وما يكتبه حرًّا صريحًا (ذاته، ص ٤١). ويسمع من أهل اليمن أنّهم يحبّون الحرّية ويموتون من أجلها (الجزء الأوّل، ص ٧٧) ومن أجلها يُميتون. ويهتف للحريّة حتى ولو كانت على خشونةٍ عند أهل البادية. ثم يذهب به الحنين إلى عالم البحر فينعتق من «ساحل العزلة العربية» وينطلق إلى الرحبات. بعد جولةٍ في إحدى الفلوات يقول: «البحر! ذاك الخطُّ الأزرق على الأفق أمامنا، ذاك العلم الأزرق على ساحةَ العزلة العربية، ذلك الطريق إلى الأهل، إلى الأوطان، إلى المدينة، وفيه الأمل الكبير بالعَود إلى الحياة، والجهاد. البحر! إنّ ألطف ما لقيناه بعد صنعاء وتهامة، وأبهجَ ما شاهدته آنئذٍ العين، إنّما هو البحر».

يُفلتون من نير إلى آخَر

قد تطيح تقلّبات السّاحة والسّاعة بما رسمه الريحاني من صُوَر الحرّية. وقد ينقلب المشهد إذا تبدّلت زاوية الإطلاق، فتُسدَل الأسترة ويضيق الخناق بعد فضاء الحريّة وشميمها. ومثالُ ذلك في الأثر عينه أنّه، بعد نعْت واديه بمهد الحريّة، يقرّر هجره اجتنابًا لكلّ مظلمة وكلّ عبودية لفَتَه إليهما صديقه محمد كرد علي الذي نزل عليه ضيفًا في الفريكة، لائذًا من الجور العثماني (الجزء الاول، ص ١٠). والجهاد المادي في أميركا يحجب جوهرة الحرّية لدى استحالته تكالُبًا في سُبُل العيش والثراء (ذاته، ص ٥). وفلوات الحرّية تنقلب إلى ساحاتٍ معزولة عن حركة

الحياة. والعرب الذين قال فيهم يومذاك: «تعالوا سيحوا معي فتعودوا إلى بلاد عجيبة على فقرها، وإلى شعب كريم على آفاته، وإلى أمّة حرة أبيّة على ذنوبها» (الجزء الأوّل ص ١٧)... العرب هؤلاء، يُفلتون من نيرٍ ليعانوا من نيرٍ آخر، فيما بعض حكّامهم راضٍ أو مستكين أو صاغر.

بانتظار أفق أوسع

ألقى صاحب «ملوك العرب» رذاذَ الحريّة في بعض تضاعيف كتابه، وأمدَّه ببعض نشقاتها، لأنّها من طبائع نفسه ومكتسبات ثقافته الإنسانيّة. ولكنّ مضارب هذه الرفيقة وخيامها ودفقاتها وعواصفها بقيَت طيّ قلمه وطيّ ذاته، بانتظار أفقٍ أوسعَ ومَشْرقٍ أسطعَ من مَشارقِ النّفس ومَشارقِ النّهضة.

وآن قرّر الذهاب إلى الحقيقة في محطّات رحلته، مهّد لها بطرحٍ فيه من اللّياقة والتحفُّظ ما فيه من الخيال الأدبي والنزوع الفلسفي. أرادها غير مجرّدة لأنّ في التجرّد عُريًا وسوءَ أدب، ولأنّه لا يأتلفُ والروح الشرقية العربية ويُحاكي نسقًا من أنساقِ الغرب. وما الضرر -يقول- «في اليسير من المساحيق والألوان، وفي المهلهل المطرّز من الكساء؟ إذا كانت الحقيقة المجرّدة جميلةً فهي في ثوبها المهلهل أجمل. إلاّ أنّها في كلّ حال لا تجالس التعصّب، ولا تدنو من التشيّع والتشنيع. فمن هذه الوجهة لك أن تحسبها مجرّدة كلّ التجرّد.» (الجزء الأوّل، ص ١٩). أبى أن تكون الحقيقة مجرّدة وطَلاها ببعض المساحيق حتى لا يسيئ، بعرفي، إلى الوسط الذي حلّ فيه، ولكنّه شاءها مجرّدةً كلّ التجرّد حين جاهر بنفورها من التعصّب الذي يعكس واقعًا ساد في ذلك الوسط.

الحقائق التاريخية والنهضات الخطيرة

قرّر الذهاب إلى الحقيقة في غمرات الخطر، وأودعَ لدى أحد القناصل عنوانَيْن: في بيروت وفي نيويورك لينعاه في الأقلّ إلى أهله إذا أصابه المكروه الأكبر (الجزء الأول، ص ٨٧). وتحسُّبًا لتسآلٍ محرج يكشف مارونيّته أو مسيحيّته أو... داروينيّته. هيّأ هذه الإجابة المشْبعةً بحقيقةٍ آمن بها: «أنا عربيٌّ يا حضرة الأمير، أحترم كلّ المذاهب الإسلاميّة، وأحبّ العرب، وأتمثّل دائمًا في مثل هذا الموقف بقول الشاعر:

ولكلّ ربعٍ من ربوعكِ حرمةٌ

وهوىً تغلغل في صميم فؤادي.» (ذاته، ص١٠١).

وحذّر من تخبّط بعض العرب في الحقيقة المشوّهة أو المطموسة أو المجهولة (ذاته، ص ١٥١). وحدّث مضيفيه من الأئمة والملوك عن أنّ الحقائق التاريخيّة تدلّ على أنّ النهضات الخطيرة في الأمم لا تنشأ بطفرةٍ أو بقفزة، آملاً في أن يوقّعوا على معاهدة دبّج نصّها بنفسه، وجعلها تمتّن الأواصر فيما بينهم، وتمهّد لعهودٍ من التفاهم والأُخُوّة والوحدة (ذاته، ص ٢٢٤) المؤسَّسَةِ كلّها على «العلم والخبر اليقين» (ذاته، ص ١٥) وعلى التحليل والتعليل (الجزء الثاني، ص ٢٦)، شأنه في ذلك شأنُ طلاّب اليقين وعلماء التاريخ.

الحقائق المنشودة

الأخوّة العربية... وتليها اليقظة... وتليهما الوحدة القوميّة... هذه هي الحقائق الكبرى المنشودة التي سعى إليها واثقًا من أنّ اشتهار قلمه في العالَمَيْن الغربي والشرقي، وعلوّ مقصده في الالتفاتةِ إلى خير العرب، وتجرّده من ذاتيّة الأغراض والمنافع، ستفتح الطريق إلى قبوله في مجالس السلاطين وفي بطاناتهم. لأجلها ركب الصّعب، وجاب القفار، وامتطى الركّائب، وواجه الأخطار، وضبَط الطبائع، ورصَد التقاليد، وفضَّ غرائب اللّهجات، واحتمَل الوشايات... لأجلها بثّ روح المصالحة، وعاشر الملوك... ولأجلها روّض لسانه وقلمه على اللّيان والحكمة ولباقة التوجُّه، وأخمد النّار المتأججة في الطبقات الأعمق من وجدانه. ولولا ذلك لما صحّ له أن يجتاز فرسخًا واحدًا من فراسخ الرحلة، وأن يحظى بنعمة اللّقاء مع ملك واحد من ملوك العرب.

تذكرته الشُجاعة

ولكنّه، رغم وجوه التحفّظ هذه، ورغم ما في ريشته الأدبية من شذرات طريئة وغلالات رقيقة ونفثاتٍ معطّرة، عادت الحقيقة تلفحه بلفحاتها، وتدفعه على المجاهرة بآراء لم يجرؤ سواه على المجاهرة بها، ومنها ختام سِفْره الجليل بهذه التذكرة الشّجاعة التي حكمت على ملوكٍ سلفتْ عهودهم من خلال موقف الرّعايا منهم قال:

«رعيّةُ الملك حسين تُطيعُهُ وتخافُهُ.

رعيّةُ ابن سعود تطيعُهُ وتحبُّهُ.

رعيّة الإمام يحي تطيعُهُ دونَ حبّ ودون خوف.

رعيّةُ الملك فيصل لا تخاف ولا تحبّ ولا تُطيع إلاّ مكرهة.

من يسُود العرب؟

«مَنْ مِن الملوك المذكورين في شبه الجزيرة يستحقّ أن يسود العرب؟»

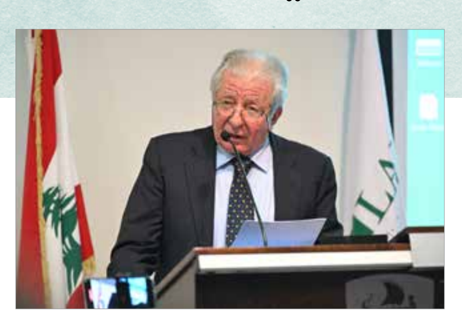
الكلام له، وله الجواب.

ولنا أن نستقي من لقاء الحقيقة والحرّية في جعابه الكثيرة، سواء ارتفع منسوبها في موضع وانخفض في موضع آخر. لقد رافقتاه كظلّ قلمه. وهما، منهجيًّا، فيٍ صدارة العدّة التي يتّوسّلها الفيلسوف والمؤرّخ والرّحالة والمصْلح والثائر، حتى أنّه لا غنية للأديب عنهما في أحايين جمّة. وقد جمع الريحاني في ثمرات قلمه بين هذه جميعًا.

«ملوك العرب»، في ضوء هذه القراءة العَجلى، كان كشفًا عن حقيقة وحرّية قائمَتَيْن في واقع الجزيرة العربية، وبحثًا عن حقيقة وحرّية منشودتين في خاطر أمين الريحاني.

ثمّة وراء عدسة صاحبه ما هو أبعد من التوصيف. عنيتُ الأماني القابعة في باطنِ الأسطر، أو شريط الحلم الذي لم ينتهِ أو ... لم يبدأ بعد.

أمين ألبرت الريحاني: ملامحُ الوجوه ومعالمُ الأرض أمام الصحافة العالمية



ربما توغّل الريحاني في معنى أهمية الكاتب المتعدد الثقافات مع البدء بتدوين كتابه **ملوك العرب**. فهو فيه ليس الكاتبَ العربي المتمرِّس في الشؤون العربية بعيدًا عن الهموم الأوروبيّة والأميركيّة، أو عن مُعضلات التطوُّر الحضاري البشري حول العالم، ولا هو ذلك الكاتب المتبحِّر في شؤون اللغة الإنكليزية وشجونها ومواضيعها وهمومها دون سواها. ويبدو أنه، لحظةَ أمسك بالقلم للمباشرة بتأليف كتابه **ملوك العرب**، أدرك من الصفحة الأولى أنّ العِبْءَ كبيرٌ وعميق وثقيل، وعليه أن يُهَيِّئَ كلّ معرفتِه وإمكاناتِه الأدبية والفكرية والسياسية والفنيّة للقيام بهذه المهمّةِ الكبرى، مهمةِ «خالد» لطرح مشروع «المدينة العُظمى» ونقْلِها من حيّز التنظير الفلسفي إلى حيِّز التطبيق السياسيّ.

عبقرية الريشة في القلم

تبسيطًا هذه المهمَّةَ رأى، منذ الصفحة الأولى من سِفْرِ الملوك، أنْ يبدأ بأنْ يُغْنيها فكرًا وأدبًا وسياسةً وفنًّا حتى الصفحة الأخيرة. قد يُخفِقُ هنا ويبدعُ هناك، لكنّه في نهاية المطاف يخرجُ بزاد وفير ويزرع بِذرَةَ الوفاق والاتحاد ساعيًا إلى تحقيق المعالم الكبرى لـ«مدينتِهِ العظمى» والخِصال الرئيسة للإنسانِ المتفوق. ويبرز ذلك في جملة خصائص، أبرزُها سَبْعٌ:

١. الأخْذُ بملامح الوجوهِ العربية، كبيرِها وصغيرِها، بدقَّةٍ فنية، وبَصَرٍ ثاقب، وبَصِيرةٍ متوهَّجة، كثيرًا ما تنفذُ من الشكلِ إلى ما يوحيه الشكل، ومن الملْمح إلى الدلالة.

٢. التنبُّهُ إلى العادات والتقاليد: ما هو عربيٌّ قائمٌ أصيل، وما هو وافدٌ دخيل. ومن ثَمّ ما تعنيه الأصالةُ من صلابةٍ وعراقة في القيَم، وما توحيه العُجمةُ من تخبُّطٍ وتضعْضُع.

٣. لتوقُّفُ عند مشهديّاتِ الطبيعة وجمالاتِها بوصفٍ حيٍّ يربِطُنا مباشرة بمسألتين: العلائية الفلسفيّة الضامنة، والبيئة السياسية الحاضنة.

٤. البحثُ عن الحقيقة، وقولُها بصدقٍ وأمانة ومحبّة وإخلاص.

٥. وقّفُ عند النواقص، والتطلُّعُ إلى ما يخفّفُ من مساوِئِها وما يعزّزُ تلافيها.

٦. السلوك المرتبط بقيم أخلاقيّة يصح مع الراعي كما مع الرعيّة، مع الملوك الحُكّام كما مع عامّة المواطنين.

٧. الانتقالُ السَلِس من الأدب إلى السياسة، ومن السياسة إلى الوطنية، ومن الوطنيّة إلى فلسفة «المدينة العُظمى» والإنسان المتفوق.

تطولُ لائحة الخصائص. أكتفي بهذه السبع أعلاه، وأتَوَقَفُ عند اثنَتين منها:

أَوّلاً: ملامح الوجوه

منذ الصفحة الأولى من الفصل الأول يتحول القلم بين أنامل المؤلف إلى ريشة بارعة. قد لا تعيرُ اهتمامًا إلى التفاصيلِ المادية الفيزيونومية لكنّها تعيرُ كُلَّ الاهتمام إلى تفاصيلَ شكليّةٍ لتنتقلَ إلى خصائصَ شخصيّةٍ تدفعُ القارئَ إلى متابعةِ هذا الضرب من التحليل الشخصي والإنساني بمزيد من الاهتمام والتشويق.

١. الملك حسين

شاء الريحاني أن تَعْمَلَ ريشتُه وتَحُلَّ محلَّ قلمِه، كما في توقُّفِه أمام وجهِ الملك حسين: «رَسْمُ الملك حسين الذي نُشِر في أوروبا وأميركا أثناء الحرب لا يُشبهُه ولا يُمَثِّل ما في وجهِهِ من البشاشة، وقد مازَجَها شيءٌ من الغَمّ، ومن الجلالِ المقرونِ باللُطف وليس فيه تصنّعٌ واعتناء.»[1] هي دهشةُ الريحاني الأولى حملَتهُ على تصحيح صورة ملَكية نُقِلَت مغلوطةً إلى الغرب، لينتقلَ إلى الدهشة الثانية في تصحيح آخَر من رَسْم مَلكَيٍّ قَطوب، قاسٍ، جافٍّ إلى حقيقةِ وجهٍ مَلَكيٍّ فيه سيماءُ جلالٍ طبيعيٍّ لم يُشاهدْ مثلَه في غيرِه من ملوكِ العرب. بل فيه «تتجلَّى روحانيّةٌ شرقيّةٌ قُرِنَتْ بالتأدُّب الغربي... إنّ في وجهه، كما في حديثه، عنصرَين من الأُنس والكياسة مما غابا، ويا للعجَب، في رسمه: الأوّل أخلاقيّ نبويّ، والثاني اجتماعي

١) أمين الريحاني، الأعمال العربية الكاملة، مجلد ٣، ملوك العرب، ج ١، ص ٢١٨٦، مقطع ٣٢.

اكتسابيّ...»[٢]. ويسترسلُ الريحاني في تَتَبُّع ملامح الوجه، وقد تحوّلَ قَلَمُ الكاتبِ إلى ريشةِ الرسّام، بتفاصيلِهِ الدقيقة مادّةً، والعريقة خطوطًا، والرقيقة ملمسًا وإيحاءً. فهو «رقيقُ الأديم صافِيْهِ... له جبينٌ رفيعٌ وضّاحٌ، يَظْهَرُ بكمال بهائِه عندما يَرفعُ العُقالَ ويَلْبَسُ العمامة. وفي ناظِرَيه نورٌ يَشِعُّ مِن حَدْقَتَين عسَلِيَّتَين تحيطُ بهما هالةٌ زرقاء. وله فوق ذلك ابتسامةٌ ما عَرَفْتُ أجذَبَ منها للقلوب غيرَ ابتسامةِ ابنِ سعود السلطان عبد العزيز.»[٣]

٢. الإمام يحيى

عند لقاء الرَيحاني الإمـامَ يحيى بن حميد الدين ملِك اليمن، قال: «دخلْنا فإذا نحن أمام رجلٍ رَبعِ القامة، ... أسمرِ اللون، عالي الجبين، مستديرِ الوجه قاتِمِهِ، له فَمٌ كفَمِ الطفلِ صغيرٌ بارز. إلاّ أنّ في مرونتِه، وهو يتكلّم، إشارةً تُقَرِّبُه منكَ طَورًا وتارةً تُبعِدُه. وفي عَينَيه السوداوَين القريبتَين من أنفٍ قصيرٍ عريض، نورٌ يُضيْءُ وشرارةٌ في بعض الأحايين رَوّاعةٌ. وله لحيةٌ قصيرةٌ مُستديرةٌ سوداء، تتخلّلُها خيوطٌ من الشَيْب.»[٤] هذا الوصف الدقيق يُعزِّزُه رسمٌ للإمام يحيى بريشة الريحاني. هكذا يتبارى قلمُ الكاتب مع ريشته لتتطابقَ دقّةُ الوصف بدقّةِ الرسم في تتبُّعِه الملامحَ، ملامحَ الوجه، بلونِ بَشَرَتِه، وعالي جبينِهِ، وطفولةِ فمِه، ونورِ عينيه، ومُرونةِ نُطقِه. ولِرَسم الإمام يحيى قصةُ إنجاز المؤلف هذا العمَلَ الفنّي خِفيةً وتِباعًا كلّما جالسه وحادثه في الديوان الملَكي. فالإمام يحيى زيدي، والمذهب الزيدي لا يؤمن بالتصوير. وحين أخبره المؤلف عن إنجازِه رسمَ الإمام، صارَحَه القول إنّه فَعَلَ ذلك من أجل أن ينشرَ رسم ملِك اليمن إلى جانب صوَر ملوك العرب، إذا سَمَحَ الإمامُ بنشر ذلك الرسم. سأله الإمام: «وهل كنتُ أنا على درايةٍ بما كنتَ تَفعل لتنجزَ عملَك الفنّي»؟ فأجاب المؤلف: «لا يا مولاي. أنا عازمٌ على مصارحتكم بالأمر طالبًا موافقتَكم على نشْر هذا الرسم مع سائر الصوَر لملوك العرب في كتابي القادم». ردَّ الإمام: «طالما أنني لم أعلم بهذا الرسم في حينه، فلك ملْءُ الحريّة بأن تفعل به ما تشاء». وبعد نشْره في كتاب **ملوك العرب** نشرَت الـ«نيويورك تايمز» والـ«لندن تايمز» وسواهما من الصحافة العالمية هذا الرسم الوحيد للإمام يحيى ملك اليمن.[٥]

٢) المرجع نفسه، مج ٣، ج١، ص ٢١٨٦، مقطع ٣٣.

٣) المرجع السابق،

٤) المرجع السابق، ص ٢٢٥٩، المقطع ١٧٢.

٥) راجع رسم الإمام يحيى، ملك اليمن، بريشة المؤلِّف، في الأعمال العربيّة الكاملة، مجلد ٣، ص ٢٢٢٢.

٣. الملك عبدالعزيز

مع الملك عبد العزيز تختلف القصة إذ «كانت المشاهدة الأولى على الرمل، تحت السماء والنجوم، وفي نور النيران المُتَّقدة حولنا. ألْفَيتُهُ رجلاً لا يمتاز ظاهرًا بغير طولِه.»[٦] ثم يتوقّفُ عند المظهر الخارجي: «كان يَلبَس ثوبًا أبيض، وعباءةً بُنيّة، وعُقالاً مُقَصَّبًا فوق كَفّيّةٍ من القُطنِ حَمراء.»[٧] ثم يتساءلُ بشيءٍ من الاستغراب: أين أبّهةُ الملكِ وفخفخةُ السلطة؟ لإنكَ لا تجِدُها في نجد وسُلطانِها. ولأنّ أوّلَ ما يَمْلِكُكَ منه ابتسامةٌ هي مغنطيسُ القلوب. لستُ أدري كيف حيّيتُهُ، وأنا في دهشةٍ وابتهاج من تلك المفاجأة الكبيرة. لكنّي أذكرُ أنّه حيّاني باسِمًا وظلّ قابضًا على يدي حتى دخلْنا الخَيمةَ فجَلَسَ، والنارُ أمامَه تُنيرُ وجهَهُ...[٨]

في الفصلِ التالي يسترسلُ في وصف الملك عبد العزيز، فينصرفُ إلى نقل صورةٍ دقيقةٍ وحيّة عن قامَةِ الرَجُلِ وساعدِهِ وشَعره ولباسِه وكلامِه ورضاه وغَيظِه... ويستعين المؤلف، كما السلطان، بأدوات تُعينُه على التعبير والإفصاح عن «تشكيل كلماتِه... وتمكينِها كالعصا... وله أناملُ طويلةٌ يشيرُ بها في مواقفِ البلاغة. ولهُ عينان عسَليّتان تُنيران أماكنَ العَطفِ واللُطفِ ساعة الرضى، وتُضرمان في كلامِهِ ساعة الغيظِ نارَ الغَضا. وله فمٌ هو كوَرَقِ الوَرْدِ في الحالةِ الأولى، وفي الحالةِ الثانية كالحديد. يتقلّصُ فيَشتَدّ فهو إذذاك كالنصلِ حَدًّا ومَضاءً...»[٩] ويتّضحُ كيف يستعينُ الريحاني بالحركة، على اختلاف أنواعِها ومستوياتِها، لمتابعةِ الرسم في الحالات المتناقضة المتأزِّمة، كما في الحالات الساكنة الهادئة والمتكاملة. وينتقلُ من تصوير المنظور إلى تصوير غير المنظور: «إنَّ في الرجل ضميرًا حَيًّا كحِلْمِه، وسُرعةَ خاطرٍ تقارنُ التيقّظَ في ذهنه، يُبَدِّدُ بكلمةٍ غيومَ الانقباض في مجلسه، ويجلو أفقًا قد يكون الاضطراب فيه من كلامِه.»[١٠]

٤. فيصل العراق

مع فيصل ملك العراق وجَدَ المؤلف نفسَه مدعوًّا ليستقبلَه الملكُ في منزله في بغداد... دخل الرَيحاني وبدَأ قلمُهُ بتسجيل الوقائع: «كان وجهُ

٦) المرجع السابق، ص ٢٥٠١-٢٥٠٢، المقطع ٣٩.

٧) المرجع نفسه، ص ٢٥٠٢.

٨) المرجع نفسه،

٩) المرجع السابق، ص ٢٥١٠، المقطع ٥٥.

١٠) المرجع نفسه، ص ٢٥١١، المقطع ٥٦.

[الملك] الذي شبّهَهُ أحدُ كُتّاب الإفرنج بوجهِ المسيح أشبهَ به يومئذٍ، على ما أظن، منهُ في الماضي. لأن المرضَ أكسبَه لونًا تخفُّ فيه حِدّةُ الحياة وتكادُ تَضمَحِلّ، فيمتزجُ امتزاجًا لطيفًا بالنورِ الناعم الجالسِ هادئًا في عينيه، ثم جوَّفَه قليلاً تحت العَظم الأعلى فصارَ يَظهَرُ ما فوقَهُ، أي الجبين، أكثَرَ اتساعًا ورفعَةً، وما دونَهَ مُستطيلاً مُسَنَّمًا. أمّا في صوتِه وابتسامتِه وإشاراتِه فكان أشبهَ بجلالةِ الملكِ أبيه.»[11] يتضح هنا كيف يستعينُ الكاتبُ مرّةً أخرى بريشة الرسام ليتأنّى برسم الخطوط والألوانِ والظِلال، كما يستعين بسلسلةٍ من التشابيهِ ليتحدّثَ عن صوتِ الملك وابتسامتِه وإشاراتِه. ويتسابق القلمُ الرسّامُ مع الريشة الكاتبة في استكمالِ الصورةِ المتكاملةِ أو اللوحةِ الجامعة لملكٍ أو شخصيّةٍ يريد الكاتبُ أن ينقلَها إلينا بكاملِ تفاصيلِها الخارجيّة والداخلية، الشكليَّةِ والمعنوية.

ثانيًا: معالِم الأرض

مثلما أراد الريحاني أن يصحِّحَ ويُحَسِّنَ ويُجَمِّلَ ملامح الوجوه قبل أن ينقُلَها إلى القارئ الغربي، هكذا شاء أن يُلوِّنَ ويُجَمِّلَ ويُحْيي وجه الأرض قبل أن ينقلَ معالمَها وأشكالَها وتضاريسَها إلى قارئِهِ الأوروبي والأميركي.

١. اليمن الأخضر

أبرز تلك المعالم ما يُزهِرُ على قلمِه في فصل «اليمَن الأخضر القديم»: «سرنا في أرض خضراء تفوح من أدغالها روائح النبات الطيِّبة، ومررنا بوادي الذهب. ولا حيف بالاسم، فهو من أجمل الأودية وأخصبِها في اليمن الأسفل، تجري فيه المياه، ويُزرَعُ ثلاثًا في السنة الواحدة. وصعِدنا من الوادي... فأشرفنا منه على مشهدٍ بهيج من السهول المزروعة، ومن القمم الخُضر والجُرد دونَ تلك السهول. ثم دخلنا في ما يُدعى «نجد الأحمر»، وهي بقعة من الأرض الحمراء، صخورُها تعلو أربعة آلاف قدَم عن البحر، فجفَّ الهواء وبردَ الماء وتعدَّدَت حولنا النباتات والرياحين التي ذَكَّرَني بعضُها بلبنان: هوذا البَيلَسان، وذاك اليانسون، وفي تلك الأدغال شُجَيرات من البطْم والغار...»[12] هكذا يشعر القارئ أن الكاتب يصف أرض اليمن أو بعضَها وكأنه يصفُ أرضَ لبنان بسهوله وجباله وأوديته. فالخضرةُ تكاد تكون واحدة، وكذلك الخِصب. والصورةُ القاتمة الدكناء التي تكثُرُ

١١) المرجع عينه، ص ٢٦٨٦، المقطع ٣٧٤.

١٢) المرجع السابق، ص ٢٢٤٢، المقطع ١٤٢.

في أوصاف المستشرقين عن البلدان العربية تنقلب بقلم الريحاني إلى صورة مُضيئة مُلوّنة مُشْرقة. ولا يعني ذلك أن أحدَ الكُتاب غيرُ صادق في كتاباته، بل يعني أنّ أحدَهم يرى القسم الفارغ من الزجاجة والآخر لا يرى سوى القسمِ الملآن. أو أنّ أحدَهم يرى بعينٍ قاسيةٍ وقلبٍ جاف، والآخر لا يرى سوى بِعينِ الحبِ والمشاعرِ والمودات.

٢. ماذا في نجد؟

وكما في الحجاز وعسير واليمن كذلك في نجد، ومنها الوشْم والقصيم والدهناء والحَفَر وسواها. فالوشْمُ، وَفقَ المؤلف، «مشهورٌ بقصورِه ومزارعِه وتاريخِه وتقاليدِه... أما ثرمدة فالماءُ المالحُ والماءُ القَراح يجريان فيها جنبًا إلى جنب تحت النخيل»[١٣] وتستوقفُه نساء «شقْرا» لِيقول نقلاً عن أميرِها بشيء من الكلام الضاحِك إن نساء شقرا «مقصورات الطرْف، لا يبغين خارج السور بديلاً.»[١٤] أما بلدةُ شقرا فـ«أجملُ بلدان الوشم وأكبرُها، نخِيلُها مثلُ نسائِها داخلَ السور، يُزَيِّنُ البيوتَ ويحجُبُ بعضَها عن بعض...»[١٥]

٣. الانتقاد الإيجابي

قد يتساءلُ القارئ: أكُلَّ ما يكتبُه الريحاني عن بلاد العرب جميلٌ ولافتٌ وإيجابي؟ لا. ففيها البلدة القذرة، والقرية الجافّة، والمدينة البعيدة الوَعِرَةُ الطرقات، والأطلال الدوارس التي كانت مُدُنًا عامرة أو واحاتٍ خضراء... لكن الكاتب يمرُّ عليها جميعًا ويدوّن أفكارَه وآراءَه بكثير من الوُدّ والحبّ والتقدير، وبقليل من الانتقاد والنُصح بالتغيير. فالريحاني في **ملوك العرب**، على نقيض المستشرقين، يقَدّم للقارئ الغربي صورةً حيّةً مُشْرقةً مضيئةً للعالم العربي الذي يُعِدُّه للقَبول بمشروعه المستقبلي، لخير العرب وخير الإنسانيّة على السواء.

٤. المشروع النهضوي

في **ملوك العرب** تنيرُ الوجوه وتُشرِقُ الأرض، لأن قلمَ الريحاني مرّ من هنا، من **قلب لبنان** إلى **قلب العراق**، وحلّق، قبل مئة عام، فوق القممِ والشواطئَ والمُدُنِ والصحارى العربيّة حتى المغربِ الأقصى،

١٣) المرجع نفسه، ص ٢٥٥٢، المقطعان ١٣٣ و١٣٤.

١٤) المرجع السابق.

١٥) المرجع السابق، ص ٢٥٥٣، المقطع ١٣٥.

فتواصَلَت الواحاتُ الخضراء، وامتدَّت الرمالُ الذهبية على مَدادِ قَلَمِه، لينشرَ الريحاني مشروعه النهضوي بين العرب أجمعين، ولِنشهدَ اليومَ، بعد مئة عام، البدءَ بتنفيذِهِ معالمَ «المدينةِ العظمى» والخطوطَ الرئيسة لمشروعِهِ، مشروعِ النهضةِ والحداثةِ والقيامة.

ثالثًا: "مُلُوك العرب" في الصحافة الدوليّة

لافتٌ موقفُ الصحافة الدولية من كتاب **ملوك العرب**، والتوقف عند نقاطٍ تُمَيِّزه لا بموضوعه فحسب بل بأسلوبه ومقارباته ومقارنته بمؤلفات مماثلة في الآداب الإنكليزيّة، وهنا نماذج:

«التايمز» و«الأُوبزرفر»

«من حسن الطالع أن الأستاذ الريحاني كان ينبغي أن يختار اللحظة الحالية لتأليف كتابه البارز عن الملك الوهابي وشعبه... وهو اكتسب باكرًا صداقة الملك الوهابي وثقته، فجاء لمقابلته بهدف تعزيز نظريته عن الوحدة العربية.» («التايمز»، لندن، ٩ آذار ١٩٢٨). وفي حين ركّزت «التايمز» على الصداقة والثقة المتبادلة بين الرجلَين لمناقشة النظرية المتعلقة بالوحدة العربية، توقفت صحيفة «الأوبزرفر» على المنحى التاريخي للكتاب مقابل المنحى السياسي والأدبي، فكتب السير إ. دينيسون روس: «لأول مرة لدينا كتاب بالإنكليزية كتبه رجل لغتُه الأمُ العربية... والكتاب، لطلاب السياسة الحالية، ذو قيمة كبيرة. أعطانا كتاب آخرون فكرة عن هذا الزعيم «البيوريتاني» لكنني لا أعتقد أن أيًّا منهم أتيحت له الفرصة ذاتها لدراسة أساليب وأخلاق ابن سعود وأتباعه عن قرب»(«الأوبزرفر» اللندنية، ١١ آذار ١٩٢٨). غير أن الملحق الأدبي لصحيفة «لندن تايمز» توقَّف عند أدب الريحاني بسرديته الدقيقة وأسلوبه الواضح وتفاصيله الواسعة حول العرب وجيرانهم، فكتبَتْ: «مضى وقت طويل منذ ظهور مثل هذه الأوصاف الدقيقة، المدونة بالإنكليزية بكثير من الوضوح وبأسلوب لائق، لقطاعات مختلفة وعلى نطاق مفصّل عن العرب والشعوب المجاورة» (الملحق الأدبي لـ«التايمز»، ١٥ آذار ١٩٢٨). وكانت المفاجأة من الصين في صحيفة «بكِّين تايمز»: «كتاب مناسب من تأليف أمين الريحاني الذي نجح بعد صعوبات كبيرة في اختراق عاصمة ابن سعود..» إشارة إلى صعوبات الترحال والتنقل في بلاد ما تزال قيد التكوين بعد الحرب العالمية الأولى ومع فجر الولادة والتأسيس (٢٧ آذار ١٩٢٨).

هو والمستشرقون

كأن كلّ ما سبقَ، تمهيدٌ للمقارنة البارزة بين الريحاني وكبار المستشرقين. كتبَ بي. و. ولسون: «من خلال عيون دوتي ولورانس... اطَّلَع معظمنا على حقائق الجزيرة العربية. لكن هذه المجلدات الحالية لأمين الريحاني [**صانع الجزيرة العربية الحديثة**] أتاحَت، من حسن حظنا، أن نشارك رؤية الشرقي نفسه... إن السيطرة على دقة لغتنا الشاذة التي كشفت عنها هذه الصفحات، أمر غريب. قراءة [هذا الكتاب] هي الاستمتاع بمتعة الموسيقى. ولدينا من أمين الريحاني صورة لذلك الزعيم الجليل ابن سعود...» (الـ«نيويورك تايمز» ١٣ أيّار ١٩٢٨).

من روسيا

بعد الصين تأتي المفاجأة من روسيا إذ يكتب المستشرق إنياس كراتشكوفسكي إلى صديقه أمين الريحاني، فيها: «سطوركم الجميلة تشفّ منها شخصيّتكم الخاصّة، ولا أرى مثيلاً لها بين الكُتّاب من أبناء العرب الناهضين في مختلف أنحاء العالم العربيّ...» (كتاب **الريحاني ومعاصروه**، ١٠ حزيران ١٩٢٨ ص ٢٥٦-٢٥٧). والصداقة بين الريحاني وكراتشكوفسكي تعود إلى لقائهما الأول في بيروت العام ١٩٠٧ ثم ١٩١٠ عند صدور كتاب **الريحانيّات**، ثم ١٩١٧ إذ ترجم كراتشكوفسكي **الريحانيّات** إلى اللغة الروسيّة.

مرجع شرق أوسطيّ

ويبدو أن الريحاني، في نظر أهل الفكر والأدب والسياسة والفلسفة في الغرب، أصبح مرجعًا للشؤون الشرق أوسطية، يستشيره الكبار في أوروبا والولايات المتحدة الأميركية. هوذا المؤرخ البريطاني آرنولد تُوْيْنْبي يراسل الريحاني: «أُرسل إليك هذه المسودات [حول الجزيرة العربية] آملاً أن يكون لديك بعض الوقت لتصفحها. إذا سمحَت ظروفك بذلك أكون ممتنًا جدًا لاستلام انتقاداتك الصريحة جدًا. أتصور أن لديك معرفةً مباشرة ببعض النقاط التي تم تناولها.» (المؤسسة الملَكيّة للشؤون الدوليّة، لندن، ٢٦ شباط ١٩٢٩). وتعود مجلة «المناقشات الأوروبية» للمقارنة بين أعمال الريحاني وأعمال بعض المستشرقين، فتركِّز على تجاوز المؤلفِ الوصفَ الأدبي إلى مناقشة الفكر الاجتماعي والديني والسياسي، ما يعزّز من قيمة الكتاب ومضامينه الفكريّة. جاء في المجلّة: «كتاب أمين الريحاني، وفيه دوَّن جميع انطباعاته عن رحلاته في جميع أنحاء أرض ابن سعود، يمثّل إضافة ثمينة بشكل خاص لأعمال فيلبي... وعلى خلاف وصف فيلبي

يخصِّص الريحاني فصولاً كاملة لعقيدة مؤسس الدولة وعقيدة الوهابيين والأحداث السياسية التي رصدها الريحاني» (Europaische Gesprache، هامبورغ، ألمانيا، عدد ٤، نيسان ١٩٢٩).

وكانت الصحافة الغربية تتابع نشاطات الريحاني وتواكب لقاءاته السياسيّة معتبرة إياه مرجعًا وحجّة في شؤون الشرق الأوسط. جاء في الـ«نيويورك تايمز»: «أمين الريحاني، الكاتب ورئيس وفد الجمعيات العربية المجتمعة في نيويورك، التقى رئيس وزراء بريطانيا العظمى ج. رامزي ماكدونالد وتحدَّثا عن المشاكل في الشرق الأدنى. وعن الريحاني أن ماكدونالد كان على معرفة أفضل بالوقائع الحقيقية (الـ«نيويورك تايمز»، ١٣ تشرين الأول ١٩٢٩). وتركّز الصحافة الغربية على رسالة الريحاني من خلال مؤلّفاته عن العرب فتنشر الـ«دايلي تلغراف»: «يواصل الريحاني مهمته الوطنية ساعيًا إلى تمهيد الطريق للتفاهم بين ملوك العرب والأمراء الحاكمين الآخرين في الجزيرة العربية... وهو يصف بلطف ويعلق بِحُرّية...» (١٧ كانون الثاني ١٩٣٠). الجملة الأولى في هذا المقتبس تقريرية سرديّة، فيما الثانية نقدية لافتة تشير إلى صفتين مرتبطتَين بالوصف عند المؤلف وبالحريّة لديه. فوصفه «لطيف» وتعليقه «حر». وقد تعني صفة اللطف المعاني الكثيرة، أو لا تعني كبير شيء. واعتقد أن اللطف، ترجمةً لكلمة pleasant، تعني السَلِس والمحبَّب والقريب من القارئ. وأرى أن الحُرّ، ترجمةً لكلمة freely تعني القدير والمتجاوز الحواجز والأعراف. لذا تؤكد الـ«لندن تايمز» ملاحظاتها المماثلة أنه: «مؤلف ذو خبرة، قادر على التواصل الوثيق مع الشؤون المختلفة. نظرته واسعة ومستنيرة، ويجب أن تكون روايته عونًا لطلاب الشرق.» (الـ«لندن تايمز»، ١٧ كانون الثاني ١٩٣٠).

يتعذب مع المعذَّبين

من خصائص أدب الريحاني ما ذكرته الـ«صنداي تايمز» في مقالة إرنست مانتون: «أمين الريحاني مراقب حاد يكتب بتعاطف مع الحياة وطرق الناس في [شبه] الجزيرة العربية. وهو ينقل إلى قرائه شيئًا من سحر المدن العربية رغم غموضه...» (٢ آذار ١٩٣٠). وهنا تستوقفنا فكرة التعاطف مع الحياة، فنحن مع كاتبٍ قلمُه يتعاطف مع وجوه الألم ووجوه السعادة في الحياة: يتألّم مع المتألِّمين، يتعذّب مع المُعَذّبين، ويسعد مع السعداء؛ والفكرة الثانية أن هذا الكاتب يعرف كيف ينقل سحر المدن العربيّة، رغم غموضه، لأنّه يعرف كيف يترجم السحرَ الغامض إلى وهج صريح واضح مُعافَى. يعرف كيف يكتشف مواطنَ الجمال وسط تراكم البشاعات.

الـ«مانشستر غارديان» تختصر أدب الريحاني بأن «اسمه معروف لدى كل طالب في السياسة العربية المعاصرة... إن بصيرته، وملاحظته الحادة، وحكمه الذكي على الرجال لا تزال ذات قيمة في تشكيل الحكْم حتى على الظروف القائمة. يكتب بأسلوب حيوي وجذاب، وبطريقة تمكِّن حتى القارئ الإنكليزي من فهم سبب اكتسابه سمعة طيبة كواحد من أبرز المؤلفين العرب الأحياء.» (١٣ آذار ١٩٣٠). إنه الحكْم الذي يشمل المضمون عبر رؤية متبلورة يحملها في طيّات قلمه، كما يشمل الأسلوب عبر حيوية ساطعة، وجاذبيّة برّاقة.

المغامر الساخر

صحيفة «لو تان» الباريسيّة Le Temps تشطح نحو فن آخر شغَل الريحاني كهاوٍ لا كمحترف: الرسم. جاء فيها: «أمين الريحاني رسام يتمتع بالحياة والحيوية بأفكاره وفيزياء جسده وتقاليده في أيامنا هذه.» (١٤ آذار ١٩٣٠). وتأتي المفاجأة، هذه المرة، من جوهانسبورغ في جنوبي أفريقيا: «يأخذنا أمين الريحاني في جولة حول سواحل الجزيرة العربية مواكبًا نيران التعليقات الساخرة... ويقودنا إلى اليمن المُحَرّم حيث تحظى أسفاره باهتمام خاص نظرًا للخطر الذي تعرض له في زياراته...» (صحيفة «ذي ستار»، جوهانسبورغ، تشرين الأول ١٩٣٠). يشير هذا الكلام إلى السخرية والمغامرة عند الريحاني وهما ميزتان بارزتان في أدبه.

علَّ الحرية تحوِّل وجهها نحو الشرق

قلّة من الدارسين والنُقّاد اللبنانيين والعرب يدركون أهمية مواكبة الصحافة الغربيّة أدبَ أمين الريحاني. هذه النماذج أعلاه عيّنات من تلك المواكبة. وجدوا في أدبه الإنكليزي الكثير من الحيوية والدقة والواقعية والمعرفة الدقيقة والسخرية والتعاطف مع الحياة لبلورةِ صورة حديثة عن المجتمعات العربية كما عن الأزمات السياسية المستعصية في الشرق الأوسط، حافزُهُ معالمُ «المدينة العُظمَى»، هدفُهُ «حلمُ أمبراطورية» و«فجرُ الديمقراطيّة»، وطيفُ حريّةٍ علَّها «تُحوِّل وجهَها نحو الشرقِ، حجرِ الزاوية في أوّل هيكلٍ من هياكل اللّه.»

تراثُنا التاريخي

د. جورج نصّار
المدن والقرى اللُبنانيّة في كتب الجغرافيّين العرب
أصحاب «المسالك والممالك»

د. رجاء لبكي
المجاعة والحرب العالمية الاولى وانعكاساتهما
على النشاط المادي والحرفي والمهني
في قرية بعبدات نموذجًا

المدن والقرى اللُبنانيّة في كتب الجغرافيّين العرب أصحاب «المسالك والممالك»

د. جورج نصّار

مقدمة

لم تُستعمَل كَلمة جغرافيا إلاَّ حديثًا للدلالة على عِلْم الجغرافيا. وأطلقها قُدماء الجغرافيّين كعلْم على كتاب بطليموس المعروف في الجغرافيا، وعلى كِتاب مارينوس الصُوريِّ كما ذكر المسعوديّ في كتابه «التّنبيه والإشراف». وفُسّرت كلمة جغرافيا في هذا الموضع بأنها قطَع الأرض، أو صورة الأرض. من هنا سُمّيت كُتب الجغرافيّين والرحّالة بـ«صورة الأرض» كما في كتابَي ابن حوقل والخوارزميّ. ولم تتخذ هذه الكلمة معناها المعاصر في علْم الجغرافيا إلاّ في أزمنة حديثة[1].

إبّان الفتوحات الكبرى ازدادت معلومات العرب الواقعيّة عن العالم غير العربيّ ودوَّنوها في أوّل ما كتبوا عن هذه الفتوح. فكُتُب الحديث، وأبواب الفُتوح منها تحديدًا، هي صَدى ما دُوِّنَ من تلك المعلومات، لكنّها في جُملتها لا تُزوّدنا بمَعارِفَ جُغرافيّة مَميّزة، بل فيها ذِكرُ فضائل المُدُن والبلدان المختلفة كالمدينة وبيت المقدس والشام ومصر واليمن[2].

هكذا، مجموعاتُ كُتب الرحلات وغيرها من المعلومات العلميّة أدّت إلى ظهور مجموعة كُتب بِاسْم «المسالك والممالك»، أقدمها ما جمعه أبو العبّاس جعفر بن أحمد المروزيّ (ت. عام ٢٧٤ هـ./ ٨٨٧ م.)، ومنها رواية صاحب كتاب «الفِهرسْت». وإذا كان ابن خرداذبة (والأصح خُرّداذبة بالراء المشدّدة) وضع النسخة الأولى من مُصنّفه «المسالك والممالك» (نحو عام ٢٣٢ هـ./ ٨٤٦ م.) كما يظنّ ده غوي de Goeje، فرواية «الفِهرست» لا يمكن أن تكون صحيحة. ومن المؤلفين القدامى الذين صنّفوا كتابًا بهذا الاسم: أحمد بن محمد الطيّب السرخسيّ (ت. عام ٢٨٦ هـ./ ٨٩٩ م.)

---

١) كرامرز، **مقال جغرافيا: دائرة المعارف الإسلاميّة**، المجلد السابع، أصدرها باللغة العربية أحمد الشنتناوي، ابراهيم زكي خورشيد، عبد الحميد يونس، دار المعرفة، بيروت، لا ت، ص١١

٢) كرامرز، **المرجع نفسه**، ص١٣

لكنّه مفقود. وليس لدينا إلاّ كتاب ابن خرداذبة يزوّدنا بمعلومات فريدة ومميّزة[٣]، وهو يُعتبر أقدم جغرافيٍّ عربيّ. من هنا تعتبَر كُتب الرحلات مصادر جغرافيّة، يمكننا استعمال بعض ما وَصلنا منها كمصادر مباشرة. فالجغرافيّون المسلمون الذين كتبوا عن جولاتهم وزاروا أقطارًا خارج العالم الإسلاميّ (كالهند والصين وروسيا) كانت مَثارًا لإعجابهم وإعجاب قرّائهم. والرحلات في الأقطار الإسلاميّة لم تحتل مكانًا في الإنتاج الفكريّ حتى الحروب الصليبيّة. وعندما أخذت مكانها، كان معظمُ الرحّالة من مسلمين مغاربة دفعهم إلى الشّرق شوق الدراسة وحبّ الاستطلاع، مع أنّ فرسًا وأتراكًا تركوا وَصْفًا لِرَحَلاتِهم إلى المشرق، إنما لم يصلْنا إلاّ قليل ما كتبهُ الرحّالةُ المشارقة الذين طافوا بلاد الشام[٤].

قبل عصر الكُشوف كانت علوم الجغرافيا، كُلّها تقريبًا، حكرًا على الحضارة الإسلاميّة. ورغم ما فُقِدَ منها، لا تزال للجغرافيّين المسلمين وخاصّةً لجغرافيّي العصر الذهبيّ (القرن الرابع الهجريّ/العاشر الميلاديّ) أهميّة كبيرة لدى علماء الغرب.

ومن أبرز من كَتَبَ عن الجغرافيا الإسلاميّة، وتُعتَبَر مُؤَلَّفاتُهم إرثًا كلاسيكِيًّا: كرامرز صاحب مقال **GEOGRAPHIE**، ورينو M. Reinaud في مقدّمة ترجمته الفرنسيّة كتابَ أبي الفداء عن جغرافيا (**تقويم البلدان**) بعنوان **مقدّمة عامّة لجغرافيا الشرقيين Introduction générale à la géographie Des Orientaux**، إضافة إلى ما نشره بالروسيّة كراتشكوفسكي في كتابه تاريخ **الأدب الجغرافيّ**، وموسوعة ياقوت الحمويّ **معجم البلدان**، حقّقه فوستنفلد ونشره في ستّة مجلّدات سنة ١٨٦٦ - ١٨٧٣[٥]، إضافةً إلى كتاب البلدان لابن واضح اليعقوبيّ، والرسالة الموسومة بهذا الإسم أيضًا لابن الفقيه الهمذاني، وكتاب **الأعلاق النفيسة** لابن رسته، و**صورة الأرض** للخوارزميّ (مفقود)، وغيرها من المصنّفات للبيرونيّ في **قانون المسعوديّ**، و**كتاب الأطوال** الذي لا نَعرِفُ مُؤَلِفَهُ، وكتاب **الخراج** لابن قدامة، **والمسالك والممالك** للجيهانيّ، وكذلك البتّانيّ في كتابه **عن الأرض** (مفقود)، والبلخيّ في كتابه **صورة الأقاليم** (مُدمَج في كتاب الإصطخري **المسالك والممالك**) وكتاب ابن حوقل في **المسالك والممالك**، ولاحقًا أطلق ميلر K.Miller على أطلس البلخيّ

---

٣) كرامرز، **المرجع نفسه**، ص١٧

٤) جان سوفاجيه وكلود كاهُن، **مصادر دراسة التاريخ الإسلامي**، ترجمة د. عبد الستّار حلوجي ود. عبد الوهّاب علّوب، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨، ص٦٩

٥) جان سوفاجيه وكلود كاهن، **مصادر دراسة التاريخ الإسلاميّ**، ص٦٩

الجغرافيّ عنوان **أطلس الإسلام**، والمقدسيّ في كتابه **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، وكتاب حدود العالم** (مؤلف مجهول)، ثم المسعوديّ صاحب كتابيّ **مروج الذهب والتنبيه والإشراف**. ولم نعثر على كتاب محمّد بن يوسف الورّاق **المسالك والممالك** (مفقود)، لكنَّ البكريّ صاحب كتاب **المسالك والممالك** اعتمد عليه كثيرًا[٦].

لبنان (كما جاء في تقييم الأقاليم السبع التي تشكّل المعمورة من الأرض) هو ضمن الإقليم الثالث «قليم الشام». من هنا قول ابن أيبك الدواداري نَقلاً عن صاحب الجغرافيا: «الدنيا سبعة أقاليم، وكلّ اقليم تسعمائة فَرْسَخ في مِثلها، والبحر الأعظم مُحيطٌ بها، وجبل قاف وراء البحر، وأطرافُ السماء عليه كأطراف الخيمة على وجه الأرض. خُضرَةُ السّماء من لَونِهِ، وبُعْدِ السماء من مسافة الأرض يًبَيِّنُ أنّها زرقاء...». ثمّ رتّب الأقاليم هكذا: «أوّلها إقليم الهند، ثمَّ إقليم الحجاز، ثمَّ إقليم مصر[٧]، ثمّ إقليم بابل، ثمّ إقليم الروم، ثمّ إقليم الترك، ثمّ إقليم الصين[٨]. أمّا إقليم الشّام الثالث فيبتدئ من المشرق ويمرّ على بلاد الصين ثمّ على بلاد الهند، ثمّ على شماليّ بلاد السند، ثمّ على بلاد كابل وسجستان، ثمّ على سواحل بحر البصرة وفيه مدينة إصطخر وسبأ ونيسابور وشيرَز وسيراف، ثمّ يمرّ على كُوَر الأهواز والبصرة وبغداد والكوفة والأنبار وهيت، ثمّ يمرّ على بلاد الشام: حمص ودمشق وصور وعكّا وطبريّة وعسقلان وغزّة والقدس والرمّلة، ثمّ يقطع أسفل مصر ويمرّ على تنّيس ودمياط والفسطاط مع الفيّوم والإسكندريّة، ثمّ يردّ على بلاد المغرب ويدخلُ في سَبتة حتى ينتهي إلى البحر الكبير. قال أبو معشر: «له من البروج الجوزاء ومن النجوم عُطارد، وهواؤُه غليظٌ يورثُ الصفار – مَرَض من يَسكُنُه من المغرب – أكثره الاستسقاء والبطن، والغالب على الشّام الدم، وحدّه من العريش إلى الفرات[٩].»

---

٦) كرامرز، **جغرافيا**، ص٢٣.

٧) الإقليم الثالث هو إقليم مصر، لكنّه يعودُ في الصفحة التالية ليسميه «إقليم الشّام».

٨) إبن أيبك الدواداري، أبو بكر بن عبد الله، **كنز الدرر وجامع الغرر، الجزء الأول (الدرّة العليا في أخبار بدء الدنيا)**، تحقيق بيرند راتكه، منشورات المعهد الألمانيّ للآثار، القاهرة، ١٩٨٢، ص٩٧.

٩) إبن أيبك الدواداري، **المصدر نفسه**، ص ص ٩٩ – ١٠٠.

الجغرافيا والرحلات في الإسلام

إهتمّ الرحّالة والجغرافيّون بإصدار كُتبٍ لِوَصْفِ الأقاليم ورَسْمِها. واقتصرت المُحاولات الأولى على التّعَرّف إلى البلاد وطرُقها وخراجها، ومن ثمّ كتب المسالك والممالك التي تعتبر من أقدم الكتب الجغرافيّة العربيّة تقريرًا عن جباية الخلافة العبّاسيّة في أواسط القرن الثالث الهجريّ/ التاسع الميلاديّ.

شجّع الإسلامُ الكتابة الجغرافيّة لسببين: أوّلُهُما تحديدُ طرقِ الحجّ ومسالِكِهِ، والآخر طلبُ العلم وتدوينُ المشاهدات ليَطَّلِعَ عليها الخَلَفَ ويستفيد منها[١٠]. وينقل المؤرخ الدكتور نقولا زيادة عن ميلر أنّ كتّابَ الجغرافيّين العرب الذين ذُكروا يمثّلون المعرفة الجغرافيّة اليونانيّة - الرومانيّة مُترجمةً إلى اللغة العربيّة، وأنّ الخرائط التي رسَموها كانت منقولةً عن بطليموس[١١].

وتمتاز تلك الفترة بأنّ الخرائط التي رَسَمَها هؤلاء الجُغرافيّون «كانت نتاجًا عربيًّا خالصًا»، وأحصى منها ميلر مئتين وخمسًا وسبعين خارطةً للعالم الإسلاميّ تَعودُ إلى ذلك العصر[١٢]. ويُضيفُ زيادة: إنّ الكتبَ الجغرافيّة العربيّة، وخاصّةً بعد تحرُّرِها من تأثيرِ اليونان المُباشِر فيها، تمتازُ باعتمادِها على المُشاهدة الشَّخْصِيَّة والحِّس. وينقل عن ابن حوقل: «أعانني على تأليفه تواصُلُ السفر، وانزعاجي عن وَطني... إلى أَنْ سَلَكْتُ وجه الأرض بأجمَعِهِ في طُولِها، وقَطَعْتُ وَتَرَ الشّمس على ظهرها»، وينقل عن الإصطخريّ قوله: «ذكرتُ في كتابي أقاليم الأرض على الممالك وقَصَدْتُ مِنها بِلاد الإسلام بِتَفْصيل مُدُنِها وتقسيمِ ما يعودُ بالأعمال المجموعة إليها»[١٣].

تأْريخ المدن والقرى اللُبنانيّة

تأْريخَ المُدن اللّبنانيّة (من خلال نظرة المؤرخين والرحّالة والجُغرافيّين إليها، أصحاب «المسالك والممالك» أيامَ الخلافةِ العبّاسيّة) كان من

---

١٠) نقولا زيادة، **الرحّالون المسلمون والأوروبيّون إلى الشرق العربيّ في العصور الوسطى**، الطبعة الأولى، الدار العربيّة للموسوعات، بيروت، ٢٠١٠، ص ٢٨.

١١) زيادة، **المرجع نفسه**، ص ٧٢.

١٢) زيادة، **المرجع نفسه**، ص ٧٤.

١٣) زيادة، **المرجع نفسه**، ص ص ٧٤ — ٧٥.

أصعب المراحل وأكثرها غُموضًا وتَعقيدًا، خصوصًا عندما تَتَضارب الممالك وتتشابك المسالك وإحداثياتُها مع اختلاف نظرة كلّ منهم إلى الفرسخ والميل، إلى جانب اندثار مدن وقرى واختفائها عن سطح الأرض واندماجها بِقُرى أكبر كَبَعْضِ المَزارِع الصغيرة.

وضآلةَ تلك المعلوماتِ أكّدَها مؤرخون كَتَبوا تاريخ لبنان لفترة في العصور الوسطى، ككمال الصليبيّ في كتابه «منطلق تاريخ لبنان»، ومحمد علي مكّي في كتابه «لبنان من الفتح العربيّ إلى الفتح العثمانيّ» وهو كشف عن تلك الصعوبات في مقدّمة كتابه: «نَعترف بِصعوبة الكتابة والتفتيش عن أخبار المناطق اللّبنانيّة المَثْبوتة بِنَدارَةٍ في بُطون الأصول التّاريخيّة. لكنّ تلك الصعوبة لا تُبَرِّر الإهمال الذي يُؤَدّي إلى مَنْعِ تَوضيح التّرابط التّاريخيّ بَين حاضر لُبنان وماضيه القريب والبعيد».[١٤]

من هنا تَتَّضِحُ الصُّعوبة التي يُعانيها مُؤرخو وجُغرافيّو العصور الوسطى (نحو تسعة قرون)، وهي أُهْمِلَت إهْمالاً مُسْتَغْرَبًا، مقابل غَزارةٍ في كِتابة الرحّالة الأجانب عن المُدن اللّبنانيّة في العصور الحديثة. ومع ذلك حَظِيَ لبنان بكِتابات مُتعدّدة من جغرافيّين مُعاصِرين الحقبَةَ العبّاسيّة، وتمحورت كِتاباتهم حَول جبال لبنان وسواحله ومُدنه وقُراه، واتخاذِهِ موطنًا للزُّهْد والعبادة، وحَوْلَ مَواقِع مُدُنِه وتَحْصيناتِها ومراحل بَريديّة تَفصِلُها بعضَها عن البعض. وعَبَّروا عن إعجابهم مثلاً بقلعة بعلبك وآثارها، ومَوْقِع جبل لبنان وطِيبِ مُناخِهِ وارتفاع قمَمِه المُمَيّزة[١٥].

وفي ذلك أثر كبير لاتساع نطاقِ التِّجارة في العصر العبّاسيّ الأول، ولاتصّال مدينة بغداد حاضِرة العبّاسيّين برًّا وبحرًا بالبُلدانِ القاصيّة، ولِتَعْبيدِ الطُّرق وجَعْلِها آمنةً وسالكةً، ما سهَّل الأسفار أمام كاشفين ورحّالين قاموا برحلات مهمّ، ووَضَعوا في وَصْفِها الكُتُب والأسفار، ووَصَفوا مشاهداتهم في البُلدان التي زاروها. وهكذا ترك جغرافيّو المسلمين ثروةً كبيرةً من الكُتُبِ القيِّمَة والنادرة هي خُلاصةُ مُشاهدت وتجارب اكتسبُوها مِن أسفارهم وترحالِهم في عدد كبير من الأقاليم والممالك والبلدان والدول.

---

١٤) محمد علي مكي، **لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني**، طبعة دار النهار، بيروت، لا ت، ص ٧.

١٥) عمر عبد السلام تدمري، **لبنان من قيام الدولة العبّاسيّة حتى سقوط الدولة الإخشيديّة ١٣٢ – ٣٥٨ هـ./٧٥٠ – ٩٦٩ م.**، الطبعة الأولى، جرّوس برس، طرابلس، ١٩٩٢، ص ١٤٥.

رحلات المُسلمين في عهد الخليفة العبّاسيّ هارون الرشيد[١٦] وَصَلَت بَحْرًا إلى الهند وسيلان وشبه جزيرة ملقا والصين. وحتى كوبا. وتلك الفُتوحات الإسلاميّة أيّام الخلافة الرّاشدة والخلافة الأمويّة فالخلافة العبّاسيّة والتي وَصَلَتْ إلى أواسط آسيا وبلاد الهند شرقًا، وغربًا في شمال أفريقيّة وأوروبا، كان لها أثرٌ كبيرٌ في اتساعِ أُفُقِ التَّفكير الإسلاميّ عن أحْوالِ تلك البلدان اقتصاديًّا واجتماعيًّا وسياسيًّا في تَنْشيط التّجارة والصناعة[١٧].

سوى أن هذه الثّروة الجُغرافيّة العظيمة لم تَظْهر جليًّا إلاّ في العصر العبّاسيّ الثاني (باستثناء ابن خرداذبة من العصر العبّاسيّ الأول). وضاع قسم كبير من كُتُب الجغرافيّين اللاّحقين، بسبب الجَهْلَ والإهمال. لذا، بين عُصورِ الخِلافة العبّاسيّة الأربعة، لم يبرز عِلْمُ المسالك والممالك إلاّ في العصرِ العبّاسيّ الأول، عَصْرِ القُوَّة والإزدهار، بفضل مُصَنِّفِينَ وكُتّابِ دواوين كانوا على عِلْمٍ واسعٍ بأحوالِ الممالكِ وصُعوبَةِ مَسالِكِها، فامتلكوا معلومات كافيّةً ووافيّةً عنها. وأوّل من باشر بِكِتابة هذا النَّمَطِ الجُغْرافِيّ: ابن خرداذبة في كتابه «المسالك والممالك» بعدما تَوَلّى البريدَ والأخبار في بِلاد الجبل على عهد الخليفة العبّاسيّ المُعتمد على اللّه أبو العبّاس[١٨]، جامعًا مَوارِدَه مِنَ الوثائِقِ الرَّسميّة، وهو من الوجْهَةَ التّاريخيّة مَصْدَرٌ هامّ عن صِفة الأرض[١٩]، استعانَ به الجُغرافيّون المُتأخِّرون أمثال ابن الفقيه وابن حوقل والجيهانيّ والمقدسيّ والإصطخريّ وغيرهم.

ثم تَوالى ظُهور كُتُب المسالك والممالك بالغًا ذروته بعد الخلافة العبّاسيّة، إبان السلطنة المَمْلوكيّة بشكلِ موسوعاتٍ كوزموغرافيّة، لعلّ أشهرها وأهمها موسوعة «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» لابن فضل اللّه العمري (كاتب سرّ القاهرة ثم دمشق). فهو بحُكْم عَمَلِهِ ورغم قِصَرِ عُمُرِهِ أجاد

---

١٦) هارون الرشيد: الخليفة العباسي الخامس. حكم في العصر العبّاسيّ الأول من سنة ١٧٠ هـ./٧٨٦ م. حتى سنة ١٩٣ هـ./٨٠٩ م.، لمزيدٍ من التفاصيل: السيوطيّ، جلال الدين، **تاريخ الخلفاء**، تحقيق قاسم الرفاعي ومحمد العثماني، ط١، دار القلم، بيروت ١٩٨٦، ص ص ٣٢٥ - ٣٢٨.

١٧) حسن إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسيّ والثقافيّ والدينيّ والإجتماعيّ ج٢**، ط١٣، منشورات دار الجيل، بيروت ١٩٩١، ص ٢٨٧.

١٨) المعتمد على اللّه أبو العباس: الخليفة العبّاسيّ الخامس عشر حكم من سنة ٢٥٦– ٢٧٩ هـ./٨٧٠ – ٨٩٢ م.، لمزيدٍ من التفاصيل: السيوطيّ، المصدر المذكور، ص ص ٤١٣ – ٤١٤.

١٩) أرندنك كارل فان: «ابن خرداذبة» في دائرة المعارف الإسلاميّة، مجلد١، دار المعرفة، بيروت، لا.ت.، ص١٤٩ – زيادة، **الرحّالون المسلمون والأوروبيّون**، ص ٧١.

التَّرسُّل والنَّظْم وكان ذا عِلم ومَقدرة، خُصوصًا في الجغرافية. وكان ناقدًا ومُصَنِّفًا، توفّي سنة ٧٥٠ هـ./ ١٣٤٩ م.[٢٠]. ثم ظهر كتاب ابن شاهين الظّاهريّ المُتَوَفي سنة ٨٧٣ هـ./ ١٤٦٨ م. بعنوان «زبدة كَشف الممالك وبَيان الطرق المسالك». لكنه صغير الحجم، قليلُ الفائدة قياسًا على اسمه.

عنوان «المسالك والممالك» أعطاه شارل پيلاّ لخلاصة جغرافيّين أساسيّين عرب للعصور الوسطى (بيروت-الجزائر، ١٩٣٤)، وهو نَمُوذَج للأدب الجغرافيّ العربيّ، لأنَّ عِدّة كُتُب تَحملُ العنوان ذاته («المسالك والممالك») تَحتوي على صِفات مُشتركة ليس فقط في أسمائها، فهذه من المُفْتَرَض أنْ يَكون أقْدَمها إبن خرداذبة، تَبِعَهُ في هذا العملِ اليَدَويّ الإصطخريّ وإبن حوقل والبكريّ، بينما نلاحظ أنّ «روض الأنس أو كتاب المسالك والممالك» لم يبرز عند ميكال الذي اعتَبَرَهم جغرافيّين بشريّين، ودَرَسَ الإصطخريّ وابن حوقل، وأضاف إلى لائحة پيلاّ كتاب المهلبيّ (المسالك والممالك)، وذكر أنّ البكريّ والإدريسيّ (صاحب كتاب «نُزهة المُشتاق) كانا مجرد تَكمِلة مُعطيات المسالك عن إسبانيا والمغرب[٢١].

ويُضيف پيلاّ أنّ هذه النَّجاحات المَلْحوظة، على أهميّتُها، هي بِنَظرهم أمورٌ تَقليديَّة. وتلك الكتب (المسالك) مُختارات كُوزْموغْرافيّة وضعها جغرافيّون مُتَفَرّعِون (مُباشرةً أو مداورةً) عن العِلم اليونانيّ وخُصوصًا مع بطليموس، وهنا أهمية كِتاب إبن حوقل في عرضه الأمور بشكلٍ مميّز.

أولئك الجُغرافيّون لا يَتَّبِعون تَقْسيم العالم إلى أقاليم بل يُمَيِّزون مَناطِق كبيرة شبيهة بالممالك وبداخلها يَصِفون المسالك التي يَتَجاوزونَها والمَواضِع التي وجدوها[٢٢]. ويُعطي أحمد مُقبل تَلْميحًا عن أسماء كُتب تَحْمِلُ الاسمَ النَّوعيّ «المسالك والممالك»، لكنّه يَقسمُ الأدب الجغرافيّ (في القرنَين الثالث والرابع هجريّ) إلى فِئَتين: تَحملُ الأولى صِفاتِ المدرسة العِراقيّة (كابن خرداذبة، اليعقوبيّ، ابن الفقيه، قدامة بن جعفر، ابن رسته، المسعوديّ، الجيهانيّ)، والأخرى مدرسة البلخيّ والإصطخريّ وابن حوقل والمقدسيّ. ورغم أوجه التّقارب كان هذا التَّنظيم حَسّاسًا ومُختلفًا، ويفرض استعمال الحِكمة والتَّعقّل أثناء استعمال مُصطلح «المسالك والممالك»[٢٣].

---

٢٠) صدرت هذه الموسوعة المهمة كاملةً في أبو ظبي (٢٦ مجلدًا)، ثم صدرت في دار الكتب العلميّة، بيروت، زيادة، **الرّحالة الأوروبيّون والمسلمون**، ص ٧٤.

٢١) Charles, Pellat, **Art "Al Masalik Wa-L-Mamalik"** Dans EI2, Vol VI, (1991), P 624.

٢٢) Pellat, **Op Cit**, P 625.

٢٣) Ahmad, Moqbul, **Art "Djughrafiya"** Dans EI2, Vol II, 1977, P P.594 – 597.

بناءً على ما تقدّم سنَعرُضُ أسماءَ المُدن والقرى والمواقع اللّبنانيّة كما وَرَدَتْ عندَ الجغرافيّين العرب، عارضِين المَعْلوماتِ داخِل كُلِّ مادّة مُتَدَرِّجَة بِحَسَبِ التّرتيبِ الأبجديّ لتلك القُرى اللّبنانيّة. وعن الدكتور صلاح الدّين المُنَجِّد أنّ «عِلْمَ المسالك والممالك أقربُ إلى الجغرافيا الوَصفيّة لأنَّه لم يَقْتَصِر على ذِكْرِ المراحل والطُرُق والمسالك والممالك بل تَعَدّاها إلى وَصْفِ المدن والبلدان إدارةً وتأْريخًا واقتصادًا بأوصافٍ تَقِلُّ أو تَزيد باختلاف العَصْر والمُؤلّف»[٢٤].

إن الهدفَ من هذه الدراسة كشْفُ خَفايا وخَبايا الخريطة السكّانِيَّة في لبنان خلال العصور العبّاسيّة الأربعة، استنادًا إلى أولئك الرحّالة الجغرافيّين الذين كتبوا لمامًا عن البلدان فلم يعيروها الأهميّة الكافية آنذاك. ويرى البَعْض أنَّهم لم يُقَدِّموا أيَّ جديد بل مُعطياتٍ جغرافيّةً رُبّما كانت كافيةً في عصرِهم وزَمانِهم لكنَّها في مقياسنا اليوم لا تكفي من يريد معرفة العصور الوسطى وسَبْرَ مَسالكِها وعُقد ممالِكِها الصعبةِ الحل. ومع أنّ أسماء تلك الكُتُب مُشتركةٌ لَديهم، تختلف أوصافُ المَقاييس والأطوال بين جُغرافيّ وآخر، ما يخلق صُعوبةَ التّقميشِ عنها في بُطون المصادر المُتشابكة بأخبارها والمُتَداخلة بأغوارِها. لذا سنقتصر على تَحْدِيد المُشترَك منها والمتناقِض. فَتفاوُتُ المعلوماتِ عددًا أو مادّةً بينَ جُغرافيّ وآخر يَدُلُّ على مدى صُعوبة التَّحْديد بَينَهُما. والمقاييس والأطوال التي سَتَرِد، تَعْتَمِدُ المُصطلحاتِ القديمة كالفَرسخ والمِيل والمَرحلة. وكان أبو الفداء فصّلَ هذه المقاييس وقارنَ بَينها في كِتابه المعروف بتقويم البلدان، وسَنَشْرَحُ تحديداتها ومَقاساتِها قبل الإنطلاق في البحث، كَي نُزيل أيّ التباسٍ لاحقٍ حَوْلَها:

- الفرسخ = ٣ أميال
- المِيل = ٣ آلاف ذِراع حَسَب القياس القديم و٤ آلاف ذراعٍ حَسب القياس الحديث المُعاصِر لأبي الفداء.
- البريد: ١٢ مِيل[٢٥].

٢٤) صلاح الدّين المُنَجّد، **مدينة دمشق عند الجغرافيين والرحّالة المسلمين**، الطبعة الأولى، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٧، ص ٤٥.

٢٥) أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن شاهنشاه بن أيّوب، **كتاب تقويم البلدان**، صححه وطبعهُ رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، طبعَ في مدينة باريس، سنة ١٨٤٠، ص ص١٥ – ١٨، ويضيف زيادة في كتابه **الرحّالون المسلمون والأوروبيّون**، ص ٧٥، أنّ الميل يَقِّلُ عن الكيلومتر قليلاً، ويُضيف أنَّهم كانوا يَستعملونَه للمسافات الطويلة وهي وَحْدة للسير اليوم.

المدن والقرى اللّبنانيّة

وردَت أسماء المُدُن والقُرى اللّبنانيّة في تلك المصادر مُبعثرةً مُتشابكةً وبأسماء مُحرّفة ومَغلوطة. لذا سأعرض أسماءها عند الجُغرافيّين العرب موضوع الدّراسة، واضعًا المعلومات داخلَ كُلِّ مادّة بحسبِ ترتيبها الأبجديّ، مع شُروح وتَعْريفات وإضافات في الهَوامش عند الضرورات الجغرافيّة.

١) إقليم لبنان: يَذكرُه ابن خرداذبة عند تعدادِه أقاليمَ حمص بقوله: «فأمّا أقاليمُها فهي إقليم حماة واقليم شَيْزَر»، قال امرؤ القيس: «تقطع خلاّن الصَبابة والصبى عشيّة جاوزنا حماة وشَيْزَرا». وكذلك إقليم أفاميا وإقليم معرّة النعمان، وإقليم حوران وإقليم لطمين وإقليم تلّ منسى وإقليم الغلاس، وإقليم كفرطاب وإقليم جوسيّة وإقليم لبنان وإقليم الشعير وغيرها...[٢٦]

) أنفه: وَرَدَ اسمُ هذه المدينة الساحليّة على خريطةِ «صورة الشام» عِند ابن حوقل[٢٧]. وهي على ساحلِ بحرِ الروم الذي يَمتدّ في حَدّ أطرابلس وأنفه ونَواحي عسقلان[٢٨]. وقد وَرَدَ اسمها Anafa عند دوسّو[٢٩].

٣) إيعات: بلدةٌ في البقاع ومِنها إلى بعلبك ثلاثة أميال[٣٠].

٤) البترون: ورد هذا الاسم على خريطة «صورة الشأم» عِند ابن حوقل[٣١]، ويذكر فريحه أنّ الأصح كتابتها بالطاء «بطرون». أمّا الصليبيّون

---

٢٦) إبن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، **المسالك والممالك**، طبع في مطبعة بريل، ليدن، ١٨٨٩، ص ص ٧٥–٧٧.

٢٧) إبن حوقل، أبو القاسم النصيبيّ، **صورة الأرض**، ج١، تحقيق كرامرز، ليدن، ١٩٣٨، ص ص ١٦٥ – ١٦٧.

٢٨) إبن حوقل، **صورة الأرض**، ص١٨٨ – ويُضيف البغدادي، صفيّ الدّين بن عبد الحق في كتابه **مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، تحقيق علي البجّاويّ، مج١، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢، ص ٦: بأنها بُليدة على ساحل بَحر الشّام شرقيّ جبيل وهي على ما يَذكر حسن نعمة في كتابه **موسوعة المدن والقرى اللّبنانيّة**، ط١، دار عون، ١٩٩٦، ص ١٠٩، بأنّ أنفا قضاء الكُورة، بلدةٌ قديمة ورد اسمها في رسائلِ تلّ العمارنة وفي النقوش الآشوريّة والعبريّة والصليبيّة.

٢٩) René, Dussaud, **Topographie Historique De La Syrie Antique Médiévale**, Edition Geuthner, Paris, 1927, P 39.

٣٠) إبن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص٢١٩. ومعنى اسم إيعات النَبْت والخَصب والحشائش أو الشُرفة والبُرج، أو بناء إلى جانب قصر أو قلعة مُراقبة. راجع أنيس فريحة، **مُعجم أسماء المدن والقرى اللبنانيّة**، ط٣، مكّتبة لبنان، ١٩٩٢، ص ٨.

٣١) إبن حوقل، **المصدر المذكور**، ص ص ١٦٥ – ١٦٧ – البكريّ، أبي عبد الله بن محمد، **المسالك والممالك**، حقّقه جمال طلبة، مج ٢، ط١، دار الكتب العلميّة، بيروت،

فكانوا يسمّونها Le Boutron.[٣٢]

٥) بعلبك: يَذْكُرُ إبنُ خرداذبة مدينة بعلبك ضِمنَ كُورة دمشق وأقاليمها[٣٣]. ويُضيفُ أنّ الطريقَ من حِمص إلى دمشق إلى بعلبك هو طَريق البَريد، ومن حِمص إلى جُوسيّة أربع سكك، ثُمّ إلى بعلبك سِتُ سِكَك، ثُمّ في دمشق تِسعُ سِكَك. ومن المحمّديّة إلى بعلبك خَمسُ سكك، ويُضيف اسم بعلبك في فَصلِ عجائب البُنيان[٣٤]. ومن بعلبك يُسرة على جبل يسمّى رمى خمسون ميلاً، ومَن أخذ من بعلبك إلى طبريّة الدراج. فمن بعلبك إلى عين الجرّ عشرون ميلاً[٣٥]. وفي هذا الطريق جبّ يُوسُف عليه السلام[٣٦]، كما يَذكُر اسم بعلبك أثناءَ حديثِه عن الطريق الآخذ على كِتاف نواحي المَغرب انطلاقًا من بغداد وُصُولاً إلى دمشق[٣٧]، بينما نلاحظ أنّ الإصطخريّ يَذكُرُ أنّ أذرعات وحوران والبثنية والغوطة ونواحي بعلبك هي مِن عَمَلِ دمشق[٣٨]. لِيَعودَ ويَذكُر أنّها من جُند دمشق. وهي مدينةٌ على جبل، عامّةُ أبنِيَتُها من حِجارة، بُنِيَت على أساطين شاهقة ليس بأرض الشام أبنية حجارة ولا أعجب منها[٣٩]. ويُضيفُ في مَوْضِعٍ آخر أنّ المسافة بين بعلبك ودمشق يومان[٤٠]. ويكرر ابن حوقل حرفيًّا ما ذَكَره سَلَفُه الإصطخريّ، ويُضيف أنّه ليس بأرض الشام أكبرُ منها، وهي مدينة كثيرةُ الخَيرات والغَلاّت والفواكه الجيّدة، بيّنة الخصب، قريبةٌ من مدينة بيروت التي على ساحلِ بَحرِ الروم،

٢٠٠٣، ص ٣٦؛ أما البغداديّ في **مراصد الإطلاع**، مج ١، ص ١٦٣ فيعرّفها بأنّها حصنٌ بين جبيل وأنفه على ساحلِ بحرِ الشام.

٣٢) فريحة، **المرجع المذكور**، ص١١، ويضيف أنّ معنى اسمها مكان الرئيس ومحلّة المقدّم، وعليه يكون الإسم فينيقيًّا من جذر «بتر».

٣٣) إبن خرداذبة، **المصدر المذكور**، ص ص ٩٨ - ١١٧.

٣٤) إبن خرداذبة، **المصدر نفسه**، ص ص ١٣٩ - ٢٢٨.

٣٥) إبن خرداذبة، **المصدر نفسه**، ص ٢١٩، جوزف أبو نجم، **المدن والقرى اللّبنانيّة من خلال بعض الجغرافيّين العرب بين القرنين العاشر والرابع عشر**، مجلة المشرق، السنة ٦٩، ١٩٩٥، ص ص ١٥٩ – ١٦٢.

٣٦) إبن خرداذبة، **المصدر نفسه**، ص ٢٢٨.

٣٧) إبن خرداذبة، **المصدر نفسه**، ص ٢٢٨.

٣٨) الإصطخريّ المعروف بالكرخيّ، أبي اسحاق إبراهيم بن محمد الفارسيّ، **مسالك الممالك**، طبعة مطبعة بريل، ليدن، ١٩٢٧، ص ١٣.

٣٩) الإصطخريّ، **مسالك الممالك**، ص ٦١

٤٠) الإصطخريّ، **المصدر نفسه**، ص ٦١ – ابن حوقل، **المسالك والممالك (صورة الأرض)**، ص ٧٥.

وهي فَرضتها وساحلها، وبها يُرابطُ أهلُ دمشق وسائرُ جُندِها، وينفرون إليهم عند استنفارِهم ولَيْسوا كأهلِ دِمشق في جِساء الأخلاق (صلابة) وغِلظِ الطِّباع، وفيهم من دُعيَ إلى الخير أجابَ وأصغى إذْ أيْقَظَهُ الدّاعي وأنابَ..."[41]. وكتب ابن حَوقل على الخريطة «صورة الشأم» عِند القسم الأوسط مِنَ الجبل جَبَل بهرا وهنا مدينة حمص. وبين حمص ودمشق طريق عليه من المدن: جوسيه، اللّبوة، بعلبك، الزّبداني. بينما المهلّبيّ يُعطي صُورة مُغايرة عمّا وَرَد، فهو يُعرّفها[42] بأنّها مدينة جَليلة قديمة بِها مَذبحٌ تقول الصّابيّة (الصابئة) إنّه بَيتٌ من بُيوتِهم عَظيم جدًا عِندهم، ومن بعلبك إلى الزبدانيّ[43] ثمانية عشر ميلاً[44]. ويُضيف البكريّ أنّ سُليمان حَبَسَ الريح فيه، وأنّهُ كان يَتَغذّى ببعلبك من أرض الشام[45]. وبالتالي فهي تَقع ضِمن كُوَر الشام[46]. بينما يَذكُر الرحّالة الفرنسيّ بلّون مَعلوماتٍ قديمةً عنها بأنّ فيها انتشرَتْ عِبادة الآلهة، وبنى سُكّانها المعبدَ الذي يمثّلُ في يومنا هذا أضخمَ تجمّع للصُروح الأثريّة مِن العهد الرُّومانيّ ويَتَحَدّثُ عن رَوعة أطلالِ بعلبك، وهو أوّل من زارها سنة ١٥٤٨ مُضيفًا أنّ لها قَلعةً يَصْعُبُ الوُصول إليها[47].

٤١) إبن حوقل، **المصدر نفسه**، ص ١٧٥.

٤٢) إبن حوقل، **صورة الأرض**، ص ١٦٦.

٤٣) الزبدانيّ: بفتح أوّلها وثانيها ودال مهملةٌ وبعد الألف نون ثمّ ياء مشدّدة للنسبة، كور مشهورة بين دمشق وبعلبك منها مخرج نهر دمشق، راجع البغداديّ، **مراصد الإطلاع**، ج٢، ص٦٥٧.

٤٤) المهلّبيّ، الحسن بن أحمد، **الكتاب العزيزي المسالك والممالك**، جمعهُ وعلّقَ عليه تيسير خلف، ط١، دار التكوين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٦، ص ٦٨ - Dussaud, **Topographie Historique**, P٣٩٧.

٤٥) البكريّ، المسالك والممالك، مج ١، ص ١٢٨– وقد ورد اسمها عند دوسّو «هليوبوليس»
Dussaud, **Op Cit**, P 396.

٤٦) البكريّ، **المصدر نفسه**، مج ١، ص ٦٤.

٤٧) Pierre Belon, **Les Observations Des Plusieurs Singularités Et Choses Mémorables Trouvées en Grèce, Asie, Judée, Egypte, Arabie**. Paris, 1879, P 153.
إبن عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، حققه إحسان عباس، الطبعة الثانية، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤، ص ١٠٩.

٦) **البقاع:** ذَكَرَهُ ابن خرداذبة أثناء تِعدادَه كُورة دمشق وأقاليمها[٤٨]. وأنّ دمشق تَقَعُ على طَريقِ البقاع[٤٩]. بَينما يَذْكُرُ دوسّو مَوقع وادي البقاع بينَ جِبال لبنان الغربيّة وجِبال لبنان الشرقيّة[٥٠].

٧) **بيروت:** ذَكَرَها ابن خرداذبة عند تِعدادِه كُورة دمشق وأقاليمها[٥١]، وحَدّد موقعها على الطريق المؤدّية من الجزيرة إلى الساحل[٥٢]. ووصفها الإصطخريّ بأنّها مدينةٌ على شَطٍّ بحر الروم، خَصبة من عَمَل دمشق، وبِها كان مَقام الأوزاعيّ[٥٣]، وفيما بَعد ذَكَرَ أنّ المسافة من بيروت إلى دمشق يَومان[٥٤]. أمّا ابن حوقل؛ فأوردَ اسمها على خريطةِ «صورة الشأم»[٥٥]. ويُضيف في مَوضعٍ آخر أنها على ساحل بحر الروم وهي فَرضتها وساحلها وبها يُرابط أهل دمشق وسائِر جندها. وبيروت هذه كانت مقام الأوزاعي وبها منَ النخيل وقصب السُّكّر والغَلاّت المُتوافرة، وتِجارات البحر عليها واردةٌ وصادرة، وهي مع حصنِها حصينةٌ منيعةُ السُّور، جيّدةُ الأهل مع مِنعةٍ فيهم مِن عدوِّهم وصلاح في عامّة أُمورهم[٥٦]. ويُتابع في مَوضِعٍ آخر أنّ المسافة من دمشق إلى بيروت على بحر الروم مَسيرة يومينٌ غربًا، ومن بيروت إلى صيدا يَومان[٥٧]. لكنّ المُهلّبيّ يُعطي وَصفًا مُخالفًا أسلافَه فيحدِّدُ أنّ المسافةَ بين بيروت ومدينة بعلبك على عقبةِ المُغيثة سِتة وثلاثون ميلاً، وبَيْنها وبَيْن مدينة عَرجَموس على أربعةٍ وعشرين ميلاً عن مدينة بيروت، وهي مدينةٌ جليلة، شَرِبَ أهلُها من قناة تَجُرُّ إليها، ولها ميناء جليل، وبَيْنَها وبَيْن مدينة جبيل ثمانية عشر ميلاً[٥٨]. أما البكريّ

---

٤٨) إبن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص٧٧.

٤٩) إبن خرداذبة، **المصدر نفسه**، ص ٢١٩ - والبقاع: جمعها بقعة، موضع يقال له بقاع كلب قريب من دمشق، وفيها قرى كثيرة ومياه غزيرة نميرة، وأكثر شرب هذه الضياع يخرج من جبل يقال لهذه العين عين الجر، وبها قبر الياس عليه السلام - راجع البغدادي، **مراصد الإطلاع**، ج ١، ص ٢١١.

٥٠) Dussaud, **op cit**, P 396.

٥١) إبن خرداذبة، **المصدر المذكور**، ص ٧٧.

٥٢) إبن خرداذبة، **المصدر نفسه**، ص ٩٨.

٥٣) الإصطخري، **مسالك الممالك**، ص٦٥.

٥٤) الإصطخري، **المصدر نفسه**، ص٦٧.

٥٥) إبن حوقل، **المسالك والممالك**، ص ١٦٥.

٥٦) إبن حوقل، **المصدر نفسه**، ص ١٧٥.

٥٧) إبن حوقل، **المصدر نفسه**، ص ١٨٦.

٥٨) المهلّبي، **المسالك والممالك**، ص ٨٣.

فيَذكُرُها ضِمن كُور دمشق، ويُضيف أنَّها قريةُ الأوزاعي[٥٩]. ويُتابع في مكانٍ آخر أنّها مَكانٌ أو مقرّ لسلوكِ السُّفن أثناءَ انتقالِها من الإسكندريّة إلى انطاكيا[٦٠] وهي تابعةٌ للجزيرةِ العربيّة لأنّها من ساحل دمشق[٦١].

ويُضيف دوسّو أنّه لَطالما نُوقِش أَصلُ كَلِمة بيروت (Bairout Beyrouth)، والأرجحُ أنّها جاءَت من العبريّة بئروت Bé erot وهي جمعٌ لكلمةِ بئر Bé er (الآبار)[٦٢]، وقد وَرَدَ اسمُها في ألواح العمارِنة تحتَ اسم بيروتا Beruta، وانتَشَرَت فيها إبان العَصر الرومانيّ الصروحَ الكبيرةَ التي تَظْهَرُ على رُسوم نُقُودها[٦٣].

٨) **جبل لبنان أو جبل اللكام:** من عجائبِ طبائع البُلدان وعجائِبِ الجبال ما ذَكَرَه ابن خرداذبة أنَّ جَبلَ العَرج الذي بَيْنَ مكّة والمدينة يَمْضي إلى الشّام حتى يَتّصِل بلبنان من حمص وسَنير من دمشق، ثمّ يَمضي فيَتّصِل بأنطاكيا وجبال المصّيصة ويُسمّى هناك جبل اللّكام ويَتَّصِلُ بجبال ملطيّة[٦٤] وشمشاط[٦٥] وقاليقلا[٦٦] إلى بَحر الخَزَر وفيه الباب والأبواب ويُسمّى هناك القبق[٦٧]. ويُضيف في مَوضع آخر أنّه من جبلِ لبنان كان مُبتدأ سفينة نوح، وقد استوَت على الجُوديّ جَبل قردى[٦٨]، ولمّا كَثُر وُلْدُ نوح نَزَلوا إلى بابل السواد في ملك نمرود بن كوش، وهو أوّل ملكٍ كان في الأرض[٦٩].

٥٩) البكري، **المسالك والممالك**، مج ٢، ص ٣٦.

٦٠) البكري، **المصدر نفسه**، مج ٢، ص ٢٧٢.

٦١) البكري، **المصدر نفسه**، مج ٢، ص ٩٦.

٦٢) Dussaud, **Topographie Historique**, P 58.

٦٣) Rouvier, **Numismatique Des Villes De La Phénicie**, Paris, 1915, P 71.

٦٤) **ملطيّة**: مدينة من بناء الإسكندر، وهي من بلاد الروم، مشهورة تتاخم الشام، راجع البغدادي، **مراصد الإطّلاع**، مج ٣، ص ١٣٠٨.

٦٥) **شمشاط**: مدينة بالروم على شاطئ الفرات، وهي من أعمال خرت برت، وهي غير سمياط من أعمال الشام، راجع البغدادي، **المصدر نفسه**، مج ٢، ص ٨١١.

٦٦) **قاليقلا**: بأرمينية العظمى من نواحي خلاط، ثمّ من نواحي منازجرد، من نواحي أرمينيا الرابعة، راجع البغدادي، **المصدر نفسه**، مج ٣، ص ١٠٥٩.

٦٧) إبن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص١٧٢.

٦٨) **قردى وبازبدى**: قريتان من جبل الجودي بالجزيرة، بقرب قرية ثمانين التي رست سفينة نوح عندها، راجع البغدادي، **مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، مج ٣، ص ١٠٧٧.

٦٩) إبن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص ٧٦.

وجَبل اللّكام هو الفاصِل بَيْنَ ثُغور الشّام وثُغور الجزيرة، وهو داخل في بَلَد الروم، ويُقال إنَّه يَنتهي في بَلد الروم إلى نَحوٍ من مائتيّ فرسخ، ويظهر في بلد الإسلام بين مَرْعَش والهارونيّة وعَين زربة فيُسمّى اللّكام إلى أن يتجاوزَ اللاذقيّة، ثمّ يُسمّى جَبل بهراء وتَنوخ إلى حمص، ثمّ يُسمّى جبل لبنان، ثمّ يَمتَدّ إلى الشام حتّى ينتهي إلى بحر القلزم[٧٠]. أمّا ابن حوقل فيذكر اسمه على خريطة «صورة الشأم» فيما يسمي بانياس جبل لبنان وتُقابلهُ في البرّ مدينة دمشق، وبين دمشق وزعز من المدن البلقاء[٧١]. ويذكر ياقوت الحمويّ أنّ فيه سبعين لسانًا، لا يعرف كلّ قوم لسان الآخرين إلاّ بترجمان، وفيه جميع الفواكه والزّرع من دون أن يزرعها أحد، وفيه الأبدال والصّالحون.[٧٢] ويذكر أبو الفداء كثرة الثلج فيه.[٧٣]

٩) جبل الثلج: مطلٌّ على بانياس والثلج على رأسِهِ كالعَمامة لا يُعْدَمُ مِنه صَيفًا ولا شتاءً وفي رأسِ الجبل ضَيْعَةٌ تُعرف بِصردا[٧٤].

١٠) جبيل: وَرَدَ اسمها عند ابن خرداذبة لدى تِعدادِه كُورة دمشق وأقاليمها[٧٥]، ويُضيف في مَوضِع آخر أثناء تعدادِه ثُغور الإسلام والأمم والجِبال المُحيطة بِها بِأنّ جُبيلً هي من الثّغور البَحريّة[٧٦]، مثلثة تطلّ زاوية منها على البحر. ويحيطها سور حصين شاهق الارتفاع وحولها النخيل وغيره من أشجار المناطق الحارّة.[٧٧] لكننا لا نَجِدُ لها ذِكرًا عند الإصطخري، فيما ابن حوقل ذَكَرَ اسمها على خريطة «صورة الشأم»[٧٨].

---

٧٠) الإصطخريّ، **مسالك الممالك**، ص ١٦٨.

٧١) إبن حوقل، **المسالك والممالك**، ص ١٦٨.

٧٢) ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٥، ص ١٢، أبو نجم، **المدن والقرى اللّبنانيّة**، ص ١٩١.

٧٣) أبو الفداء، **تقويم البلدان**، ص٢٢٩، أبو نجم، **المرجع المذكور**، ص١٩١.

٧٤) المُهلّبيّ، **المسالك والممالك**، ص٦٧. في مُثَلَّثِ الحدود السورية-اللّبنانيّة-الفلسطينية اليوم قريةٌ مهجورة اسمها صردا قريبةٌ من الموضع الذي يحدّده المُهلّبيّ لكنّها ليست على رأسِ الجبل. راجع المُهلّبيّ، **المصدر نفسه**، ص٦٧، الحاشية رقم ١٠٤.

٧٥) إبن خرداذبة، **المصدر المذكور**، ص٧٧.

٧٦) إبن خرداذبة، **المصدر نفسه**، ص٢٥٥. وجبيل كما عرّفها البغدادي في **مراصد الإطلاع**، مج١، ص ٣١٤، بأنّها بلد من سواحل دمشق مشهورة في شرقي بيروت على ثمانية فراسخ منها.

٧٧) ناصر خسرو، **سفر نامه**، نقله إلى العربية د. يحيى الخشّاب، الطبعة الثالثة، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٩٢، ص ٤٩.

٧٨) إبن حوقل، **المصدر المذكور**، ص ١٦٥، أبو نجم، **المرجع المذكور**، ص ١٦٩.

أمّا المُهلَّبيّ فأَهمّ ما يَذْكُره عنها أنّ لها ميناءً وسوقًا وجامعًا[٧٩]، ويُسمّيها دوسّو بيبلوس، وهي أقدَمُ مَرْكَز تِجاريّ على الساحِل السوريّ[٨٠].

١١) جونيه: ذكر اسمها عند ابن خرداذبة أثناء تعداده كورة دمشق وأقاليمها[٨١]، وقد ورد اسمها جوني عند غِيّوم الصُوريّ، وهي طبعًا Jouni كما يُسمّيها دوسّو[٨٢].

١٢) الجيّة: وَرَدَ اسمها عند ابن خرداذبة على خريطة «صورة الشأم» عند تِعدادِه كورة دمشق وأقاليمها[٨٣]، ويُضيف لامنس رُبَّما هي بورفيرون Porphyreon القديمة[٨٤].

١٣) الصرفند: وَرَدَ اسمها على خريطة «صورة الشأم» لَدى ابن حوقل عِند تِعداده كُوَر الشّام وأقاليمها، تحت اسم صرفنده، أنها حِصنٌ من ضِمن الثّغور البَحريّة الواقعة ضِمن ثُغور الإسلام[٨٥].

١٤) صور: ذَكَرَها ابن خَرداذْبة عِند تعدادِه كورة الأردن[٨٦]، وعند حديثِه عن كُورة فلسطين[٨٧]، وأيضًا أثناء ذِكره ثُغور الإسلام والأمم والجِبال المُحيطة بِها إنَّها تُعَدّ الثّغور البَحريّة وهي مَشهورةٌ بِصناعة المَراكب[٨٨]، وتقع على طَريق سِكك المَغرب، وتَبْعُدُ عن قِنِّسْرين عَشرَ سِكك، ومِنها

---

٧٩) المُهلّبيّ، **المصدر المذكور**، ص ٨٣.

٨٠) Dussaud, **Topographie Historique**, P 71 – Ernest Renan, **Mission De Phénicie**, Vol 1, Paris, 1874, P 199.

٨١) إبن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص ٧٤–٧٥، وقد عرّفها البغداديّ في **مراصد الإطلاع**، مج١، ص ٣٦١، بأنّها من أعمال طرابلس وعلى ساحل دمشق.

٨٢) Dussaud, **TOPOGRAPHIE HISTORIQUE**, P 73.

٨٣) إبن خرداذبة، المصدر المذكور، ص، ٧٧، وهي تقع اليوم في قضاء الشّوف ومعنى الإسم المُبهج واللّطيف، وفي الآراميّة الأنَفَة والغَطْرَسَة، وهي بلدةٌ ساحليّة، راجع نعمة، **موسوعة المدن والقرى اللّبنانيّة**، ص ص ٢٣٠–٤٩٧.

٨٤) Henri Lamens, **La Syrie**, Vol 2, P37.

٨٥) إبن حوقل، **المسالك والممالك**، ص ص ١٦٥–١٦٧. وعرّفها البغداديّ بأنّها قريةٌ من قُرى صور بساحل الشّام، راجع **مراصد الإطلاع**، مج ٢، ص ٨٣٨، ويضيف فريحه في كتابه **معجم أسماء المدن والقرى اللّبنانيّة**، ص ١٠٣، أنّ معنى اسمها مكان صهر المعادن وتنقيتها.

٨٦) إبن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص ٧٥.

٨٧) إبن خرداذبة، **المصدر نفسه**، ص ٧٩.

٨٨) إبن خرداذبة، **المصدر نفسه**، ص ٢٥٥.

إلى حماه سِكَّتان[٨٩]، ومِنها إلى طَبَريّة على البحر غربًا يومًا[٩٠]. ووَرَدَ اسمها عِند ابن حوقل على خريطة «صورة الشأم»[٩١]، ويُعْطينا بَعضَ التفاصيل عَنها بأنّها مِن أحصنِ الحُصون التي على شطّ البحر عامرة خصبة، ويُقال إنّها أقْدَمُ بَلَد بالسّاحِل، وأنَّ عامّة حُكماء اليُونان مِنها[٩٢]. بَينما المُهلّبيّ يُحدّد المسافات أنها تَبعدُ عن عكّا اثني عَشَرَ مِيلاً، وبين عكّا وطبريّة أربعة وعشرون مِيلاً[٩٣]. بينما البكريّ أثناء حَديثه عن بحر الروم يَذكرُ أنَّ صور تَقَعُ على سَواحل الشّام مِثْلَها مِثْل مصر والإسكندريّة[٩٤]، وكذلك عِند تَطَرُّقِهِ إلى الجزيرة العربيّة وسَمَّتْها العربيّة لإحاطَةِ البِحار والأنهار بِها من أقطارها ومن ضِمْنِ سواحِلِ صور وساحل الأردن[٩٥]. ويُضيفُ دوسّو أنَّ صور ضَيْعَةٌ فقيرةٌ تُحيطُ بميناءٍ شِبْهِ مَدْفونٍ بالرّمال، وأنَّ اسم صور Sour ساميّ معناه «الصخور» وهو إسمٌ على مُسمّى وأكثرُها يَظْهَر في ألواح العَمارِنة[٩٦]. وأَفرَدَ لها فليمينغ كِتابًا مُفَصَّلاً عن جَمالِها وتاريخِها وأهمِّيَتِها كَمَدينةٍ بَحْرِيّة[٩٧]، وكَذلك دينيز دي لاسر في كِتابه «مُهمّة أثريّة في صور»[٩٨]، ويضيف ناصر خسرو أنّ أسواقَها جميلة كثيرة الخيرات ومعظم سكّانها من الشيعة، وهي مشيّدة على مُرتفع وتأتيها المياه من الجبل.[٩٩]

---

٨٩) إبن خرداذبة، **المصدر نفسه**، ص ١١٧. وهي بلدة بساحل بحر الشّام. راجع كتاب الإسكندريّ، أبي الفتح نصر بن اسماعيل، **كتاب الأمكنة والمياه والجبال ونحوها**، تحقيق حسن النابودة، دار الكتب العلميّة، ط١، بيروت، ٢٠٠٥، ص٢٧٣.

٩٠) الإصطخري، **مسالك الممالك**، ص ٦٦.

٩١) إبن حوقل، **المصدر المذكور**، ص ص ١٦٥ – ١٦٧.

٩٢) إبن حوقل، **المصدر نفسه**، ص ١٧٤.

٩٣) المُهلّبيّ، **المسالك والممالك**، ص ١٠١.

٩٤) البكريّ، **المسالك والممالك**، ص ١٥٠.

٩٥) البكريّ، **المصدر نفسه**، ص ٩٦. بينما يذكر البغداديّ في **مراصد الإطلاع**، مج ٢، ص ٨٦٥، بأنّها مدينةٌ مشهورة عَظيمة القَدِر، كانت من ثُغور المسلمين مُشرفةٌ على بحر الشّام، داخلةٌ في البحر الذي يُحيطها من جميع جوانبها إلا الربع الذي مِنه شُروع بابها حصينة جدًا، لا سبيل إليها إلا بالجدّ، تبعدُ عن عكّة سِتة فَراسِخ.

٩٦) Dussaud, **Topographie Historique**, P 38.

٩٧) Fleming, W.B., **The History of Tyre**, New York, 1915.

٩٨) Denyse Le Lasseur, **Mission Archéologique à Tyr dans Journal**, Syria, 1921.

٩٩) ناصر خسرو، **سفر نامه**، ص ٥٠.

١٥) **صيدا:** وَرَدَ ذِكرُها عِند ابن خرداذبة أثناء تِعدادِه كُورة دمشق وأقاليمها[١٠٠]، ومَرّة ثانية أثناء كُورة فلسطين[١٠١]، ومَرّة ثالثة نَجِدُ اسمَها على الطريقِ المُمْتَدّ مِنَ الجزيرة إلى الساحل ويمرُّ من الرَّقّة إلى دوسر.... وُصولاً إلى طرابلس الشّاميّة، ثُمّ إلى صيدا ثُمّ إلى صور، ثُمّ إلى قيسارية، وُصولاً إلى عَسقلان فَغَزّة[١٠٢]، ويُضيفُ أيضًا بأنَّها تابعةٌ للثُغورِ البَحْريّة التي كانت مِن ضِمْنِ ثُغورِ الإسلام والأمم والجبال[١٠٣]. ويذكر ناصر خسرو بأنّها تقع على شاطئ البحر وبها قلعة جميلة محكمة ولها ثلاث بوابات وفيها سوق جميل وحدائق وأشجار منسّقة وأغلبها أشجار مثمرة.[١٠٤] ويضيف الحميريّ أنّ بينها وبين بيروت يومين، وهي على ساحل البحر، وعليها سور حجارة، وتنسب إل إمرأة في الجاهليّة، وهي مُتصلة بجبل لبنان.[١٠٥] ويذكر ابن حوقل اسمها على «صورة الشأم»[١٠٦]، لكنَّ المُهلّبيّ يَنْفَرِدُ بمعلوماتٍ مَفادُها أنَّ مِن مدينة صيدا إلى مدينة مَشْغَرا واديًا في نهايةِ الحُسْنِ بالأنهارِ والأشجار، والمَسافةُ بَيْنَها وبَيْن دمشق سِتّة وستون مِيلاً[١٠٧]. ويذكر البكريُّ أَنَّها تَقَع على طريقِ سُلوكِ السُّفُن مِنَ الإسكندريّة إلى إنطاكيا[١٠٨]. ويُضيفُ دوسّو أنَّه عَثَرَ فيها على عِدّة تَوابيتَ تَعود إلى مَلِكِ صيدون أشمونعزر في القرن الخامس قبل الميلاد، وتابوت أبيه وغيرها مِنَ التّوابيت[١٠٩]، إضافةً إلى ما قامَ بِهِ كونتنو مِنْ تَنْقيبات مَعْ عِدَّة بِعْثات[١١٠].

---

١٠٠) إبن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص ٧٧.

١٠١) إبن خرداذبة، **المصدر نفسه**، ص ٨٩.

١٠٢) إبن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص ٩٨. وقد أضاف الإسكندريّ في كتابه **الأمكنة والمياه والجبال ونحوها** بأنّ اسمها «إربل» وهي على ساحل الشّام فيما نُلاحظُ أنّ البغداديّ يُسمّيها (صيداء) وهي مدينةٌ على ساحل بحر الشّام من أعمال دمشق بينها سِتّة فَراسِخ، راجع **مراصد الإطلاع**، مج ٢، ص ٨٥٩.

١٠٣) إبن خرداذبة، **المصدر المذكور**، ص ٢٥٥.

١٠٤) ناصر خسرو، **سفر نامه**، ص ٤٩، أبو نجم، **المدن والقرى اللّبنانيّة**، ص ١٥٧.

١٠٥) الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص ٣٧٣.

١٠٦) إبن حوقل، **المسالك والممالك**، ص ص ١٦٥ – ١٦٧.

١٠٧) المُهلّبيّ، **المسالك والممالك**، ص ٩٥.

١٠٨) البكريّ، المسالك والممالك، ص ٢٧٢.

١٠٩) Dussaud, **Op Cit**, P 37.

١١٠) Georges Contenau, **Missions archéologiques à Sidon, dans journal Syrie**, Paris, 1920, PP 76–108 – 198 – 287.
Eiselen, Fr.C., **Sidon, A Study in Oriental History**, New York, 1907.

١٦) طرابلس: تَردُ في جميع المصادر تحت اسم أطرابلس. وقد ذكر ابن خرداذبة كورة طرابلس أثناء تعداده كورة دمشق وأقاليمها[١١١]، ويتابع ابن خرداذبة بأنّها على الطريق المؤدي من الجزيرة إلى الساحل ويسميها أطرابلس الشام[١١٢]، وهي على سكك طريق المغرب، وكذلك على الثغور البحريّة التابعة لثغور الإسلام[١١٣]. حدّد ابن خرداذبة المسافة بَيْنَها وبَين دمشق على بحر الروم يومين غَربًا[١١٤]، ووَصَفَها الإصطخري بأنَّها مدينةٌ تَقع على بحرِ الروم (المتوسّط) وهي ذاتَ نخلٍ وقصبٍ وسُكّرٍ وخَصْب[١١٥]. وورد اسمها عند ابن حوقل على خريطة «صورة الشأم»[١١٦]، وفي مكانٍ آخرٍ من الكِتاب يُحدّدُ ساحلَ بحر الروم من حدِّ أطرابلس وأنفه إلى نواحي يافا وعسقلان[١١٧]. بَينما يَذكرُ المُهلّبيّ في تَحديدِه المسافات أنَّ بين طرابلس وبعلبك أربعة وخمسين مِيلاً، وأنّ بين طرابلس ودمشق تِسعين مِيلاً، ومِنها إلى انطرطوس[١١٨] ثلاثون مِيلاً[١١٩]. ويستفيض البكريّ في الحديث عنها، فيحدِّد موقِعَها على ساحلِ البحر الروميّ في السدّ قُربَ اللاّذقيّة وعَرقة وسائر ما يَتْلو هذه البلاد[١٢٠]. وفي حديثِه عن جُملةٍ جَمَعَها مِن كُتُب فلاسفة اليونان في الأقاليم السبعة وفي تطرّقِه إلى الإقليم الرابع يَذْكُر ما يلي: وَسَطُهُ حَيْثُ يَكونُ النَّهار الأطولُ أربعةَ عشرَ ساعةَ ونِصف إلى حيثُ يَكونُ النّهار الأطول أربعة عشر ساعة وثلاثة أرباع ساعة، وارتفاع القُطْب سبعة وثلاثين جِزْء، وذلك مسافة ثلاثمائة مِيل، ويَبْتَدِئُ مِنَ المشرق فَيَمُرُّ بِبِلاد التِبت إلى خُراسان، ويَمُرّ على شمال الشّام، وفيه

---

١١١) إبن خرداذبة، **المصدر المذكور**، ص٧٧ – وهي حسبما يَذكر البغداديّ في **مراصد الإطّلاع**، مج ٢، ص ٨٨٢، أنّها بالشّام على شاطئ البحر على صور من صخر مَنيع البُنْيان.

١١٢) إبن خرداذبة، **المصدر المذكور**، ص ٧٧.

١١٣) إبن خرداذبة، **المصدر نفسه**، ص ١١٧.

١١٤) إبن خرداذبة، **المصدر نفسه**، ص ٢٥٥، الحميري، **الروض المعطار**، ص ٣٩٠.

١١٥) الإصطخريّ، **مسالك الممالك**، ص ص ٦٦ – ٦٧.

١١٦) إبن حوقل، **المسالك والممالك**، ص ص ١٦٥ – ١٦٧.

١١٧) إبن حوقل، **المصدر نفسه**، ص ١٨٨.

١١٨) هي طرطوس الحاليّة، وهي بلدةٌ بالشّام مُشرفةٌ على البحر قُرب المرقب وعكا. راجع ياقوت الحمويّ، أبو عُبيد اللّه الروميّ، **معجم البلدان**، تحقيق فريد الجنديّ، ج٤، دار الكتب العلميّة، ط١، بيروت، ١٩٩٠، ص ص٣٣ – ٣٤.

١١٩) المهلّبيّ، **المسالك والممالك**، ص ٩٦.

١٢٠) البكريّ، **المسالك والممالك**، مج ١، ص ١٣٣.

مِنَ المُدن هُناك بالس ومَنْبِج ومَلطيّة وزبطره وحلب وقَنّسرين وأنطاكية وطرابلس الشّام والمَصّيصة والكنيسة السوداء واذنه وطرسوس وعمّورية واللاذقيّة، ويَمُرُّ على بحرِ الشّامِ على جزيرتيّ قبرص و رودوس، ثمّ يَمُرُّ في أراضي المَغرب على بِلاد طَنجة ويَنتهي إلى بَحر المَغرب[١٢١]. ويُحدّد لنا في مَوضِع آخرَ أنَّ الأَوائل قَسّمت الشّام إلى خمسة أقسام، الشّام الثالثة تَضُمّ الغوطة ومدينتُها العُظمى دمشق ومِنْ سواحلها أطرابلس[١٢٢]. وهي مِنْ مُدن دمشق[١٢٣]، وبالتالي فهي تَقَعُ على طريقِ سُلوكِ السُّفن مِنَ الإسكندريّة إلى انطاكيا التي تَخرُجُ من الإسكندريّة...إلى عسقلان ثمّ إلى ساحل بيت المَقدِس ثُمَّ إلى صيدا ثُمَّ إلى بيروت ثُمَّ إلى أطرابلس الشّام ثُمَّ إلى اللاذقيّة ثُمَّ إلى إنطاكية ثُمَّ إلى أنطالية ومنها تَدْخُلُ إلى الجزائر المؤلّفة[١٢٤]. وعن الرّحالة ناصر خسرو أنّ المزارع والبساتين كانت تنتشر حول المدينة وأشجار النارنج والترنج والموز واللّيمون والتمر، ويقال أنّ بها عشرين ألف رجل وهي تابعة لسلطان مصر، وسكّانها كلّهم شيعة، وقد شيّد الشيعة مساجد جميلة في كل البلاد، ولا يوجد خارج طرابلس بيوت أبدًا عدا مشهدين أو ثلاثة.[١٢٥] بَينما يَذْكُر ماسبيرو بِأنّنا نَجْهَلُ اسم المدينة الفِينِيقِيّ، ولكنّنا نَتَعرّفُ على «المُدن الثلاث» أو الأحياء الثلاثة[١٢٦]. ويشيرُ كاترمير أنَّ المسلمين أسّسوا مدينة طرابلس الحاليّة المَعروفة اليوم باسم المينا Al-Mina أو La Marine. وقد كانت أسْوارُ المدينة القديمة من العَرْضِ بحيْثُ يستطيعُ ثلاثة فُرسان السّيْر عليها مُتجاورين مع أحْصِنَتِهِم[١٢٧]. وعَلَيْه فالمدينةُ الحاليّة على مسافة فَرْسَخ من الشّاطِئ وبُنِيَت بعد عَصر الصّليبيّين.

١٢١) البكريّ، **المصدر نفسه**، مج ١، ص ص ١٣٣ – ١٣٤.

١٢٢) البكريّ، **المصدر نفسه**، مج ٢، ص ٣٣.

١٢٣) البكريّ، **المصدر نفسه**، مج ٢، ص ٣٦.

١٢٤) البكريّ، **المصدر نفسه**، مج ٢، ص ٢٧٢.

١٢٥) ناصر خسرو، **سفر نامه**، ص ٤٧.

١٢٦) Gaston Maspero, **Histoire Ancienne des peuples de L'orient Classique**, vol2, Paris, 1895, P 172 – Dussaud, **Topographie Historique**, P7.

١٢٧) Quatremère Etienne, **Histoire des sultans Mamluks**, vol2, Paris, 1827, PP 103 – 104 - Dussaud, **TOPOGRAPHIE HISTORIQUE**, P 75.

١٧) **عدلون:** عَرَّفَها ابنُ خرداذبة بِأنَّها مِنَ الثُّغور البَحريّة التّابِعة لثُغور الإسلام والأمم والجِبال المُحيطة بها[١٢٨]، وهي سواحل جُند حمص وانطرطوس وبانياس واللاّذقية وجَبلة والهرياذة، وسواحل جُند دمشق وعرقة وطرابلس وجبيل وبيروت وصيدا وحصن الصرفند وعدنون وسواحل جُند الأردن وعكّا وبصور صناعَة المَراكِب وسواحل جُند فلسطين وقيساريّة وأرسوف ويافا وعسقلان وغزّة وسواحل مصر رفح والفرما والعريش[١٢٩]. ووصف رينان بالتفصيل أطلال عدلون Adloun، مشيرًا أنَّ حلتون Helton هي عدلون الواقعة على السّاحل[١٣٠]، ولكِنْ يُخالِفُهُ الرّأيّ دوسّو مُشيرًا إلى أنَّ تَسميَتَها هي تَحْوِير لِكلمة عدنوون/عدنون Adnon، وأنَّ عدنون أقدَمُ من عدلون[١٣١]. ووَرَدَ اسمها أيضًا عند ابن حوقل من خلال خريطة «صورة الشأم»[١٣٢].

١٨) **عرجموس:** يَذْكُرُ المُهلّبيّ أنّها تَبعُدُ عَنْ مدينة بيروت أربعة وعشرين مِيلاً[١٣٣]، ومَوضوع هذه المدينة أثارَ استِغْرابَ دوسّو الذي يَعْتَقِد أنَّ مدينة زحلة الحاليّة الواقعة بين بعلبك وبيروت حلَّتْ مَحَلَّ عرجموس أو عرجموش مَع وجودِ فارقٍ بسيطٍ في تَحْديدِ المَوقِع[١٣٤]. وكان يُقال بِوجود قَبر حَبْلَة Habla بِنْت نوح عليه السلام هنا[١٣٥].

١٩) **عرقة:** يُحدّدُها ابن خرداذبة أنَّها ضِمْنَ السّهول البحريّة التابعة لثغورِ الإسلام والأمم والجِبال المُحيطة بِها[١٣٦]؛ بَيْنَما يَذكُر المُهلّبيّ بِأَنَّها

---

١٢٨) إبن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص ٢٥٥، وعدلون اليوم هي بلدة ساحليّة تابعة لقضاء صيدا، معنى الإسم عبد الآلهة وفيها العديد من المغاور والكهوف التي اتخذها الصليبيّون مَعْقَلاً لهم، تَبْعُدُ عن بيروت ٦٥ كلم جنوبًا. راجع نعمة، **موسوعة المدن والقرى اللّبنانيّة**، ص ص ٣٦٨ — ٥٢٥ - وقد ورد اسمها في مصادرنا تحت اسم عذنون وعذلون وعدلون.

١٢٩) إبن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص ٢٥٥، ويضيف فريحه في كتابه **معجم أسماء المدن والقرى اللّبنانيّة**، ص١١٣، «أن معنى اسمها عيد الآلهة».

١٣٠) Renan, **Mission de Phénicie**, P 656.

١٣١) Dussaud, **Op Cit**, P 41.

١٣٢) إبن حوقل، **المسالك والممالك**، ص ص ١٦٥ — ١٦٧.

١٣٣) المُهلّبيّ، **المسالك والممالك**، ص ٨٣، أبو نجم، **المدن والقرى اللّبنانيّة**، ص ١٨٣.

١٣٤) Dussaud, **Op Cit**, P 403.

١٣٥) ياقوت الحمويّ، **معجم البلدان**، ج ٤، ص ١١٢
Guy Le Strange, **Palestine under the Muslim**, London, 1890, P 397.

١٣٦) إبن خرداذبة، **المصدر المذكور**، ص٢٥٥.

مِنْ أعْمالِ دمشق وهي مِنْ آخر أعمالِها من جِهة الشمال على ساحل البحر، وبَيْنَ عرقة وبَيْنَ طرابلس على سمت الجنوب إثنا عشر مِيلاً، وبَيْن عرقة وبعلبك ستة وستون مِيلاً[١٣٧]؛ بَينما دوسو يُخالفهُ الرأيّ بِقولِهِ إنَّ عرقة لَعِبَت دَورًا هامًّا مُنذ العُهود القديمة حتى نِهايّة الحروب الصليبيّة، وورد في سِفْر التَّكْوين أنّ سُكّان فِينيقْيّة الوُسْطى كانوا مِنَ العِرقيّين والسِّينِيّين[١٣٨]. كما وردَ اسمُ عرقة في ألواح تلَّ العمارنة أرقاتا Irqata وهي لفظةٌ مَوْجودَةٌ في العربيّة تَحْتَ إسم عرقةَ Irqa، وفي النّصوص الأشوريّة هي: أرقا[١٣٩] Arqa. فيها معبدان: الأول للإلهة الرومانيّة فينوس أركيتيدس أي فينوس ذات الوشاح، والآخَر مكرَّس للإلهة عشتار المبرّجة حامية المدينة Poliade تظهرُ فيه حاملةً في يدها غُصنًا من شجرة القلهفة وواضعةً قدمها فوقَ الإله – النّهر الذي هو نهر عرقا[١٤٠].

٢٠) عين الجر: تبعدُ عن بعلبك عشرين ميلاً[١٤١] وتبعدُ عن كامد اللّوز ثمانية وعشرين ميلاً، ومِن عين الجر إلى دمشق ثمانية عشر ميلاً[١٤٢]. ويُضيف دوسّو أنّ عين جر Ain Djarr وعين الجر Ain el Djarr، وتُلفظ اليوم عنجر Andjar، عَرّفَها روبنسون مع مَوقِع الخلكيس Chalcis الواقعة على سفح جبل لبنان[١٤٣].

٢١) العيون: وَرَدَ ذِكرُها لدى ابن خرداذبة عند تَحديده المسافات، أنَّه مِن القرعون إلى قريَة يُقال لَها العُيون تَمضي إلى كَفر ليلى عشرين ميلاً[١٤٤].

---

١٣٧) المُهلّبيّ، **المصدر المذكور**، ص ١٠٠ ويحدد البغداديّ في **مراصد الإطلاع**، مج ٢، ص ٩٣٣، أنّ عرقة هي بلدة في شرقيّ طرابلس بينهما أربعة فراسخ، وهي في سفح جبل بينها وبين البحر نحو المِيل، على جبلها قلعة لها وقيل: هي من العواصم بين رُفينة وطرابلس.

١٣٨) Dussaud, **Op Cit**, P80.

١٣٩) Gaston Wiet, **Les Inscriptions Arabes de Damas**, dans Syrie, Volume 2, 1921, P P 112 – 113.

١٤٠) Dussaud, **TOPOGRAPHIE HISTORIQUE**, P 91.

١٤١) إبن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص ٢١٩ – وقد عرفها ياقوت الحمويّ، بأنّها جبل الشّام من ناحية بعلبك، راجع **معجم البلدان**، ج ٢، ص ١٤٥- ويذكر نعمة أن عين الجر هي عنجر قضاء زحلة ومعنى الإسم العين الجارية، وهي موقع أثريّ يُخفي بَيْنَ خرائِبِه حضارات شُعوب مًختلفة، راجِع **موسوعة المدن والقرى اللبنانية**، ص ٣٧٦، فريحه، **معجم أسماء المدن والقرى اللّبنانيّة**، ص ١١٩.

١٤٢) المُهلّبيّ، **المسالك والممالك**، ص ٩٥.

١٤٣) Dussaud, **Op Cit**, P 400.

١٤٤) إبن خرداذبة، **المصدر المذكور**، ص ٢١٩، قرية العيون هي مدينة مرجعيون حاليًا في الجنوب اللّبنانيّ.

٢٢) القرعون: تبعدُ عن عين الجر خمسة عشر ميلاً، والقرعون منزلٌ في بطنِ الوادي، ومن القرعون إلى كَفر ليلى عشرون ميلاً [١٤٥].

٢٣) القلمون: ذَكَرَها ابن حوقل على خريطة «صورة الشأم» أثناء تِعدادِه المُدن السّاحليّة[١٤٦]، ويذكر ناصر خسرو أن قلعة قلمون تبعد مسافة فرسخ عن طرابلس، وفي داخلها عين ماء.[١٤٧]

٢٤) كامد: وَرَدَ اسمها عند المُهلّبيّ وهو يُعطيها أهمّيةً بقوله: إنّ مدينة كامد كانت قاعدةَ تلك البلاد قديمًا، وهي تبعدُ عن مشغرة ستّة أميال وتَبعدُ عن عينِ الجر (عنجر) ثمانية عشر ميلَا[١٤٨].

٢٥) كفرليلى: ذَكَرَها ابن خرداذبة بقوله: «ومنِ العيون تَمضي إلى كفرليلى، ومن كفرليلى إلى طبريّة خمسة عشر ميلاً، وفي هذا الطريق يُوجد جب يوسف عليه السلام[١٤٩]، كما ورد اسمها عند دوسو Kafr kila كفركيلا[١٥٠].

٢٦) لبنان: وَرَد هذا الإسم عِند ابن خرداذبة في خِضَمّ ذِكرِه أقاليم حِمص بقوله : «إقليم لبنان»[١٥١]. كما وَرَدَ عِنده اسمُ لبنان عِند تِعدادِه كُورة دمشق وأقاليمها[١٥٢]، ووَرَدَ الاسم أيضًا عِند إبن حوقل على «خريطة الشأم»[١٥٣]. ويعرّفُهُ ابن عبد المنعم الحميريّ بأنّه جبل بالشّام قريب من تدمر

---

١٤٥) إبن خرداذبة، **المصدر نفسه**، ص ٢١٩، وهي موجودة في البقاع الغربيّ ومعنى الإسم اليقطينة الصغيرة، راجع نعمة، **موسوعة المدن والقرى اللّبنانيّة**، ص٤١١.

١٤٦) إبن حوقل، **المسالك والممالك**، ص ص ١٦٥ – ١٦٧، فريحه، المرجع المذكور، ص ١٤٠.

١٤٧) ناصر خسرو، **سفر نامة**، ص ٤٨.

١٤٨) المُهلّبيّ، **المصدر المذكور**، ص ٩٥، وكامد هي اليوم مَعروفة بكامد اللّوز، وهي من قُرى البقاع الغربيّ ومعنى الإسم اللّوز الجاف، وفيها العديد من المغاور، راجع نعمة، **موسوعة المدن والقرى اللّبنانيّة**، ص٢١٩.

١٤٩) إبن خرداذبة، **المصدر المذكور**، ص ٢١٩.

١٥٠) Dussaud, **Op Cit**, P398
وكفركلا اليوم هي قرية من قرى جنوب لبنان تابعة لقضاء مرجعيون، ومعنى الإسم قرية العرائس (من الآراميّة) راجع نعمة، **المرجع المذكور**، ص ٤٢٩.

١٥١) إبن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص٧٣.

١٥٢) إبن خرداذبة، **المصدر نفسه**، ص٧٧.

١٥٣) إبن حوقل، **المسالك والممالك**، ص١٦٥، وقد سبق واستفضنا بالتفاصيل عنه والتّسميات التي أُطلقت عليه سابقًا تحت إسم جبل لبنان، فيما يذكر الإسكندريّ في كتابه **الأمكنة والمياه والجبال ونحوها**، ص ٢٧٠، بأنّ لبنان هو جبلان قرب مكّة الأعلى والأسفل، ولبنان كما عرّفه فريحة بأنّه من جذر ساميّ مشترك لبن ويفيد البياض، وقد

وهو سامي الإرتفاع، ممتد الطول يتصل من البحر إلى البحر معروف بالزُّهّاد والمُنقطعين إلى اللّه تعالى.[١٥٤] ويذكر البكريّ خَبَرًا مُميزًا تحت عنوان: «القول في خلق حوّاء عليها السلام»، صحّ عن النبيّ عليه السلام، فقال يارب كنتُ أسمعُ أصوات الملائكة وهُم يُسبّحونك وأجِد ريح الجنّة وطِيبها، وكُنت آنس بذلك فقد ذهب ذلك عنّي، فأجابه اللّه سبحانه يا آدم لمعصيتك فعلت بك ذلك، وأوحى اللّه إليه أن لي حرمًا بِحيال عرشي، فانطلق فابنِ بيتًا تحفّ به، كما رأيْتُ الملائكة يحفّون بِعرشي، فهناك أستجيب لك ولولدك ومن كان مِنهم في طاعتي. فقال آدم: يا رب وكيف لِي بذلك فقيض له ملكًا فانطلق به نحو مكّة، فكان آدم إذا مرّ بروضة أو مكان يُعجبه، يسأل الملك أن يَنْزِل به حتى أتى مكّة فصار كلّ مكان يّنزل به عُمرانًا، وكلّ مكان تعدّاه مَفازة، فَبَنَى البيت من خمسة أَجْبُل من طور سَيْناء، وطور زيْتا، ولبنان، والجوديّ، وبَنى قَواعده من حِراء، ثم أراه الملك المناسك كلّها[١٥٥].

٢٧) اللّبوة: وَرَدَ اسمها عند ابن حوقل على خريطة «صورة الشأم» وهي على طريق جوسيّه بعلبك الزبدانيّ[١٥٦].

٢٨) الماحوز: وَرَدَ هذا الاسم عند ابن حوقل على خريطة «صورة الشأم»، وحدّد موقِعَها بين جبيل وجونيه[١٥٧]؛ بَينما يَذْكُر لامنس في كِتابه «تسريح الأبصار»: «وإنْ سِرت من برجا بَعيدًا عَنها وَجَدْت بئرًا أو عَيْنًا يَدْعُوها أهلُ تلكَ النّواحي عين ماحوز، ولعلّ أصلّها يَرتقي إلى أيام الفِينِيقِيّين. وهذه العَين مِنِ الأعمال القديمة الخَطيرة يُنْزَلُ إليها بِدَرَج مُحكم الإتقان نُقِرَ في الصخر.» وكان بالقرب مِنْ هذه البئر في القرونٌ المُتَوَسِّطة حِصْنٌ كَما يَشْهَدُ على ذلك الشريف الإدريسيّ، وفي شماليّ عَين الماحوز بالقُرب مِنْ قَرْيَتَيّ بوار وصفرة مَدافِن مُتَّسِعَة مَنْقورة في

اختلفوا بأوجه التسمية بالبياض، فمن قائل نسبة إلى اللّبان أي البخور والكندر، ومن قائل لبياض ثلجه... ومن قائل أنّه سميّ بالبياض تجوّزًا أو ذلك لبهائه وصفاته وجماله، راجع فريحة، **معجم أسماء المدن والقرى اللّبنانيّة**، ص ١٥٧.

١٥٤) الحميري، **الروض المعطار**، ص ٥٠٨.

١٥٥) البكري، **المسالك والممالك**، مج١، ص ١٨، الحميريّ، **الروض المعطار**، ص ٥٠٨.

١٥٦) إبن حوقل، **المسالك والممالك**، ص ١٦٦، ويضيف فريحة في: **معجم أسماء المدن والقرى**، ص ١٥٧، أن الإسم قد يكون عربيًا بمعنى أنثى الأسد، والأسد كان معروفًا في هذه البقعة من الأرض، وقد يكون سريانيًا Lebbwata بمعنى القلب والوسط واللب.

١٥٧) إبن حوقل، **المصدر المذكور**، ص ص ١٦٥ – ١٦٧، ويحدد الإدريسي، محمد، في كتابه: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، ج١، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩، ص ٣٧٢، ويذكر بأن ماحوز جبيل هو حصن حصين.

الصخر، لَها مَداخل عَدة مِنْ جوانب تِلك الوديان، وهذه القُبور تَدُلّ على وُجود قَريَة قديمة هناك[١٥٨].

٢٩) مشغرى: وَرَدَ اسمها مشغرا عند المُهلّبيّ. عُرف عَنْها بِأنَّها مِن أنْزَهِ بَلَد في تِلك النّاحية، وتَقَع في وادٍ في نِهاية الحُسن بالأشجار، وهي تَبْعُدُ عن صيدا أربعة وعشرين ميلاً، وتَبْعُد عَن كامد اللّوز ستة أميال[١٥٩]. وَرَدَ اسمُها مَشغرة عند دوسّو، وهي على الطريق بَين ضَيعة غِزّين Gezine جِزّين ووادي البقاع، ويُسمِّيها رينان Meshghara[١٦٠]، بينما ليسترانج يُعرِّف مشغرة Meshghara بأنَّها بلدةٌ كبيرة تَتّبع إقليمَ البقاع[١٦١]، على الطريق الموازية للضفة اليُمنى لِنَهر اللّيطاني، وعند تَفَرُّع الطريق نَحو جِزّين وصيدا، أَيْ أنّها على الطريق المُباشرة صيدا – دمشق، وأَعْطَت هذه البلدة إسمها للمُرتفعات المُجاورة لها[١٦٢].

٣٠) الناعمة: وَرَدَ اسمها فقط عِند ابن حوقل على «خريطة الشأم»[١٦٣].

٣١) وجه الحجر: ذَكَرَها البكريّ أثناء ذِكْرِهِ دمشق بقوله: «لها كُورة جَليلة ومُدُنها بصرى وأطرابلس ووَجه الحجر وأجنادين وُصولاً إلى مرج راهط»[١٦٤]. ويُسمّيها رينان أنف الحجر[١٦٥]، بَينما يَذْكُرُ دوسّو أنّ اسمها قديمًا كان Theouprosopan ثيوبروسوبون.[١٦٦]

---

١٥٨) هنري لامنس، **تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار**، ج١، دار الرائد اللبناني، ط٢، بيروت، ١٩٨٢، ص ٥٨.

١٥٩) المُهلّبيّ، **المسالك والممالك**، ص ٩٥.

١٦٠) Dussaud, **Topographie Historique**, P397.

١٦١) Le Strange, **Palestine under the Muslims**, P 505.

١٦٢) Le Strange, **Ibid**, P P 347 – 56.

١٦٣) إبن حوقل، **المسالك والممالك**، ص ص ١٦٥ – ١٦٧، والناعمة تتبع اليوم قضاء الشوف (ساحله)، والإسم الآراميّ يَدُلّ على الحُسن والجمال أي الجميلة والمستحبّة، راجع نعمة، موسوعة المدن والقرى اللّبنانيّة، ص ٤٥٨.

١٦٤) البكريّ، **المسالك والممالك**، مج ٢، ص ٣٦، وهو رأس الشقعة، مكان مقدس عند الفِنيقِيّين، وكانوا يُسمونه PENU-EL أي وَجه الإله ثُمَّ وَجْهُ اللّهِ، ولكن عندما تنصرت البلاد تمّ تغيّير الإسم إلى Lithoprospon أي وجه الحجر تَرَفُّعًا عن الوثنيّة، راجع فريحة، **معجم أسماء المدن والقرى اللّبنانيّة**، ص ١٨٧.

١٦٥) Renan, **Mission de Phénicie**, P141.

١٦٦) ويُضيف أنّ ثيوبروسوبون هي الترجمة اللاّتينيّة لاسم وجه الحجر Wadjh El Hajar الذي حلّ محلّ إسم أقدم له هو بنة إيل Péné-EL، وإنّ رأس الشقعة والتسميّة الإغريقيّة، «ثيوبروسوبون»، تعني رأس وجه اللّه، بينما يَذْكُر شيخ الربوة الدّمشقيّ

مَع نهايةِ هذا البحث، نكرر أن المَعلوماتِ التي عَرضناها لا تزال مَنقوصةً، فأوّل مَهمّة كان علينا القِيام بِها هي تحديدُ اسم وموقع البلداتِ اللّبنانيّة والمدنِ مِنْ خِلال كُتُبِ الجُغرافيّين والرحّالة العَرب أَصحابِ المسالك والممالك، وإضافة بعضِ التّوضيحاتِ عليها مِن بَعْضِ كُتُبِ الجغرافيا والرحّالة الأجانب أحياناً. وأشرنا إلى وُجود مُدُن وقُرى لبنانيّة كانَت مَعْروفةً في العصور الوسطى ولَوْ بتَسْمِيات مُختلفة اليوم عن العُصور الغابرة. وثمة تَفاوت بَين مِنطقة وأخرى بِحَسَبِ الإشاراتِ الواردةِ عَنْها والمَأخوذة مِن مَوقِع مُحدّد، وبَيْنَ البَحثِ والتَّمحيص اللّذين تَتَطَلَّبهما بعض القُرى المُنْدَثِرة، لذا لم يَكُن بإمكاننا اعتمادُ إطارٍ مَنْهَجِيّ مُوَحّد في جَميع ما مَرّ معنا.

لم يكن جبل لبنان مَعروفًا جيدًا مِنْ الجُغرافيّين القُدماء ومُعظم الجغرافيّين العَرب، ما سَبّب ثَغرة في هذا البَحث. ولكِنْ بما أنَّ أسماءَ باقي المُدن والقُرى اللّبنانيّة خاصّة الساحليّة والبقاعيّة أثارَت انْتِباهَ عَدَدٍ كبيرٍ مِنَ الجُغرافيّين، بَعْدَ مُقارنة أوصافِهم تَوَصلّنا إلى المُقاربات التاليّة:

١. إتّسمَ الجُغرافيّون بِصفة الوَصْفِيّين فتَركّز اهتمامُهم على مُلاحظة المَشاهد والمظاهر العامّة للمنطقة مَع ثَبات التّفاصيل الواردة عَنْها في الماضي دونَ أيّ تغيير يُذكر، كما في كتابات ابن حوقل المَنقول أكثرُها عَن الإصطخريّ الذي يُعتَبَر من أقدمِ جُغرافييّ العصور الوسطى.

٢. ركّز الجُغرافيّون بِقوّة وثَبات على عَرض مَعلوماتِهم بالرّغم مِن عَدَم دِقَّتِها وعَدَم الغَوصِ في تفاصيلها، فأتى عَرْضُهُم مملًّا لتَتَلاءم مَع أُسلوبِ العصور الوسطى آنذاك، وغاصوا في الأساطير والحِكايات والروايات المُدهشة والمُثيرة الاستغراب دونَ أنْ يتجاوزوا حُدود الأمبراطوريّة الإسلاميّة. فالمؤرّخون المسلمون (الشرقيّون بِصورة خاصّة) يَجْهَلون العالم المسيحيّ ويعرفون حتّى بِسوء الغَرب الإسلاميّ باستثناء ابن حوقل الذي يَحتوي كِتابه على عِدّة نِقاط مُهمّة تُشكّل مَصدرًا تاريخيًّا وحيدًا، وفُصوله عن المغرب وإسبانيا وصقلّية تُعْتَبُ أساسيّة.

٣. ثمة إهمال في تَحديد بعض المناطق، وغُموض يَلُفّ مناطق أخرى، لصُعوبة المسالك آنذاك، روُبّما بِسبب كَثرة الوِديان والغابات

في كِتابه: **نُخبة الدّهر في عجائب البر والبحر**، تحقيق فرين ومهرن، منشورات فرانكفورت، ألمانيا، ١٩٩٤، ص ١٤٤، أنّ موقعها بالقرب من طرابلس الشام.

والحيوانات الضّاريّة وصُعوبة إجتياز الجبال، فاكتفى بَعضهم بإعطاء فَرضيّات ونَظريّات بَعيدة عَن عِلم الجغرافيا اليوم. لذا نعتبر كُتُبَهم، رغم أهميتها في عصرهم، بالرُّغم مِن أهمّيتها عَن عصرهم، نوعًا من دليل سياحي، فيه تعريفُ الخُلفاء بِمسالك ومَمالك الدّول البعيدة، لِكَسْبِ رضاهم ونَيْل حَظْوَةٍ عندَهم (خصوصًا مع الإصطخريّ والبكريّ)، مَع أنّ بَعضهم تَكبّد مَشقّة السّفر وصُعوبة التّنقل بالرغم من الأخطار العسكريّة والحروب التي كانت آنذاك (صراع عبّاسيّ – فاطميّ، صراع مغوليّ – خوارزميّ، صراع مغوليّ – إسماعيليّ، صراع فاطميّ – فرنجيّ وصراع سلجوقيّ – بيزنطيّ). وهذا شكَّلَ جُزرًا أمنيّة ومناطقَ مُغلقة على طائفة مُعيّنة، والخَوف على المصير أَجْبَر بَعض الرحّالة على أن يَنْقُلُوا عَن بَعضهم البَعض، وأن يَسرق الخَلَف عَنِ السّلَف ما كَتَبَه أو ما سَمِعَه بالتَّواتُر، فأعطونا معلومات مِغْلوطة أحيانًا.

٤. لم يتطرق الرحّالة والجغرافيّون إلى وصف المُدن والقُرى التي كانت مَأهولة آنذاك في القرون الوسطى وخُصوصًا في جبل لبنان ولبنان الشّماليّ، والذي كانت وِديانُه صَوامِع ومَحابِس للنُّسّاك والزُّهّاد. ولا أعطونا تفاصيل اجتماعيّة عن سكّان مناطق يَزعَم البعض منهم أنّهم زاروها (زورًا)، ولم يُشيروا إلى أي مَعْلَم دينيّ. ولَو فَعَلوا ذلك لَساعدوا على التَّعرّف بتركيبة السكان الدِّيموغرافيّة آنذاك.

٥. الإهمال الذي عانَت مِنه المناطق اللّبنانيّة في الفترة الوَسيطة مِن تاريخ لبنان، وخاصّة في العصريْن الأمويّ والعبّاسيّ (الأول والثاني)، أمرٌ يُثير الاسْتِغراب والاسْتِهجان إذا ما قِسنا بِما كُتب عن تاريخ لبنان في العَهد الفِينِيقِيّ، ومَرَدّ ذلك إلى أنَّ مُؤَرِّخي القرون الوسطى لم يَكتبوا تاريخ لبنان الوسيط وخاصّة جُغرافيا مُدنه وقُراه وأَحْوال شَعبه نظرًا لانْشِغالِهم بالكِتابة عن الدّول والعواصم واهتمامِهم بأخبار الخُلفاء والمُلوك دون سِواهم، ما سَبَّبَ ثَغَرات وشَوائِبَ حاول بعضُ الجغرافيّين تَغْطِيَتَها دون قَصد فَوقَعوا في المَحظور، وغاصُوا في مَسالك لُبنان ومَمالكِه الشّائِكة وضاعوا في غابات جباله وهُم مَعذورون لأنّهم أغراب عَن المنطقة. لكنّنا لا نَعذر مؤرّخين لبنانيّين في العصور الحديثة على هذا الإهمال المُتَعَمَّد لِتاريخ وجُغرافيّا لبنان في العصور الوسيطة.

٦. إنّ المَسح الجُغرافيّ الذي أعطانا إيّاه هؤلاء الرحّالة تركّز على بَعض المناطق في سهلِ البقاع نَظرًا لأهميّة مَوقِعِها ولِقِدم تاريخِها

الأثريّ، وكَوْنَها كانت جِزءًا لا يَتَجَزّأ آنذاك مِن كُورة دمشق وأقاليمها، نَظرًا لِسُهولة أرضِها، إضافة إلى تركيزِهم على المناطق التي تُعتبَر اليوم ساحليّة مِن طرابلس حتّى صور، وهذا ما يتّضِح جَلِيًا على «خريطة الشأم» لابن حوقل، لأنَّ هذه المُدن شَكّلَت قَواعِدَ عَسكريّة ومَرْكَزَ جَذْبِ وصِراع إسلاميّ – إفرنْجِيّ. لكِن هذا لا يَعني أنَّ بَعض المُدنِ التي تُعتبَر اليوم مَركزَ قَضاء لم تَكُن مَوجودة، ولكِنْ للأسبابِ الآنِفَة الذِّكر لَم يَأْتِ هؤلاء على ذِكرِها، ولهذا لا يُعْفيهم مِنَ التّقصير والإهمال.

٧. الطُّوبوغرافيا في بِلاد الشّام لم تَعرف أي تَقدُّم، وهي تَفْتَقِر إلى الخرائط. وأخبار الأصقاع التي حصلنا عليها أتَت معلوماتها مُتناقِضة أحيانًا. ويَعود السّبَب في هذا النَّقص إلى تراجع النّشاط العِلْمِيّ الذي رافق التَّخلّي التَّدريجيّ عَن الثَّقافة اليُونانيّة. هذا لا يَعني أنَّ العرب حاولوا الكشف عن العُلوم الجُغرافيّة القديمة، فهُم نَقَلوها إلى لُغَتِهم مُسْتَعمِلين مُصنّفات إسطرابون وبلّلينوس وبطليموس، ولم يظهرْ التّطور لدى الجُغرافيّين العَرب إلاّ في بَعْضِ الكِتابات خاصّة مع ياقوت الحمويّ الذي أعطى جُغرافياهم قِيمةً علميّةً مُميزة.

٨. صحيح أنّ ما عَرَضْناه غيرُ كافٍ وغيرُ وافٍ، لكِنْ هذا كُلّ ما تَوَصّلْنا إليه فقط من خِلال كُتب المسالك والممالك. وبالرُّغم من مآخِذِنا عَليها، تسدُّ حاجةً مَطلوبة.

أرجو في هذا البحث أنْ أكون قد عَرَضْتُ المادّة بِكُلّ دِقّةٍ ومَوضوعيّةٍ وبأمانةٍ علمية، وأنْ أكونَ قد فَتحتُ بابًا وَلَوْ صغيرًا أمامَ الباحثينَ للوُلُوج إلى باقي المَسالك والمَمالك البَعيدة والشاسعة عَلَّهُم يَمُدّوننا بِجَديدٍ نَحنُ في حاجةٍ إليه.

المصادر والمراجع:

١. المصادر:

- إبن أيبك الدواداري، أبو بكر بن عبد الله (ت ٧٣٦ هـ./١٣٣٥ م.)، **كنز الدرر وجامع الغرر**، الجزء الأول (**الدرة العليا في أخبار بدء الدنيا**)، تحقيق بيير رانكه، منشورات المعهد الألماني للآثار بالقاهرة، ١٩٨٢.
- إبن حوقل النصيبي، أبو القاسم (ت ٣٧١ هـ./٩٨١ م.)، **المسالك والممالك المعروف باسم صورة الأرض**، الجزء الأول، تحقيق كرامرز، ليدن، ١٩٣٨.
- إبن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله (ت ٣٠١ هـ./٩١٣ م.)، المسالك والممالك، ويليه **كتاب الخراج**، لأبي الفرج قدامة بن جعفر البغدادي، طبعة ليدن بريل، ١٨٨٩.
- أبو الفداء، عماد الدين إسماعيل بن شاهنشاه بن أيوب (ت ٧٣١ هـ./١٣٣٢ م.)، **كتاب تقويم البلدان**، صححه وطبعه رينود والبارون ماك كوكين ديسلان، طبعة باريس، ١٨٤٠.
- إبن عبد المنعم الحميري، محمد (ت ٩٠٠ هـ./١٤٩٥ م.)، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، حققه د. إحسان عباس، الطبعة الثانية، منشورات مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٨٤.
- الإدريسي، محمد (ت ٦٤٩ هـ./١٢٥١ م.)، **كتاب نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، الجزء الأول، منشورات عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٩.
- الإسكندري، أبي الفتح نصر بن إسماعيل (ت ٥٦١ هـ./١١٦٦ م.)، **كتاب الأمكنة والمياه والجبال ونحوها**، تحقيق حسن النابودة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، لا. ت..
- الإصطخري، المعروف بالكرخي، أبي إسحق إبراهيم بن محمد الفارسي، (٣٥٠ هـ./٩٦١ م.)، **مسالك الممالك**، طبعة مطبعة بريل ليدن، ١٩٢٧.
- البغدادي، صفي الدين بن عبد الحق (ت ٧٣٩ هـ./١٣٣٨ م.)، **مراصد الإطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع**، المجلد الأول والثاني والثالث، تحقيق علي البجّاوي، الطبعة الأولى، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢.
- البكريّ، أبو عبيد الله عبد الله عبد العزيز بن محمد (ت ٤٨٧ هـ./١٠٩٤ م.)، **المسالك والممالك**، المجلد الأول والثاني، حققه ووضع فهارسه د. جمال طلبة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٣.
- حاجي خليفة، مصطفى بن عبد الله كاتب جلبي (ت ١٠٦٧ هـ./١٦٥٧ م.)، **كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، إعتنى به محمد عبد القادر عطا، المجلد الثالث، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨.

- خسرو، ناصر (ت ٤٥٣ هـ./١٠٦١ م.)، **سفر نامه رحلة ناصر خسرو إلى لبنان وفلسطين ومصر والجزيرة العربية في القرن الخامس الهجري**، نقلها إلى العربية د. يحيى الخشاب، الطبعة الثالثة، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٨٣.
- السَيُّوطيّ، جلال الدين عبد الرحمن بن عثمان (ت ٩١١ هـ./١٥٠٥ م.)، **تاريخ الخلفاء**، حققه قاسم الرفاعي ومحمد العثماني، الطبعة الأولى، دار القلم، بيروت، ١٩٨٦.
- شيخ الربوة الدمشقي، شمس الدين أبو عبد اللّه محمد بن أبي طالب الأنصاري الدمشقي (ت ٧٢٩ هـ./ ١٣٢٧ م.)، **نخبة الدهر في عجائب البر والبحر**، تحقيق فرين ومهرن، فرانكفورت، ألمانيا، ١٩٩٤.
- المهلبيّ، الحسن بن أحمد (ت ٣٨٠ هـ./٩٩٠ م.)، **الكتاب العزيزي المسالك والممالك**، جمعه وعلّق عليه تيسير خلف، الطبعة الأولى، دار التكوين للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق، ٢٠٠٦.
- ياقوت الحمويّ، أبو عبد اللّه الروميّ (ت ٦٢٥ هـ./١٢٢٨ م.)، **معجم البلدان**، تحقيق فريد الجندي، الجزء الرابع، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٠.
- المراجع العربية:
- أبو نجم، جوزف، **المدن والقرى اللبنانية من خلال بعض الجغرافيين العرب بين القرنين العاشر والرابع عشر**، مجلة المشرق، السنة ٦٩، كانون الثاني – حزيران، ١٩٩٥.
- أرندنك كارل فان، مقال «**إبن خرداذبة**» في دائرة المعارف الإسلامية، المجلد الأول، دار المعرفة، بيروت، لا.ت.، ص ص ١٤٩ – ١٥٠.
- البغدادي، إسماعيل باشا محمد أمين بن ميرسليم الباباني، **إيضاح المكنون في الذيل على كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون**، الجزء الأول، إعتنى به محمد عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨.
- – **هدية العارفين أسماء المؤلفين وآثار المصنفين من كشف الظنون**، الجزء الأول، إعتنى به محمد عبد القادر عطا، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٨.
- تدمريّ، عمر عبد السلام، **لبنان من قيام الدولة العبّاسيّة حتى سقوط الدولة الإخشيديّة ١٣٢ – ٣٥٨ هـ./٧٥٠ – ٩٦٩ م**، الطبعة الأولى، جرّوس برّس، طرابلس، ١٩٩٢.
- حسن، إبراهيم حسن، **تاريخ الإسلام السياسيّ والثقافيّ والدينيّ**

والإجتماعيّ، الجزء الثاني، الطبعة الثالثة عشرة، دار الجيل، بيروت، ١٩٩١.

- حسن، محمد زكي، **الرحالة المسلمون في العصور الوسطى**، دار الرائد العربي، بيروت، لا. ت..
- الدمشقي، يوسف إليان سركيس، **معجم المطبوعات العربيّة والمعرّبة**، منشورات مكتبة سركيس، مصر، ١٩٢٨، ودار صادر، بيروت، لا.ت..
- سوفاجيه، جان وكاهن، كلود، **مصادر دراسة التاريخ الإسلاميّ**، ترجمة د. عبد الستّار حلوجي ود. عبد الوهّاب علّوب، المجلس الأعلى للثقافة، ١٩٩٨.
- فريحه، أنيس: **معجم أسماء المدن والقرى اللّبنانيّة**، الطبعة الثالثة، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٩٢.
- فهيم، حسن محمد، **أدب الرحلات**، منشورات عالم المعرفة، العدد ١٣٨، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٤٠٩ هـ./١٩٩٨ م..
- كراتشكوفسكي، إغناطيوس يوليانوفتش، **تاريخ الأدب الجغرافيّ العربيّ**، نقله من الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، الطبعة الثانية، دار الغرب الإسلاميّ، بيروت، ١٩٨٧.
- كرامرز، مقال «**جغرافيا**» في دائرة المعارف الإسلامية، المجلد السابع، دار المعرفة، بيروت، لا. ت..، ص ص ١٠ – ٤٣.
- لامنس، هنري، **تسريح الأبصار فيما يحتوي لبنان من الآثار**، الجزء الأول، الطبعة الثانية، دار الرائد اللبناني، بيروت، ١٩٨٢.
- مكي، محمد علي، **لبنان من الفتح العربي إلى الفتح العثماني**، طبعة دار النهار، بيروت، لا.ت..
- مؤنس، حسين، **أطلس تاريخ الإسلام**، منشورات الزهراء للإعلام العربي، لا.ت..
- نعمة، حسن، **موسوعة المدن والقرى اللبنانية**، الطبعة الأولى، دار عون للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٩٦.

٢. المراجع الأجنبية:

- Bellon, Pierre, **Les observations de plusieurs singularités et choses mémorables, trouvées en Grèce, Turquie, Judée, Egypte, Arabie, et autres pays étranges, 1553**, Paris, 1897.
- Callier, Camille, **Voyage en Asie mineure, en Syrie, en Palestine et en Arabie Pétrée**, dans Bulletin sociale de géographie de Paris, 1835.
- Contenau, Georges, **Mission Archéologique à Sidon**, Dans journal Syria, Paris, 1920.

- Dussaud, René, **Topographie Historique de la Syrie antique et médiévale**, édition Geuthner, Paris, 1927.
- Eiselen, Fr. C, **Sidon, A Study in Oriental History**, New York, 1907.
- Fleming, W. B., **The History of Tyre**, New York, 1995.
- Jullien, Michel, **Sinaii et Syrie**, Lile, 1893.
- Lamens, Henri, **La Syrie**, volume 1 – 2, Beyrouth, 1921.
- Le Lasseur, Denise, **Mission Archéologique à Tyre**, Dans journal Syria, Paris, 1921.
- Le Strange, Guy, **Palestine under the Muslims**, London, 1890.
- Maspero, Gaston, **Histoire ancienne des peuples de l'orient classique**, vol II, Paris, 1895.
- Moqbul, Ahmad, Art "**Djughrafiya**" Dans EI2, Vol II, 1977, P P 590 – 602.
- Pellat, Charles, Art "**Al Masalik Wa – L – Mamalik**" Dans EI2, Vol VI, 1992, P P 624 – 625.
- Qatremère, Étienne, **Histoire des Sultans Mamelouks**, Paris, 1827.
- Renan, Ernest, **Mission de Phénicie, avec Atlas**, volume 1, Paris, 1874.
- Wiet, Gaston, **Les Inscriptions Arabes de Damas**, Dans journal Syrie, Paris, 1923.

المجاعة والحرب العالمية الاولى وانعكاساتهما على النشاط المادي والحرفي والمهني في قرية بعبدات نموذجًا

د. رجاء لبكي

ملخص

لم تكن بعبدات حالة متمايزة عن بقية قرى جبل لبنان خلال الحرب العالمية الأولى. عانت كغيرها من التدابير والإجراءات العثمانية الظالمة، إضافة إلى ما عاشه أهلها من كوارث طبيعية وأمراض قاتلة وجوع مُميت وسعي وراء الرغيف.

يتناول هذا البحث، علميًّا وموضوعيًّا، ظاهرة المجاعة في قرية بعبدات (المتن الشمالي–لبنان)، وتأثيرها على النشاط المادي والحرفي والمهني خلال الحرب العالمية الأولى، استنادًا إلى مصادر القرية المباشرة كدفاتر المختَرَة والمفكرات الخاصة والسجلَّات الرعائية والمقابلات القديمة المسجّلة ووثائق أخرى. وتتطرق الدراسة إلى كوارث الحرب والمجاعة لفهم تغيّرات جرت على النشاط الحرفي والمادي لا بدّ من عرضها وتحليلها. وستكون في الحواشي والملاحق معلومات إضافية قد تكون إشكاليات لأبحاث أخرى.

ويتناول هذا البحث جوانب جديدة من أسباب ونتائج حول تغيير مهني وحرفي فاجتماعي طرأ على المجتمع البعبداتي خاصةً، واللبناني عامةً، يمكن الاعتماد عليه في دراسات مشابهة على قرى أخرى.

مقدمة

لم تكن بعبدات حالة متمايزة عن بقية قرى جبل لبنان خلال الحرب العالمية الأولى. فهي عانت كغيرها من التدابير والإجراءات العثمانية الظالمة، إضافة إلى ما عاشه أهلها من كوارث طبيعية وأمراض قاتلة وجوع مُميت وسعي وراء الرغيف.

يتناول هذا البحث علْميًّا موضوعَي المجاعة والحرب العالمية الأولى في بعبدات ومدى تأثيرهما على النشاط المادي والحرفي والمهني.

أبدأ بالإشكالية التالية: هل قضت الحرب العالمية الاولى والمجاعة على النشاط المادي والحرفي والمهني؟وأنطلق من الفرضيات التالية:

أ) شبه انعدام التصدير والموارد المادية التي على أساسها بنيت حرف ومهن، والعجلة الاقتصادية.

ب) خوف الناس من العمل في العلن خوف وضْع السلطات العثمانية يدها على الإنتاج.

ج) التركيز على الأساس: تأمين الرغيف حتى ليصبح كل شيءٍ آخر ثانويًا أو وسيلة استحصال على الطعام.

د) ضعف التغذية بسبب المجاعة، وتاليًا تراجع القوة البدنية فالعمل.

ه) وفاة عدد كبير من الحرفيين والمهنيين في المجاعة، أو مصادرة السلطات العثمانية الشباب لأعمال السخرة.

لأجل ذلك، سأعتمد على المنهج الوصفي والتحليلي للتحقق من الفرضيات، استنادًا إلى مصادر القرية المباشرة كدفاتر المختترة والمفكرات الخاصة والسجلاّت الرعائية والمقابلات القديمة المسجّلة ووثائق أخرى. وسأدرس كوارث الحرب والمجاعة لفهم تغيّرات جرت على النشاط الحرفي والمادي والمهني لا بدّ من عرضها بالتفصيل وتحليلها. وسأعرض في الحواشي والملاحق معلومات إضافية مهمة قد تكون إشكاليات لأبحاث أخرى.

قبل بحث المجاعة وتأثيرها مع الحرب على النشاط الحرفي والمادي والمهني، ثمة وقائع تُشكّل الإطار التاريخي للمرحلة، بوصف الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في بعبدات عند اندلاع الحرب العالمية الأولى، وإجراءات جمال باشا القاسية في لبنان تحضيرًا للقيام بحملة على مصر، ووصف الوضع البلدي والإجراءات المحلية في بعبدات خلال الحرب، مع التوقف عند صدور النقد الورقي وأثره على غلاء الأسعار والمعيشة والحصار.

ا. الواقع الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في بعبدات عند اندلاع الحرب العالمية الاولى

قبيل اندلاع الحرب العالمية الاولى سنة ١٩١٤، كان البعبداتيون، كما في سائر القرى اللبنانية، يعملون غالبًا في فلاحة الأرض وزرعها وجمع محاصيل القمح والحبوب على كافة أنواعها، وقطاف الأشجار المثمرة وكروم العنب والتين والصنوبر، وتحضير مقدّدات ومخلّلات. واقتنوا

المواشي من بقر وأغنام وربّوا الدجاج، وامتهنوا صناعات يدوية، وغنِم بعضهم من أموال مهاجريهم، وما يكسبونه من بعض المصطافين من أبناء بعبدات المغتربين إلى مصر ومن أهل بيروت.

لم تشغلهم الحرب كثيرًا عند اندلاعها لأنّها لم تكن على أرضهم. كانوا يمنّون النفس بموسم جيّد لتربية دودة القز وحلّ الحرير، لكنّ القلق بدأ يتسرّب إلى نفوسهم عند دخول السلطنة فيها، واتّخاذها تدابير عسكرية تمسّ كيان متصرّفيّة جبل لبنان وامتيازاته، وارتفاع الأسعار، وتعثّر الأعمال، فاستشعروا أنّ أيّامًا سوداء مقبلة عليهم[١].

اجتماعيًّا كان عدد البعبداتيين (بأرقام غير دقيقة) بين ٧٠٠ و ٧٥٠ شخصًا، وينقسمون إلى ثلاث فئات:

– أغنياء (٩٠ شخصًا)
– متوسطي الحال (٢٠٠ شخصًا)
– فقراء (٣٥٠ شخصًا).

وكان عدد سكان منطقة السفيلا (مزرعة تابعة لبعبدات) نحو ١٠٠ شخص سنة ١٩٠٦، معظمهم موارنة[٢].

سياسيًا: كان على متصرّفيّة جبل لبنان المتصرّف أوهانس باشا[٣]. وكانت بعبدات تابعةً مديريةَ المتن، تتقاسمها قبيل الحرب العالمية الأولى تحزّبات سياسية بين عائلة لحود[٤] (على رأسها نصري، شيخ صلح القرية

---

١) اليان وجوزف لبكي: بعبدات في الحرب العالمية الاولى ١٩١٤–١٩١٨، كتاب قيد الطبع، ٢٠١٩.

٢) إبرهيم الأسود: دليل لبنان، طُبع في المطبعة العثمانية في بعبدا، ١٩٠٦، ص ٥٩٧.

٣) ولد أوهانس باشا في سنة ١٨٥٨ من عائلة قيومجيان الأرمنية. أبوه بادروس، والدته مارونية ابنة يولاكي حوّا، لا يعرف اللغة العربية، يتقن اللغات التركية والفرنسية والأرمنية. عُيّن كاتبًا في نظارة الخارجية العثمانية ثمّ مستشارًا لسفارة الدولة العليّة في روما حتّى تعيينه متصرّفًا على جبل لبنان. للتوسّع راجع عبد الله الملاح: المتصرّف أوهانس باشا قيومجيان في جبل لبنان ١٩١٣-١٩١٥، في مجلة كرونوس، دراسات تاريخية تصدرها جامعة البلمند، العدد ٣٤، ٢٠١٦، لحد خاطر: عهد المتصرفين في لبنان، ص ١٩٠، وجريدة ابو الهول، العدد ١٥٣، واحد شباط ١٩٣١، وجريدة البرق، العدد ٢٠٧، ١ كانون الثاني ١٩١٣، وعدد ٢١٠ وعدد ٢١١.

٤) آل لحود في بعبدات هم من عائلة لبكي ومن فرع بو مخايل. تملّكوا معملين للحرير في بعبدات والسفيلى المزرعة التابعة لبعبدات، وقد اتّخذوا هذا الإسم لأنّهم كانوا يتعاملون بتجارة الحرير مع فرنسا، وتمييّزًا لهم عن سائر تجّار الحرير من آل لبكي.

الذي حلّ مكان والده جريس سنة ١٩٠٤[٥])، ونعوم كسروان لبكي وأنصاره. وكان نصري لحود سنة ١٩٠٦ تزوّج ليلى ابنة الدكتور بطرس ناصيف لبكي (طبيب بلدية أضنة حتى وفاته سنة ١٩١٣). وحين عُيّن جمال باشا واليًا على أضنة سنة ١٩٠٩، تعارفا وتصادقا، وكانت روز (ابنة الدكتور بطرس لبكي شقيقة زوجة نصري) علّمت خطيبة جمال باشا اللغة الفرنسية والعزف على البيانو. وكان نصري لحود يعارض مشاركة لبنان في «مجلس المبعوثان» العثماني والحصول على تذاكر نفوس عثمانية. فإثر انقلاب «حزب الاتّحاد والترقّي» في تركيا على حكم السلطان عبد الحميد عام ١٩٠٨، كان هؤلاء يريدون إخضاع الشعوب التي يحكمونها لسياسة التتريك، ما يعني القضاء على لبنان وامتيازاته. وفي ٦ أيلول ١٩١٤ سافر نصري إلى أضنه لأعمال خاصّة (كانت لديه ممتلكات هناك). وعندما دخلت تركيا الحرب في ٢٩ تشرين الأوّل ١٩١٤، اتصل بجمال باشا (حاكم أضنه الذي عُيّن حاكمًا على سوريا ولبنان) طالبًا منه العودة إلى لبنان فلم يسمح له، رغم صداقتهما، بل أبقاه تحت المراقبة بسبب مواقفه تجاه مقرّرات السلطنة بعد انقلاب عام ١٩٠٨[٦]. فإذا بشقيقه نسيب (كان متزوّجًا من ماري ابنة الدكتور بطرس لبكي) يحل مكانه في بعبدات شيخًا بالوكالة.

وعلى عهد المتصرف أوهانس باشا وُلِّيَ نعوم لبكي على مديرية بسكنتا في ٢٥ تموز ١٩١٣، وبقي في منصبه حتّى ١٥ آذار ١٩١٥[٧] حين راح الأتراك يطاردونه.

راجع يوسف انطون لبكي: بعبدات انتفاضة في تاريخ جبل لبنان، رسالة ماجستير، الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، الفنار ص ٢١.

٥) نصري ولد سنة ١٨٨١، كان رجلاً مثقّفًا وملاّكًا وتاجرًا. تسلّم مشيخة بعبدات بين الأعوام ١٩٠٤ و ١٩٢٢.

٦) نصري لحود، مخطوط من تسع صفحات محفوظ في دير مار روكز للرهبنة الأنطونية ضهر الحصن.

٧) وُلد سنة ١٨٧٥، سافر إلى البرازيل سنة ١٨٩٦، أنشأ جرائد «الرقيب» و «المناظر» و«خلايا النحل» تناولت مواقف سياسية إصلاحية وقضايا السلطنة العثمانية ومتصرّفية جبل لبنان وغيرها من الشؤون الأدبية والفكرية. وعاد إلى لبنان في العام ١٩٠٨. سنعرض ما جرى لنعوم لبكي في الحرب العالمية الأولى، وما قام به من تحرّكات ومقاومة فيما بعد. للاستزادة راجع، يوسف انطون لبكي: نعوم كسروان لبكي: رجل فكر وإصلاح ١٨٧٥ – ١٩٢٤، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة القديس يوسف ١٩٨٤.

٢. إجراءات جمال باشا القاسية في لبنان تحضيرًا للقيام بحملة على مصر

في أواخر سنة ١٩١٤ كان جمال باشا يُعدّ لمهاجمة مصر، فأمر بمصادرة السلع والمواد اللازمة للجيش العثماني، وعيَّن لجنة خاصّة لتنفيذ الأمر، فشملت المصادرات سلعًا لا يحتاجها الجيش كالأمشاط وأحذية الأطفال. ومع أن متصرّفية جبل لبنان كانت معفاةً من الخدمة العسكرية، لم تُفْلِتْ من المداهمات والمصادرات، فراحت لجنة من رجال الجيش العثماني تطوف الطرقات وتصادر العجلات وعربات النقل وما تصادفه من خيلٍ وبغالٍ وحمير وجمال وأبقار وثيران، ما أدّى إلى أزمة في الزراعة والنقل والتجارة. وعُهد إلى رجال الدرك اللبناني الطواف على البيوت في القرى والمدن يجمعون منها باسمٍ الدولة تنكَ الكاز وأكياس الجنفيص كي يملأها الجند في الصحراء رملاً، ويقيموها في أثناء المعارك متاريس يرمون العدو من ورائها، ويتّقون بها رصاصه وشظاياه.

اعتبر اللبنانيون هذا النوع من المصادرة «شحادة» لا تليق بالدولة «العلية» فأخفوا في الدهاليز والمخابئ ما استطاعوا من الأكياس وتنك الكاز ولم يظفر الدرك إلاّ بالقليل منها. وهرَّبوا قسم من الحيوانات فترة إلى حيثُ لا تقع عليها العيون، وذبحوا بعضها وباعوا لحمها فتهاودت موقّتًا أسعار اللحوم. إنما قلّت وسائل النقل فارتفعت أجورها طوال الحرب[٨].

وشمل أمرُ جمال باشا بالمصادرة أيضًا حديد الدرابزين والمدقّات الحديدية وما يوجد من الحدايد القابلة لعمل العربات والأدوات الحفرية والأعمال العائدة للدفاع، والأواني النحاسية من طناجر وأجراس ليحوّلها الجند قنابل للمدافع. وصادر الأتراك بعض الأديار والكنائس والأوقاف ونهبوا وطردوا وقتلوا...[٩] وقطعوا أشجارًا معمّرة كالصنوبر والسنديان والعفص والتوت بعد أن أجبروا أصحابها على قطعها وإرسالها منشورة لخدمة مطابخ الجيش العثماني ووقود قطاراته العاملة بين بيروت ورياق وحلب بدلاً من الفحم الحجري الذي انقطع وروده إلى الشواطئ اللبنانية بسبب الحصار البحري الذي فرضه الحلفاء على البحر المتوسط. لذا بثّ الأتراك عمّالهم وعملاءهم في قسم من غابات لبنان الجميلة فعملت فؤُوسهم فيها، شاء أصحاب الأحراج أم أبوا، بثمن أو بغير ثمن، ما شكّل ضررًا على غابات لبنان. وعمِل حليم لحود بقطع الأشجار في أملاك

٨) لحد خاطر: مذكرات لحد خاطر، ص ٢١٥.

٩) المرجع السابق، ص ٢١٥.

العائلة في بعبدات وعمل معه بشير نصّار قرباني وابنه نكد وقدّموها قطعًا منشورة للدولة العثمانية [10].

٣. الوضع البلدي والإجراءات المحلية في بعبدات خلال الحرب

نتيجةُ تقرّب نسيب جريس لحود ونعيم صوايا من رضا باشا، كرَّست مشيخة نسيب لحود على بعبدات نيابة عن أخيه نصري الموجود في تركيا، وأصبح مرجعًا لدى المجلس العرفي في عاليه حول بعض اتّهامات موجّهة إلى بعض البعبداتيين من أصحاب الرسائل مع المغتربين وقدحهم بالدولة العثمانية[11] فأنقذهم. ثم عُيّن رئيسًا لـ«قومسيون» بلدية بعبدات وتوابعها في عهد المتصرّف علي منيف الذي خلَفَ أوهانس باشا.

كان من مهام «القومسيون البلدي» تلبية أوامر المسؤولين الأتراك والسلطة السياسية في متصرّفية جبل لبنان، ومنها مراقبة المؤسّسات والأشخاص الأجانب وعدم إطْلاعهم على أيّة أوراق رسمية، والتكتّم التّام بالإفادة عن المواقع العسكرية وعن كل ما يتعلّق بالحرب الدائرة بين الأتراك وخصومهم، وضرورة اعتنائه بالأمور الصحية والشؤون الاجتماعية والسهر على ضبط الأسعار ومراقبتها، والاهتمام بدفن الفقراء من دون مقابل، وتقديم ألبسة وحطب وخبز للجيش وإعانات مالية وغيرها[12].

٤. صدور النقد الورقي وأثره على غلاء الأسعار والمعيشة

بعد دخول السلطنة العثمانية الحربَ العالمية الأولى، فرضَت في ١ كانون الثاني ١٩١٥ حظرًا على تصدير الذّهب والعملات، وأصدرت عملة ورقية ذات قيمة توازي النقود الذهبية والفضّية التي أصبحت

---

١٠) نصّار قرباني: ملحمة عمر، مخطوط ص ٢٥١.

١١) يقول نسيب لحود في رسالة وجّهها إلى المطران أغناطيوس مبارك دوّن فيها ملاحظاته حول «تاريخ بعبدات وأسرها» الصادر سنة ١٩٤٧، بأنّه طُلب من مجلس الحرب ليُحاكم أمامه على كذب ارتكبه ليخلص دير الكبوشيين من الاحتلال والتدمير شأن كلّ الأديرة بشهادة الشيخ خليل الخوري وابنه الشيخ بشاره (رئيس الجمهورية).

١٢) لم يسلم المجلس البلدي من معارضة تصدّرها الخوري يوسف كنج اللبكي باتّهام القومسيون، بعد أن قطع شجرتيّ العوسج والحور في حديقة الآباء الكبوشيين «بأنّهم جماعة بلا ضمير ولا وجدان». فسأله رئيس القومسيون عن قوله وطلب منه تعويضًا عن الاهانة.رسالة نسيب لحود إلى الخوري يوسف كنج اللبكي، السفيلا ١٥ أيلول ١٩١٧. و رسالة الأب يعقوب الكبوشي إلى الخوري يوسف كنج اللبكي في ٢٣ تشرين الأوّل سنة ١٩١٧، محفوظات جوزيف انطون لبكي.

الوحدة الحسابية المعتمدة، فبات على المواطنين تصريف أموالهم بالعملة الورقية لشراء المواد الغذائية والتّبادل التّجاري. وتوإلى إصدار العملة الورقية على دفعات حتّى ١٥ أيلول ١٩١٨. نتيجةً لذلك، أخذت أسعار العملة الورقية تتناقص ويتراجع سعر صرفها تراجعًا سريعًا، وتهرّب الناس من استخدامها لعدم ثقتهم بها، وانتشرت سوق سوداء للمتاجرة بالنقد أدّت إلى ارتفاع جنوني في أسعار الليرة الذهبية وانخفاض قيمة العملة الورقية ما أدّى إلى تضخّم مالي وتعرّض الناس للخسارة باضطرارهم إلى صرف قطع النقد الذهبية والفضّية فيخسرون من قيمة أموالهم. استمرّ الوضع المالي في الانهيار[١٣] وتابعت العملة انخفاضها مع ارتفاع الأسعار حتّى نهاية الحرب، فتدنّت قيمتها الشرائية في آخر سنة ١٩١٧ إلى العشرة بالمئة من أصل قيمتها. وفقدت في العام ١٩١٨ أكثر من ٩٠ بالمئة من قيمتها فأصبحت ستة قروش فعلية بدلاً من مئة غرش رسميًا، ما انعكس ارتفاعًا جنونيًا للأسعار، لاسيّما الحبوب، ما أدّى إلى ازدياد الجوع. ونشر أميل حبشي الأشقر لائحة أسعار الورق النقدي العثماني[١٤] في كتابه «جهاد لبنان واستشهاده». وحصل أن أسعار العملات المتداولة في السوق اللبنانية وحركة أسعار المنتوجات الزراعية الأساسية كالقمح والشعير وقيمة الأجور اليومية للعمّال في الأرياف اختلفت من منطقة إلى أخرى: مثلاً منطقة الشوف لم تشهد ارتفاع الأسعار كما في مناطق أخرى لقدرة الدروز في الشوف على التّواصل مع أبناء مذهبهم في جبل حوران وتمكّنهم من استيراد الحبوب[١٥].

لم نعثر إلاّ على إشارات قليلة حول الأسعار في بعبدات أثناء الحرب. لذا أسوق هنا بيانات عن سقوط الليرة العثمانية الورقية بشكل عام أثناء الحرب:

- سقطت في أوّل آذار ١٩١٥ إلى ٢١ غرشًا أي قيمة ريال مجيدي وأقلّ.

١٣) بشاره البواري: مذكرات جريس البواري عن أربع سني الحرب، ١٩١٤ – ١٩١٨، طبع على نفقة نعوم مكرزل – نيويورك، دار الهدى ١٩٢٦، ص ٤٥٩. وأميل حبشي الأشقر: «جهاد لبنان واستشهاده، مطبعة طبّاره، بيروت ١٩٢٠، ص ١١٤، ص ٤٥٩ ،وابراهيم كنعان: لبنان في الحرب العالمية الكبرى ص ٣٦٩.

١٤) أميل حبشي الأشقر: جهاد لبنان واستشهاده، ص ٥٦٥ – ٥٧٧.

١٥) للتوسّع راجع عبد الله سعيد: «تطوّر حركة الأسعار والأجور» في كتاب «لبنان في الحرب العالمية الأولى» الجزء الأوّل، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت سنة ٢٠١١ ص ٣٧٦. ونايل ابو شقرا: «الغلاء وأثره في محنة الحرب العالمية الأولى» في كتاب «لبنان في الحرب العالمية الأولى»، الجزء الأوّل، ص ١٧ – ٥٢.

- سنة ١٩١٦ سقط سعر الليرة العثمانية الذهب (وكانت تتراوح بين ١٢٤غ و ١٢٥غ) إلى مجيدي أي ٢٣ غرشًا ونصف، حتى لم يعُد للفقراء ولا لمتوسطي الحال واحد بالمئة من مؤونة أسبوع من الحنطة. ونفد المال من أيديهم فلم يعد من سبيل للدَّين. وتعاظمت شكوى الناس بقوّة في تموز ١٩١٦، ما عرّض قسمًا غير قليل للموت جوعًا، لأن أسعار الحنطة ارتفعت كثيرًا في ٢٧ تشرين الأوّل ١٩١٦[١٦]، فلجأ بعض التجّار إلى طحن الشعير وبعض الحبوب لبيعها. فضلاً عن أن ورق الكتابة بات نادرًا، وارتفع سعره جدًّا.

- سنة ١٩١٧ تراوح سعر رطل القمح بين ٣٧ غرشًا و٥٥ غرشًا. وبات سعر الطحين الخشن ٣ بشالك حجر و٧ صاغ ونصف، وسعر الذرة الصفراء عشرة صاغ ونصف ومثله الفول والحمّص. ولم تَعُد أجرة العامل طول النهار سوى بين ٥ غروش و٧ غروش[١٧]. وفي هذه السنة ذاتها ارتفع سعر الحنطة بسبب ابتياع ألمانيا حنطة البلاد بأثمان عجز اللبنانيون عن شرائها بمثل ما اشترته ألمانيا التي نقلت الحنطة من سوريا وحوران، وشحنَتْها برًّا بآلاف الشاحنات إلى ألمانيا فبلغ سعر الكيلو عشرين فرنكًا ذهبيًا[١٨].

- كان اللبنانيون، في عهد السلطنة العثمانية، يستعملون النقود التالية المعتمدة في المتصرفية[١٩]:

١٦) رسالة الأب أغناطيوس الحج الأنطوني إلى الأباتي لويس عبيد الأنطوني في ١٩١٩/٦/١٥.

١٧) مفكرة منصور نجم لبكي لسنة ١٩١٧، في ٢٨ حزيران ١٩١٧.

١٨) لطف الله نصر البكاسيني: نبذة عن وقائع الحرب الكونية، مطبعة الاجتهاد، بيروت ١٩٢٢، ص ٣٦١، وابرهيم كنعان: لبنان في الحرب الكبرى، بيروت ١٩٧٤، طبعة ثانية، ص ٣٧٠ – ٣٧١، وأميل حبشي الأشقر: جهاد لبنان واستشهاده، ص ١٢٤ – ١٢٧،
إذ ذكر الأب أغناطيوس الحج الأنطوني أن الأسعار ارتفعت بشكل جنوني بعد سنة ١٩١٦، فأصبح رطل الحنطة بـ ٦٠ غرشًا والأرز بـ ١٢٠ غرشًا والبطاطا ب، ٣٠٠ غرش والسكر ب ٢٢٠غ والبصل بـ ٢٥غ.

١٩) يوسف عماد: الجامعة القرقمازية وتاريخها في حلّها وترحالها، الجزء الأوّل، بيروت ١٩٧٣، ص ٣٠٦، ومقابلة أجراها الدكتور جوزف لبكي مع الاقتصادي التّاجر الياس غندور من بعبدات، والأب سركيس الطبر والخوري مارون صايغ، مذكرات ابرهيم الياس كرم عن الحرب العالميّة الأولى، ص ٧٢.

- البشلك = ٣ غروش و٥ بارات في بيروت. البشلك وحدة نقد عثمانية صغيرة مصكوكة من النحاس الأحمر. كانت قبل الحرب قرشين ونصف أو ١٠٠ بارة صاغ.
- البشلك = ٣ غروش و١٠ بارات في زحلة.
- البرغوت = غرشان ونصف.
- نصف برغوت = غرش وربع.
- الزهراوي = ٦ غروش أي بشلكين أي نصف مجيدي وهي قطعة نقود فضية.
- المتليك = كل ٤ متاليك تساوي غرشًا وربع والمتليك يعادل ربع قرش تركي. وهو قطعة نقدية تساوي خمس نحاسات وهي أصغر العملات الحجرية وكان لها قيمة شرائية.
- المجيدي في بيروت = ٢٣ غرشًا وربع.
- المجيدي في زحلة = ٢٧ غرشًا.
- القرش قطعة نقدية صغيرة من النحاس الأصفر مثقوبة عند طرفها، يساوي أربعين بارة. وكانت أجرة العامل قديمًا تُدفع به، وكذلك الضرائب التي كانت تحدّد على أساسه.
- الليرة العثمانية: قطعة نقدية من ذهب، انتشر تداولها أيّام الحكم العثماني. كانت تساوي مجيديين ونصف مجيدي. والليرة العثمانية هي نسبة لآل عثمان حكّام تركيا وهي تساوي مئة غرش صاغ.
- الزلطة تساوي ٣,٤ قرشًا.
- البارة عملة تركية صغيرة تساوي جزءًا من أربعين من القرش التركي وكانت الضرائب تحدّد بها.
- عرض حاتم سليمان في أطروحته لائحة بالأسعار عامي ١٩١٧ و١٩١٨ كما وردت في أوراق يوسف نادر الريّس مختار قرية حملايا المتنية[٢٠].

---

٢٠) أوراق يوسف نادر الريّس مختار حملايا، نقلاً من حاتم سليمان: دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لقاطع بكفيا ١٨٦٠ – ١٩٢٠، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة الروح القدس – الكسليك، قسم التاريخ سنة ١٩٨٢.

وبلغت الفائدة حدًّا موجِعًا وصل حتّى ثلاثماية بالمائة إذ كان الناس يستدينون الورقة أو الليرة الورقية بقيمة ١٢٥ غرشًا ويصرفونها أو يقبضها التجّار منهم بقيمة ٢٠ إلى ٣٠ غرشًا حجرًا عدا الفائدة. والبعض كانوا يستدينون الورقة بـ ١٥٠ إلى ٢٥٠ غرشًا ليسدّوا جوعهم[٢١].

وانت نكبة البلاد بهذا النقد مزدوجة: أضاع جزءًا كبيرًا من ثروة اللبنانيين وأحدث ركودًا في حركة البيع والشراء لأنّ الناس كانوا يتهرّبون من قبضه ويرفضون التّعامل به، ويفضّلون أن يحتفظوا بما عندهم من بضائع وغلال بدلاً من بيعها بأوراق بنكنوت صادرة عن دولة مرهَقة بنفقات الحرب الباهظة[٢٢]. وزاد الأزمة المالية سوءًا فقدانُ القطع النقدية الصغيرة (بشلك، برغوث، مجيدي، متليك، زهراوي، وغيرها) فتعذّر على المواطنين تسديد قيمة الأعمال والأشياء الصغيرة من إجرة فلّاح أو عامل أو ثمن طابع بريدي، وسلع زهيدة الثمن.

٥. الحصار

أعلنت السلطنة العثمانية دخولها الحرب رسميًا إلى جانب ألمانيا ضد الحلفاء في ٣ تشرين الثاني ١٩١٤، فاتّخذ الأسطولان البريطاني والفرنسي قاعدة دوارعهما في ميناء بور سعيد (مصر) وراحا يقومان بجولات استطلاع ويراقبان الحركة البحرية، فيصادران الزوارق والبوارج والمراكب المشحونة مؤونة للجيش العثماني، ويقصفون بعضها وبعض المواقع والمرافئ لمنع وصول المؤن إلى الجيش العثماني. وفي أواخر آب ١٩١٥ احتلّ الأسطول الفرنسي جزيرة أرواد وباتت له قاعدة بحرية جديدة إلى جانب بور سعيد، فراح الفرنسيون يقودون عملياتهم منها[٢٣]. وفرضوا حصارًا[٢٤] على جميع الموانئ والشواطئ العثمانية اعتبارًا من ٢٨ آب ١٩١٥، ما فاقم أزمة الحبوب لوقوف المراكب الشراعية مجمّدة لا تستطيع نقل المواد الغذائية من مكان إلى آخر. وكذلك امتنع صيّادو

---

٢١) المرجع السابق.

٢٢) بشاره البواري: مذكرات جرجس البواري عن أربع سني الحرب من سنة ١٩١٤ – ١٩١٨، ص ٤٥٩.

٢٣) بشاره جرجس البواري: مذكرات بشاره جرجس البواري من ص ١٢ - ٤٥

٢٤) للتوسّع حول الحصار البحري، راجع كتاب مئة عام على الحرب الكبرى، ١٩١٤ – ٢٠١٤، الجزء الثاني، من ص ٤ – ١٥ ، مقال لانطوان الحكيّم بعنوان: أسبابه – أهدافه - تطبيقه

الأسماك من التوغّل والاكتفاء باليسير من صيدهم من ضمن المنطقة المحدّدة لهم[٢٥].

في المقابل: شدّد الجيش العثماني الرقابة على السواحل والشواطىء لمنع أي اتّصال بين المواطنين المحليين وقوات الحلفاء البحرية التي كانت قواربهم ودوارعهم تقترب من الشواطىء والمدن والسواحل. هكذا أصبح لبنان يعيش بين سدّان الحلفاء ومطرقة الأتراك.

كان لهذا الحصار تأثير سلبي عميق على اقتصاد متصرّفيّة جبل لبنان، وعلى حجب أموال المهاجرين إلى ذويهم في لبنان، عدا مساعدات سرّية وصلت إلى اللبنانيين عبر الجمعيات الأميركية وعبر جزيرة أرواد عن طريق الفرنسيين. وانسدّت كليًّا منافذ إنتاج الحرير وتصديره بشكل كامل فانهارت مداخيل أصحاب بساتين التوت ومربّي دودة القزّ وأصحاب معامل غزل الحرير وعمّالها وعائلاتهم ومداخيل تجّار الحرير، فسقط هذا القطاع بأكثر من ٩٠٪ من انتاجه، وحرم السكّان والمزارعون والعمّال وأكثرهم من النساء، من القسم الأهم من مداخيلهم[٢٦].

ومن جهة ثانية توقّف تصدير الصناعات من لبنان إلى الخارج، ومُنع استيراد المواد الأوّلية، فضُربت قدرته الاقتصادية وتحطّمت مقاومته السياسية والعسكرية، فدفع ثمن موقفه وموقعه الاستراتيجي في الحرب العالمية الأولى، فكلما زادت الجرائد الفرنسية حديثها عن الواقع المأساوي في لبنان، كان يشتد ضغط الأتراك عليه دون قدرة الدول الحليفة أن تقدّم له مساعدة أو عونًا اقتصاديًا أو عسكريًا[٢٧].

٦. المجاعة في بعبدات[٢٨]

كانت الطبقة الفقيرة هي الأكثر عرضة للموت في بعبدات. واضطرت الطبقة الوسطى إلى بيع ما تملكه من منقول وثابت. ونفدَ من المجاعة

٢٥) ابرهيم كنعان: لبنان في الحرب الكبرى، ص ٣٣٩، وأميل حبشي الأشقر: جهاد لبنان واستشهاده، ص ٧٠.

٢٦) بطرس لبكي: تأثير الحرب العالمية الأولى على قطاع الحرير في كتاب «لبنان في الحرب العالمية الأولى»، ص ٦٦٧ — ٦٧٠.

٢٧) بشاره البواري: مذكرات أربع سني الحرب من ١٩١٤ — ١٩١٨، ص ٢٥٩

٢٨) للاستزادة عن تفاصيل أدق عن المجاعة في بعبدات وعن حكاياتها المؤثرة راجع: اليان وجوزف لبكي: بعبدات في الحرب العالمية الاولى ١٩١٤-١٩١٨، كتاب قيد الطبع، ٢٠١٩.

والموت الأغنياء وأصحاب الأملاك الزراعية والثروات وأصحاب القوى البدنية، لكن بعضهم أصابته الأمراض.

إشترى الغني رزق الفقير وبيوته بمبلغ زهيد أو بكمية قليلة من الطحين لا تغْني عن جوع، أو أدانه ليرة فاسترجعها بفائدة تتجاوز ٣٥٪[٢٩]، ورهن الفقراء بيوتهم[٣٠] ونحاسياتهم ومصاغاتهم وخواتم الزواج، وبعضهم اشترى رطل القمح بأسعارٍ خيالية. وكان في البعبداتيين من كان يأخذ شراشف ومخدّات ولحفًا ومنسوجات وأغراضًا ثمينة إلى البقاع وحوران وغيرها ليشتروا بها الطحين أو القمح[٣١]. وأكل الكثيرون خبز الشعير والزؤان ومات قسمٌ منهم. ولجأ بعضهم إلى أكل حشيش الأرض وورق التوت (إذ توقفت تجارة الحرير) والبلوط بعد غليه أو تحميصه وأكلوا هررًا[٣٢] وبغالاً وكلابًا[٣٣] إذ ندُر وجود الدواب والماشية.

وكان النّاس يأكلون دون أن يشبعوا حتّى بات الشّعور بالشبع هاجسهم. وأخبرت بترونيلا ابنة الخوري نعمة اللّه الملكي أنّ إبهامها تضخّم بسبب مصّه باستمرار خلال الحرب لأنها كانت جائعة بشكل دائم[٣٤]. ويُروى أنّ أحد الجائعين هجم كالذئب على جثة جمل قرب أتون السفَيله (في أسفل بعبدات) وراح يقصّ من لحمه ويأكل بلهفة شديدة وأخذ منه مؤونة مدّة شهر.

وكان يأتي كلّ أربعة أو خمسة أيّام جنود أتراك إلى مختار بعبدات ليصادروا الخبز ويرغموه أن يؤمّن أرغفة للجنود الأتراك في دير مار اشعيا وبحنّس. ويُروى عن نكد بشير قرباني (كُلّف مع أحد البعبداتيين جمع الأرغفة المطلوبة ونقلها إلى مركز الجيش التركي في مار اشعيا لتسليمها

٢٩) حنا الخوري الملكي: مذكرات عن الحرب العالمية الأولى.

٣٠) فكّ البعض الرهنيات بعد الحرب، وأنكرها البعض الآخر رغم الأوراق الثبوتية التي قدّمها أصحاب الرهن. والواقع أنّ الدولة عفت عن بعض الالتزامات المحرّرة في الحرب الأولى وسقطت بمرور الزمن.

٣١) مقابلة أجراها الدكتور جوزف لبكي مع حكمت سليمان قرباني في ٢٠١٩/١/٦، نقلاً عن جدّه داود، وأخرى مع عبدو منعم شرباتي في ٢٠١٩/١/٢٤.

٣٢) رسالة من الاشمندريت مخايل ألوف من زحلة إلى الأباتي لويس عبيد في ١٩١٩/٥/٢١، ذكر أنّ بعض الناس أكلوا السنّور أي الهرّ البرّي.

٣٣) هذا ما أكّده لي بعض شيوخ القرية. مقابلة أجراها رجاء جوزف لبكي مع الياس فرج أبو ديوان. وحنا دعبول: رجل من لبنان، ص ٣٢، موسوعة من القصص النادرة المثيرة التي لم يقصّها إنسان حتى الآن، طُبع بالانكليزية، ونقله إلى العربية الأستاذ فيليب لويس داغر.

٣٤) مقابلة أجراها الدكتور جوزف لبكي مع بترونيلا ابنة الخوري نعمة اللّه الملكي.

لهم) أنْ بينما كان يمرّ مع رفيقه قرب بيت يوسف الفرّان الأصفر (كان يسكن مع أسرته من سبع بنات في الطابق الأرضي من بيت حنا سلهب - يملكه اليوم ورثة عبدو رزق اللّه شمعون)، فسمعا أنينًا محزنًا ومستمرًا سببه التضوّر من الجوع، فحنّ قلبهما وأعطيا البنات الجائعات خفية أرغفة كانا يحملانها إلى الجيش العثماني[٣٥].

نزح كثيرون من البعبداتيين، بينهم كريم حبيب قرباني الذي قصد الشام مع ولديه، توفي أحدهما على الطريق والآخر تاه، ومات هو إثر وصوله إلى دمشق[٣٦].

أحد شبّان البلدة قصد البقاع هربًا من الجوع، وعمل في فلاحة بستان من المشمش عند أحد الملاّكين، وكان يأكل المشمش مع بزره في أوّل النّهار فينتفخ بطنه، وينام في قبو يخصّ الملاّك ليقوم في الليل بعجن الطحين ويخبزه على تنكة كاز فيأكل رغيفًا فطيرًا أو محروقًا ولم يعرف الشبع.

ومن أخبار المجاعة ومشاهدها في بعبدات:

- لجوء الأولاد إلى البحث بين الأوساخ على حبّة شعير ليأكلوها[٣٧].
- ذكر منعم توما شرباتي بأنّ امرأة وُجدت ميّتة وطفلها ما زال حيًّا وكان يرضع من ثديها الميت[٣٨].
- مات كثيرون جوعًا وراء أبواب منازلهم، ولم تُكشف جثثهم إلاّ من الرائحة الكريهة وسط كثرة الذباب والبراغيث والأفاعي.
- مات ولدان جوعًا بعد أن أنشدا النشيد للقائد التركي إبان حفلة في المدرسة الوطنية اللبنانية (في شباط ١٩١٥).
- ظنّ البعض أن أناسًا ماتوا، إنّما تبيّن أنّهم أحياء سافروا.
- حصد الموت الجميع فلم يوفّر أصحاب القوّة البدنية ولا الأغنياء ولا متوسطي الحال، لأنّ مَن لم يمت جوعًا توفي بالأمراض لضعف مناعتهم.

---

٣٥) مقابلة أجراها الدكتور جوزف لبكي وابنه رجاء مع مع بشير نكد قرباني في سنة ٢٠١٨.

٣٦) مقابلة أجراها الدكتور جوزف لبكي مع حكمت قرباني في ٢٠١٩/١/٦، ووفق ما ذكرت لائحة الموتى.

٣٧) مقابلة أجراها الدكتور جوزف لبكي وابنه رجاء مع عبدو منعم شرباتي في ٢٠١٩/٢/٢٤.

٣٨) صوت الرعية، العدد ٤ – ٥، نشرة إعلامية شهرية دينية ثقافية إجتماعية تصدر عن بيت الشباب في بعبدات، مقابلة مع اللواء جميل لحود، ص ١٣.

- شملت الوفيّات العشرات، بينهم عائلات بكاملها أو بقي منها شخص أو اثنان كعائلة الزغبي المعروفة بآل الشبابي وكذلك عائلة الفرّان وغيرها. ومنهم من مات على الطريق ودفن حيث مات أو لم يُدفن. ومنهم من دُفن في مقبرة خاصة بالمجدورين أو في أرض سليخ أو الحرج وبدون كاهن ولا طقوس، وتحسّر البعض على فقدانهم أعزاء مجهولي المصير.
- كثيرون قبل وفاتهم أوصوا [٣٩] بأموالهم وأرزاقهم أمام المختار أو كاهن الرعية.
- طلب بعبداتيون من الأب يعقوب أن يبحث عن أشخاص في بيروت أو غيرها ليرهنوا أملاكهم عندهم، فأجابهم بأنّه «لا رواج الآن للرهن والبيع، إذ إنّ الأنظار تتجّه في هذه الأيام نحو حبّة القمح». وعُثر على رسائل بعبداتيين إلى ذويهم في الاغتراب لمساعدتهم بالمال أو لتسديد ديونهم.
- بعض الناس تزوّدوا بعرائس من التين أو من التين بدبس أو بالمجدرة أو بمأكول آخر مقابل كتُب باعوها وما زال بعضها بحوزة أحفاد من اشتراها[٤٠].
- لم يكفّ الأطفال الجياع عن البكاء طلبًا للطعام، في بعض الأولاد اللطفاء شاركوا أكلهم مع أطفال جائعين، وحجب شبانٌ والديهم قطعة من رغيف خبز.
- غالبًا ما كانت الناس تأكل أعشابًا مغلية أو شاورباء أو برغلاً أو بلّوطًا أو خرّوبًا. وكانت الأمّ توزّع الرغيف على أولادها وهم ينظرون إليها بحالة تدل على جوع مستمر. وكثيرون من النّاس لم يذوقوا شيئًا طُبخ على النّار مدّة سنتين. ولم يعد أحد يؤمّن أن يُرسل عجينه إلى الفرن وحبوبه إلى الطّاحون ما لم يحتط لذلك بكلّ ما لديه من وسائل لمنع الجّائعين عن طعامه عملاً بناموس تنازع البقاء. والويل لمن كان يحمل رغيفًا في يده لأنّه لا يعلم أي يد ستنتشل الرغيف. ولم يعد أحد يجرؤ أن يأكل علانية حتى تحيط به عشرات من الجياع ولا يستطيع دفعهم عن طعامه[٤١].

٣٩) وصية نعمان يوسف طنّوس في الملحق.

٤٠) مقابلة أجراها الدكتور جوزف لبكي وابنه رجاء مع عبدو منعم توما شرباتي في ٢٠١٩/٢/٢٤، ذكر أن والده منعم في طفولته أثناء الحرب العالمية الأولى، قدّم للمحتاجين عرائس من التين بدبس مقابل كتب لا زال يحتفظ بها. وكان جدّه ملاّكًا كبيرًا.

٤١) مقابلة أجراها الدكتور رجاء لبكي مع يوسف شاكر لبكي في ٧ آذار ٢٠٠٩ وأخرى مع الياس فرج ابو ديوان في ٢ تشرين الثاني ٢٠٠٨.

– كانت تضيءُ الأملَ مساعدات وإحاطة ورعاية ولطف وصلاة وابتهالات وتراتيل للفرج.

– فرغت منازل كثيرة من أهلها، وباتت أجسام نحيلة جدًّا، وارتدت نساء بعبدات ثيابًا سوداء حدادًا على موتاها طيلة الحرب، وراح الناس يتحدّثون بصوت منخفض متهدّج فيه الكثير من اليأس، باستثناء من يعلو صراخه فيصل إلى البعيد البعيد بقوله: «أنا جوعان... أنا جوعان»، ويشْكون أمرهم إلى الله: «يا ربّ، يا ربّ، أكلة عدس وأموت»[٤٢].

– لبست بعض النساء أحذية رجالية، لاسيما أثناء ذهابهن إلى البقاع والمناطق البعيدة لجلب الحنطة.

– كان بعض الناس يبقى شهرين دون استحمام لأن سعر الصابون كان مرتفعًا، والمتوفر من مال كان لشراء الخبز. وشعر الناس بتداعيات عدم النظافة التي تحتاج إلى صابون، الأغنياء كالفقراء. وأصبح سعر قطعة الصابون مرتفعًا جدًّا (بشلك و٤ متليكات سنة ١٩١٧). وكانت الصابونة أفخر هدية وضرورية جدًّا لتأمين النظافة ومكافحة القمل والبقّ التي تنقل الحمّى. ولم يعد بمقدور غالبية الناس الاستحمام ومال لونهم إلى السواد جرّاء الدخان والوسخ. ولم يجد بعضهم الماء الكافي للقيام بذلك، والبعض الآخر لم يكن يهتمّ ولعلّ شعور الانسان بالجوع يُفقده الأهمية لمظهره أو لمنزله. وكانت بعض النسوة إذا ما بقي لهنّ قطعة صابون يعطيهنّ إلى جارة فقيرة فتسعدها بها جدًّا. ولجأت النسوة إلى نقْع رماد الحطب بالماء لغسل الملابس[٤٣].

– ما كانت النار والاستنارة في الليل تهمّ الناس بقدر ما كان يهمّهم إشعال موقد صغير لفترة قصيرة من الوقت لأنّهم كانوا يخلدون إلى النوم باكرًا باعتباره الوسيلة الأفضل لمحاربة البرد والجوع. ولما ندرت علبة الكبريت اعتمد بعضهم لأجل التوفير على جمرات يشعلها جيرانهم أو يستخدمون الوسائل البدائية لإشعال النار، فيضعون بعض القش على قطعة صغيرة من القطن، ويبدأون بحك

---

٤٢) مقابلات أجراها الدكتور رجاء لبكي مع يوسف ماما لبكي في ١١ كانون الثاني ٢٠٠٩ ومع يوسف الياس بشاره في ٢ كانون الاول ٢٠٠٨.

٤٣) مقابلات أجراها الدكتور رجاء لبكي مع بشير نكد قرباني في ٤ تشرين الثاني ٢٠٠٨ ومع الياس فرج ابو ديوان في ٢ تشرين الثاني ٢٠٠٨ ومع داود بو ديوان في ١٩ تشرين الثاني ٢٠٠٨.

قطعة معدنية بقطعة حجرية لتنبعث منها الشرارات فتشعل النار في القش والقطن، فيسارع الجيران إلى أخذ شعلة صغيرة عندما يرون الدخان متصاعدًا. أمّا الأغنياء فكان بوسعهم شراء علبة الكبريت الواحدة بسعر مرتفع بشلكًا أو متليكًا لأنّه أصبح نادرًا جدًا. وكان الكثيرون من الأهالي يستنيرون بأنوار اللقش أو الزيت. وكان الفقراء ينامون في ظلام دامس، وكثيرًا ما كان المرضى (إذا ما أدنفوا ودخلوا في طور الاحتضار) يطوف أهلهم باحثين عن مصباح لينيروه قرب فراشهم في ساعاتهم الأخيرة، ويذهب من يستطيع لتشجيع المدنفين، ويذهب آخرون يستدعون الكاهن ليؤمّن لهم واجباتهم الدينية[٤٤].

- ارتفعت أسعار الزيت والملح لقلّة وجودهما، وكذلك الورق. وكان الناس ينتظرون أن تأتيهم المساعدات من أيّة جهة لاستمرار بقائهم أكثر ممّا كانوا ينتظرون انتصار الحلفاء، معتبرين أنّ كلّ تأخير في المساعدة من يوم إلى آخر يؤدّي إلى موت الكثيرين.
- ضعفت أعمال الرحمة سنة ١٩١٧ لتكاثر المحتاجين والضيق العام ما أدّى إلى تراخٍ في الروابط العائلية والاجتماعية وانصراف الناس للاهتمام بشؤونهم الخاصّة وسدّ جوعهم، ما دفع بعض الشباب إلى تشكيل عصابة «زمرة لصوص»[٤٥] لجأت إلى النهب والسلب شملت مفروشات وبياضات وأغراضًا مطبخية ولوازم غرف نوم ومنجور دير الآباء الكبوشيين وبعض الأغراض من السكرستيا والكنيسة، وإلى التعدّي على أشخاص. ويسلبون جهارًا دون خوف أو ملامة، ما شكّل خطرًا على المجتمع فطالب الأهلون بوضع حدّ للظلم، كما أكّد نسيب جريس لحود رئيس القومسيون البلدي ومختار بعبدات أنه «تعقّب الشقي والسارق والمغامر»[٤٦]. ويُروى أنّ بعض الذين أوكل إليهم أمن المحافظة على الأهالي هم مشتركون في أفعال العصابات الذميمة ومنشّطوها. وكانت قومندانية الدرك ساكتة

٤٤) مقابلات أجراها الدكتور رجاء لبكي مع بشير نكد قرباني في ٤ تشرين الثاني ٢٠٠٨ ومع الياس فرج ابو ديوان في ٢ تشرين الثاني ٢٠٠٨ ومع يوسف ضاهر طانيوس ملكي وزوجته سعاد في ٥ تموز ٢٠١٨.

٤٥) حنا الخوري الملكي: مذكرات.

٤٦) كتاب نسيب لحود إلى المطران أغناطيوس مبارك عدّد فيه مآثره في الحرب العالمية الأولى ومآخذه على كتاب تاريخ بعبدات وأسرها الصادر سنة ١٩٤٧، لواضعه الخوري نعمة الله الملكي الذي توفي سنة ١٩٣١، والذي نقله ونسّقه ولده حنا الخوري الملكي، الذي بدا فيه متجاهلاً لإنجازات نسيب جريس لحود.

متغاضية. وثمة أخبار كثيرة عمن زرعوا حقولهم بالقمح لاسيما في حقلة السودا سنة ١٩١٧ إذ عفّ عنها السارقون والجائعون.

وثمة أخبار ومرويات أخرى لشهود عيان بعبداتيين عن مآسٍ بسبب الجوع في الحرب العالمية الأولى، ومنها أشخاص وعائلات يمكن الاطّلاع عليها في كتابات وأرشيف الدكتور جوزف لبكي[٤٧]، منها:

- كان أحدهم قادمًا من البقاع إلى قريته الجبلية. وصل عند أوّل طريق ضهر البيدر فالتقى بامرأة يعرفها من قرية مجاورةٍ قريتَه ذاهبة إلى البقاع، ممسكةً بولدها ابن خمس سنوات وتحمل على كتفها ولدًا آخر ذا السنتين. وبعد السلام والسؤال، طلبت منه بعض الطعام فأعطاها ما تيسّر معه وتابع طريقه. ثمّ التقى بها بعد الحرب. سألها عن حالها وحال العائلة فأجابته بأنّها أحسّت بعدم قدرتها على الوصول مع ولديها فتركت الصغير لمصيره وأكملت طريقها مع الأكبر.
- في المجاعة كان الجدّ يُنيم حفيده معه في فراشه على الأرض ويغنّجه «يا خبزي ويا دبسي»، لندرة تلك الحاجيات الثمينة.
- استعان شاب بجار له لمساعدته في دفن أخيه. حمل الرجل عدّة الحفر، وحمل الأخ أخاه الميت وذهبا إلى مكان حفرا فيه ودفناه. لم يذرف الأخ دمعة على أخيه بل راح يطلب من اللّه إلحاقه به ليخلص من عيشته التعيسة. وجفّت الدموع من المآقي.
- من دلائل اليأس القاتل في بعبدات، أن مرضَ كهلٌ وراه صديقه الشاب قانطًا يائسًا من الحياة، فشدد من عزيمته وقوّى الأمل في نفسه وجبر خاطره ببعض ما تيسّر له من طعام. قال المريض: «لو بعرف إنّي بعد شهر بشتغل وباكل، كنت بعيش. لكن وين الشغل ووين الأكل؟ استر يا ابني عمّا شفت منّي بهالعمر وبخاطرك. إيامي صارت معدودة». ولم تمضِ عدّة أيام حتى قضى الرجل نتيجة اليأس والجوع. هكذا كان اليأس يفعل في الأجساد كالجوع، فأودى بكثيرين.
- كان العائدون إلى بعبدات من زحلة والبقاع يحملون القمح على ظهورهم مشيًا بعد مصادرة الجيش التركي جميع وسائل النقل، عدا أخطار ومصاعب كانوا يتعرّضون لها من اللصوص وقطّاع

---

٤٧) اليان وجوزف لبكي: بعبدات في الحرب العالمية الاولى ١٩١٤-١٩١٨، كتاب قيد الطبع، ٢٠١٩، وأرشيف الدكتور جوزف لبكي.

الطرق والوحوش الضارية والكلاب الجائعة والأمطار والبرد والحرّ، خصوصًا عند عبورهم السواقي والجداول والأنهر في موسم ذوبان ثلوج الجبال في الربيع. كانت الجسور خشبية، ومن يمرّ فوقها يدفع رسمًا، وكانت النساء يعبرن عليها، والرجال يعبرون في الماء معرّضين أنفسهم للهلاك، حتّى يوفّروا قسمًا من ثمن حاجياتهم.

– الخبر الذي ترك صداه في بعبدات كان عن امرأة اسمها زين تُدعى «أم السبعة» (كان لها سبعة أولاد ذكور عدا الإناث). هي أرملة حبيب نقولا اللبكي. عاشت مع زوجها عيشة متوسطة الحال، ثمّ سافر ابنها البكر نقولا مع إخوة له إلى الأرجنتين وحقّق نجاحًا كبيرًا في عمله بتجارة الصوف مع أوروبا[٤٨]. ثمّ عاد إلى لبنان يعيش مع أسرته ووالدته في بعبدات بغنى ويسر زائد. وزاحم آل لحود فبنى حارة قرميد فخمة أكبر وأعلى من حارتهم. ولا تزال حتى اليوم في أعالي القرية، جميلة الشكل، غرفها واسعة، فيها اثنتا عشرة قنطرة.



فندق Amado بناه نقولا حبيب نقولا لبكي في مدينة كالافاتي Calafate الأرجنتينية

كان نقولا مطبوعًا على حبّ المظاهر والتشاوف، ساعده على ذلك توفّرُ المال بين يديه. نفختْه روح الكبرياء والغرور حتّى ضُرب المثل بحبّه الجاه. كان يلبس فوق طقمه الغالي الثمن عباءة مقصّبة، ويحمل ساعة

٤٨) عمل نقولا وأخوته في تجارة الصوف بين أوروبا والأرجنتين. كانوا من مؤسسي مدينة كالافاتي Calafate الأرجنتينية. بنوا فيها أول فندق hotel Amado إذ كان يُطلق على نقولا لقب الدون أمادو Don Amado. عندما زار الباحث الدكتور رجاء لبكي مدينة الكلافاتي في تشرين الاول ٢٠١٩ زار الفندق وشاهد في متحف المدينة العربة التي كان يتاجر فيها نقولا الصوف مع أوروبا المشار اليها بـ El carruaje de don Amado.



حارة نقولا حبيب نقولا لبكي في بعبدات

جيب من الذهب وكذلك كَسْتَكُها، عدا الخواتم الذهبية في أصابعه. حتى زناره كان مطعّمًا بالذهب. اتخذ لقب «البَيْك». أسّس كرخانة حرير في الحازمية وتاجرَ بالشرانق والحرير. كان أوّل من اقتنى سيارة في متصرّفيّة جبل لبنان سنة ١٩١٣، وجاء برجل أَسود من الأرجنتين اسمه بترو ليقودها له، ثم أتى بخادم آخر له. أطلقوا عليها اسم «عربة النار». ولضعف الاتصال بين بيروت والجبل لم تذكُر الصحافة أن الأتراك صادروا سيارته أثناء الحرب. أكّدَ شيوخ القرية للدكتور جوزف لبكي ما كُتِبَ عن نقولا وأوّل سيارة في متصرّفيّة جبل لبنان، كما أكّد الخبرَ ابنُ شريكه البيروتي في معمل الحرير التاجر جميل حبّال (كان يملك محلاً في سوق أبو النصر). استأجر نقولا معملاً للحرير قرب بيت مري وسكن في جديدة المتن. خسر ماله في تلك التّجارة، وصحّ فيه قول المثل «ربْح الحرير للركْبِه وخسارتو للرقبِه». نوى الرجوع إلى الأرجنتين ولم ينجح لأن الحلفاء أغلقوا البحر. انقطعت الموارد الخارجية التي كانت تأتي من شقيقَيه. عاش الفقر والفاقة وتوفي في ٢٤ كانون الأوّل ١٩١٨ عن ٥١ سنة. والدتُه زين عضَّها الجوع فتركت بيتها الفخم في أعالي القرية، وأخذت تستعطي حتى لتلتقط كمية من بزر الخروب المنقوع من فضلات معصرة نكد بشير قرباني، تأْكله مع قليل من الزيت وعصير الحميضة كما فعل غيرها. استدعتْها أنيسة (زوجة صاحب المعصرة) وطيّبت خاطرها فأعطتها ما

قدّرها اللّه عليه من الدبس والزيت. لم تستطع زين مقاومة الجوع فماتت في ٢٨ شباط ١٩١٨ عن سبعين عامًا. لم يكن أحد من أولادها السبعة معها: ابنها نقولا تركها وعاش مع عائلته في الساحل، ابنها جريس توفي بالحمى والجوع، ابنها ميلاد توفي بداء الصدر ومن الجوع في ٢١ شباط ١٩١٦. ابناها طانيوس ونعمة اللّه غادرا إلى حوران. وهكذا تشتّت تلك العائلة الكبيرة بعدما عاش أفرادها متلاحمين متراصّين حتّى بعد هجرتهم إلى أن... فرّقتهم الحرب.

٧. انعكاس الحرب العالمية الاولى والمجاعة على الوضع المادي والحرفي والمهني في بعبدات

أ) حركة العمل والنشاط في بعبدات وخارجها أثناء الحرب العالمية الأولى

١. في الداخل

حركة العمل والنشاط لم تنقطع كلّيًا في البلدة بل بقي بعضها قائمًا ولو في حدّه الأدنى: فرط الصنوبر الذي عفا عنه الجراد وكان مجالاً لعمل البعض نظرًا لغنى بعبدات به، العمل في معصرة[٤٩] بشير نكد قرباني (في الطابق السفلي من منزله) لإنتاج دبس الخروب وزيت الزيتون، وكانت لها منفعة كبرى في الحرب الأولى لأنّ الخروب والزيتون عفا عنهما الجراد أيضًا ما جعل عائلات تملك من أشجارهما تستفيد من الدبس وتستعمله بدلاً عن السكّر الذي كان غالي الثمن إبّان الحرب، ومن بزر الخرنوب المنقوع، ومن الزيت الضروري للإنارة والأكل والاستفادة منه بصنع الصابون. واشتغل بشير نصّار قرباني وابنه نكد في قصِّ الصّنوبر ونشره لشركة سكّة الحديد العثمانيّة (كانوا يسمّونها «الكُبَّانية») ويتقاضون ثمنها رطلَ طحين مع جراية لكلّ منهما يوميًا. واستصلح بعض الملاّكين أراضيهم وكرومهم ولجأ بعضهم إلى احتفار آبار مياه، وإدارة معاصر دبس عنبيّ (أدار إحداها منصور نجم لبكي وعيد ضاهر لبكي ومارون الخوري لبكي في ٦ أيلول ١٩١٧)، وغيرها في مناطق متفرّقة. ومن استطاع عَمِل في فلاحة الأرض والزراعة وحصاد المحاصيل. وجرى طحن القمح في طواحين (تدور على المياه) دير مار موسى وفي نهر الجعماني وفي بكفيا.

٤٩) بقي العمل فيها بعد الحرب العالمية الثانية. أدارها نكد بشير قرباني وأولاده نصّار وجريس وبشير. وأقفلت في أربعينات القرن العشرين، جريس نكد قرباني: باقة زهر بتبقى دهر، ٢٠١٣، ص ٢٠٩.

واشتغل بعضهم في الأفران كداود حبيب قرباني الذي عمل خبّازًا في فرن الشدياق (قرب عين القرية) فاستطاع أن يُنقذ عائلته من الموت[50].

وبالرغم من توقّف النهضة العمرانية في المنازل والانشاءات والطرقات، تمَّ إنجازُ إصلاحات ضرورية تتعلّق بالشأن العام، كتنظيف أقنية ريّ مياه العرعار وعين القرية وإزالة ما يُعيق مجراها، فضلاً عن رشّ بعض المبيدات ومراقبة القومسيون البلدي تلك الأعمال.

حافظت بعبدات على نظام النطارة للمياه والأملاك العمومية والنطارة الصيفية للكروم، فعيّنت لكل من هذه المهام ناطورًا وفق الأصول والعادات المرعيَّة لكلّ منهما. كان عدد النواطير الصيفية للكروم سبعة يعملون في مناطق القشا والوادي والحقلة والجويق وغيرها، إنما توقَّفَ مشروع بناء خزّان لمياه العرعار مع أنه كان مقرّرًا. وعمل آخرون في تصنيع أدوات الفلاحة التقليدية وبعض المنجور. فضلاً عن بناء مشاحر كان يُباع فحمها أو يُصادر وقودًا لسكك الحديد. ونُشِرَ خشب الصنوبر قطَع سكك الحديد للجيش التركي، وقسم منه كان يذهب حطبًا للتدفئة وللمطبخ.

تجاريًّا، كان يُشرى الدخان من جوار الحوز، والتبن من المرج (قرب زحلة في البقاع)، والقمح من بتخنيه وقرنايل وزحلة وغيرها. وعمل ملحم زخيا شرباتي وفارس عويس الملكي في جديدة المتن – البوشرية ليحصل كلّ منهما على جراية في اليوم. واشتغلت فتيات خادمات لدى أناس في مصر وبيروت وأماكن أخرى. ونزح بعض البعبداتيين إلى مدن ومناطق كالبقاع فعملوا واستقرّوا هناك[51].

وكان البعض، كمنصور نجم لبكي، مشتركًا في جريدة «الشرق» بنصف ليرة عثمانية سنة ١٩١٧، دفعها عن طريق الدكتور توفيق سلهب[52].

---

٥٠) مقابلة أجراها الدكتور جوزف لبكي مع حكمت سليمان داود قرباني في ٢٠١٩/١/٦، وكان أفراد العائلة في الشتاء ينامون في غرفة الجنوبية من قبّة الفرن كي يستدفئوا.

٥١) مقابلة أجراها الدكتور جوزف لبكي مع ملحم زخيا شرباتي في سنة ١٩٧٧، وأخرى مع نبيل فارس عويس الملكي في ٢٠ شباط ٢٠١٩.

٥٢) مفكرة منصور نجم لبكي لسنة ١٩١٧. كانت «الشرق» صحيفة الحرب الرسمية الوحيدة التي أصدرها جمال باشا لخدمة الجامعة العثمانية والوحدة الاسلامية، صدر العدد الأوّل منها في ٢٧ نيسان ١٩١٦، وبقيت تصدر حتى قبيل انتهاء الحرب سنة ١٩١٨. صدر منها ٦٩٠عددًا. ، راجع جوزف الياس: الصحافتان اللبنانية والسورية في الحرب العالمية الأولى وتداعياتها، في كتاب أعمال مؤتمر الجمعية التاريخية اللبنانية، منشورات جامعة الروح القدس الكسليك ٢٠١٧، ص ٥٢٧. واستمرت جريدة «لسان الحال» البيروتية تصدر طيلة الحرب حتّى ١٩١٧.

وكان ميشال شبلي شعنين فتح مدرسة في منزله باسم مدرسة «العرين» بناء على طلب فارس غندور والد الياس، ومخايل يوسف نمر قرباني (أبو يوسف). فمُثّلت الروايات وأُلقيت الخطب وأُنشدت القصائد والأشعار والزجليات[٥٣]. وقام مخايل عقل لبكي (الكاهن فيما بعد) فأنشأ مدرسة سنة ١٩١٦ في منزله في بعبدات لتدريس من يرغب من أولاد بعبدات[٥٤]. وكان بوسطجي بين بيروت وبعبدات اسمه خليل عويس الملكي يستأجر حمارًا في تموز ١٩١٧ بربع ليرة ورق عن كلّ يوم. وكانت أجرة ناطور القشا في صيف ١٩١٧ ثماني ليرات وثلاثة أرباع الليرة، وأجرة ناطور الوادي طنّوس سلهب ٢٣ غرشًا عملة ورق، وكان غيرهم نواطير بينهم فاضل لبكي. وبقيت دكاكين صغيرة في البلدة تؤمّن بعض الحاجيات.

٢. في الخارج:

سافر بعبداتيون إلى طرسوس (تركيا) سنة ١٩١٤ بعد أن توسّط نصري جريس لحود المقيم في أضنه مع نخلة سعد من ساحل علما، وعمل قسم منهم في صناعة القطران[٥٥]، وآخرون عملوا في فبركة قطن لراسم بك وحنّا الدبّاس[٥٦]. وممن عملوا أيضًا أشخاص من بكفيا والمحيدثة وعين الخروبة وحملايا ووادي شاهين.

البعبداتيون كانوا: الياس غنطوس لبكي وزوجته دومينا، وعبدو منصور بشير قرباني، وفلّة ابنة فارس شبلي، ورشيده ابنة يوسف الشبابي، وحنا نيسان لبكي وأخوه حبشي، وطانيوس غنطوس لبكي، وفيليب فضول وزوجته نالي، وابراهيم صافي ووالدته مسيحية، وابرهيم وطانيوس ضاهر ملكي.

وكان الطبيب البعبداتي توفيق سلهب يعمل في الجيش التركي، وتعمل عنده روزين الياس يزبك، وكان هؤلاء المهاجرون يزورون الأنطش الماروني وكنيسة سيدة النجاة في طرسوس التّابعين للرهبانيّة الأنطونية.

---

٥٣) كتابات ميشال شبلي شعنين، مخطوط بعنوان «ذكرى الأجيال، تأريخ ميشال».

٥٤) وقد فرح الأب يعقوب بذاك في رسالة إلى الأب يوسف كنج في ٢٠ تشرين الأوّل ١٩١٧، بقوله «فرحت بما حصل عليه الأخ مخايل من الشغل، هذه تعزية له ولك ولي».

٥٥) مقابلة أجراها الدكتور جوزف لبكي مع القصّاب حبشي نيسان لبكي (المولود سنة ١٩٠٤) في ٨ آب ١٩٨٠.
القطران يُستخرج من شجر الطنوب والصنوبر ويستخدم بمكافحة الأمراض الجلدية خاصّة لدى الحيوانات، راجع في هذا المجال رجاء يوسف لبكي.

٥٦) يُذكر أنّ حنّا الدبّاس نقل فبركة القطن من مرسين إلى بيروت.

عُمر العمّال كان بدءًا من ثماني سنوات، وإجرة العامل، وفْقَ حبشي لبكي، ١٥ غرشًا في الأسبوع، وجراية رغيف ونصف كلّ يوم، وست واق لحم مرتين في الأسبوع. وكانوا ينامون في بيوت قرميد وعلى فُرش من قطن كانت تُصنع هناك حيث عمل حبشي.

البعبداتيون في تركيا لم يُعانوا الجوع كأهلهم في بعبدات. منهم من شكَرَ اللّه على ذهابه إلى هناك حيث المؤن مؤمّنة ولو بحدّها الأدنى، بينما كانت مفقودة في لبنان. ومن ماتوا هناك قضَوا بالمرض لاسيّما مرض الحمّى، منهم: فلّة فارس شبلي ورشيدة يوسف الشبابي والياس ودومينا غنطوس لبكي وعبدو منصور بشير قرباني، ونالي زوجة فيليب فضول سنة ١٩١٦[٥٧].

ب) الوضع الحرفي في بعبدات خلال الحرب وتأثير المجاعة عليه

لا إحصاءات دقيقة لوضع الحرف أو عدد الحرفيين قبل الحرب وخلالها وبعدها. هنا ما توصّلت اليه من مصادر ومراجع متوفرة عن أهمّ الحرف في بعبدات.

١. الزراعة

لا يمكن تمامًا إحصاء عدد الفلاحيين أو العاملين في الأرض، فمعظمهم كانوا يعتمدون على الزراعة وتربية الحيوان. سنكتفي بذكر عدد الفلاحين في بعض القرى. وفي إحصاءاتٍ بعد الحرب عن عدد الفلاحين في قرى مجاورة، يذكر الإحصاء الرسمي للمقيمين سنة ١٩٣٢ وجود ٧٤ فلاّحًا في بسكنتا[٥٨]، وفي سنة ١٩٢١ بلغ عدد الفلاحين في بكفيا ثلاثة[٥٩]، وفي المحيدثة كان فلاّح واحد[٦٠]. ولا أرقام رسمية دقيقة في بعبدات، إنما من مقابلات ومخطوطات يظهر أنّ العمل الزراعي والحيواني لم يتوقف رغم صعوبات طبيعية كالجراد والمواسم الصعبة والصعوبات الصحية كالأمراض وقلّة الغذاء التي أضعفت همّة الكثيرين من مثابرة الجهود والأعمال البدنية الصعبة والصعوبات اللوجستية بعد أن استولى الجيش العثماني على معظم المعدّات المفيدة له وغير المفيدة، وصعوبات الإفادة من المحصول إذا

---

٥٧) مقابلة أجراها الدكتور جوزف لبكي مع جريس الياس غنطوس لبكي في ٢ كانون الثاني ١٩٧٨.

٥٨) الإحصاء الرسمي للمقيمين وعدد العاملين في المهن في بسكنتا لسنة ١٩٣٢.

٥٩) الإحصاء الرسمي للمقيمين في بكفيا لسنة ١٩٢١.

٦٠) الإحصاء الرسمي للمقيمين في المحيدثة سنة ١٩٢١.

سَلِمَ من الجيش العثماني أو الجائعين والسارقين. ووصلَنا من لائحة وفيات الحرب العالمية الاولى[٦١] بعض الفلاحين إنما لا عدد دقيقًا لمن غابوا، لكن المسنيين الذين قابلتُهم أجمعوا على أنّ هذه الحرفة لم تتوقف خلال الحرب، ولو غالبًا مورست سرًّا، وأنّ نسبة الوفيات من الفلاحين خلال الحرب تراوحت بين ٢٠ و٣٠ في المئة من عدد الفلاحين الكامل. ومع نفوق الدواب والماشية أو مصادرتها، فقَدَ الفلاّح وسيلة عمله الأساسية فتوقّف الإنتاج. ولم يعِشْ في بعض الأرياف من الحيوانات سوى بضع نعجات أو بقرات أو عنزات وفّرت شيئًا من الحليب لأصحابها، فتمكّنوا من مساعدة أقاربهم بقليل من اللبنة بالاقتصاد منها[٦٢].

٢. البيطرة

لأن الحيوانات الأليفة كانت جزءًا أساسيًا من الحياة الزراعية والمعيشية، وُجد الخيل والبغال والحمير والماعز والغنم والبقر في معظم البيوت في كل المناطق اللبنانية. عرفت بعبدات نوعين من البيطريين: البيطار الثابت المداوم في مركزه، والبيطار الجوّال الذي يقصد المناطق الخالية من البياطرة. ورغم وجود بياطرة ثابتين في قلّة قرى متنية كبيت شباب والمحيدثة وبسكنتا، عرفت أكثرية القرى المتنية البياطرة الجوّالة[٦٣]. ولكنْ تراجع انتشار البيطريين الجوّالين خلال فترة الحرب لعدة أسباب منها خوف بعضهم من أن يُسرَقوا أو يُقتَلوا أو تُصادر عُدّتهم الحديدية وهي من المصادرات الأساسية المطلوبة من الجيش العثماني، ومنها صرفهم طاقة ولا زبائن خاصةً أنّ الكثير من مالكي الحيوانات خبّأوها وخافوا أن يفتضح أمرهم بتتبّع البيطرين الجوّالين. وفي بعبدات قلّما مرّ بيطريٌّ جوّال وحظي بنصيب، وخاصة أنّهم طالبوا بقمح أو غذاء كأجرة لم تكن متوفّرة. وفي بعض الحالات انتشرت البيطرة الـ«من قريبو»

٦١) اليان وجوزف لبكي: بعبدات في الحرب العالمية الاولى ١٩١٤-١٩١٨، كتاب قيد الطبع، ٢٠١٩.

٦٢) مقابلات أجراها الدكتور رجاء لبكي مع الياس فرج ابو ديوان في ٢ تشرين الثاني ٢٠٠٨ ومع نصري غصوب في ١٩ تشرين الثاني ٢٠٠٨.

٦٣) عرف المتن نوعين من البيطار: البيطار الثابت المداوم في مركز البيطرة خاصته، والبيطار الجوّال الذي يقصد المناطق الخالية من البياطرة. ورغم وجود بياطرة ثابتين في قلّة من القرى المتنية كبيت شباب والمحيدثة وبسكنتا، عرفت أكثرية القرى المتنية البياطرة الجوّالة. رجاء لبكي، مظاهر الحضارة المادية في تاريخ لبنان، دراسة إتنو تاريخية تراثية (المتن أنموذجًا)، أطروحة أعدت لنيل شهادة الدكتوراه اللبنانية في التاريخ، إشراف الأستاذ الدكتور أنطوان القسّيس، الجامعة اللبنانية، المعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية والإجتماعية، ٢٠١٥، ص ٤٨-٦٦.

(وصفها لي أحدهم) مارسها أصحاب المواشي أو أحد الموثوق فيهم وهم من غير المحترفين وعدّتهم ناقصة. لكن البيطريين الجوّالين استمروا يمرون في القرية ولو بوتيرة قليلة[٦٤]. وفي مفكّرة منصور نجم لبكي الخاصة سنة ١٩١٧ أنّ أجرة بيطرة البقرة عشرة قروش ورق[٦٥]، والأرجح أنّها أجرة البيطريّ الجوّال المحترف.

بعد الحرب، عادت الأمور عادية. اشتهر البيطار الجوّال أسعد الشبابي من بيت شباب، وكان يمرّ في بعبدات، وأورث المهنة إلى ابنه يوسف[٦٦] فاشتهر في بعبدات أربعينات وخمسينات القرن العشرين. واشتهر البيطار مجيد نعيمه من قرية القصيبة. وسنة ١٩٢٠ بلغَت أجرة البيطرة ١٥ قرشًا إذا لم يستعمل البيطار نضوات جديدة، وإلاّ ترتفع الأجرة إلى ٣٥ قرشًا[٦٧]. وسنة ١٩٣٢ أصبحت كلفة البيطرة ٦٥ غرشًا[٦٨]. وفي سنة ١٩٤٥، كانت أجرة بيطرة البقرة ٤ ليرات مع ثمن حدواتها، وأجرة بيطرة الحصان والبغل خمس ليرات مع نضواتهما[٦٩].

٣. النجارة

لم تتوقّف حرفة النجارة في بعبدات خلال الحرب، لكن هدفها تغيّر إذ أصبح العثمانيون يضغطون على النجّارين لقصّ الصنوبر ونشره لشركة سكّة الحديد العثمانيّة التي كانوا يسمّونها «الكُبَّانية» ويتقاضون ثمنها رطل طحين مع جراية لكلّ منهما يوميًا. وإذا بقي منها كان جزءًا صغيرًا لتأمين الحطب للتدفئة وللمطبخ[٧٠].

٦٤) مقابلة أجراها الدكتور رجاء لبكي مع الياس فرج ابو ديوان في ٢ تشرين الثاني ٢٠٠٨.

٦٥) مفكرة منصور نجم لبكي لسنة ١٩١٧.

٦٦) مقابلة أجراها الدكتور رجاء لبكي مع الدكتور أنطون يوسف البيطار في منزله في بيت شباب بتاريخ ١٣ تشرين الثاني ٢٠١٤. والدكتو أنطون البيطار هو ابن يوسف البيطار الذي وُلد سنة ١٩٠٠، وأُصيب بفالج سنة ١٩٦٠ أقعده عن العمل، ثم توفي سنة ١٩٧١.

٦٧) حنّا خوري، (٢٠٠٢)، **البيطرة من زمن العز إلى الإنقراض**، تراث، حرف لبنانية إلى زوال، مجلة المناطق، السنة الثانية، العدد خامس، شتاء ٢٠٠٢، ص ٧٦.

٦٨) نصّار قرباني، مخطوط.

٦٩) مقابلة أجراها الدكتور رجاء لبكي مع الدكتور أنطون يوسف البيطار في منزله في بيت شباب بتاريخ ١٣ تشرين الثاني ٢٠١٤.

٧٠) مقابلات أجراها الدكتور رجاء لبكي مع بشير نكد قرباني ومع أخوه جريس نكد قرباني في ٤ تشرين الثاني ٢٠٠٨ وفي تواريخ لاحقة.

كان أبرز النجّارين بشير نصّار قرباني وابنه نكد. نشطا في قصّ الصّنوبر ونشْره تحت ضغط العثمانيين، وحسدهما أحدهم فقال لهما: «نيالكُن شو صاير عليكم، أنا وولادي كلّ أسبوع منقطع صنوبر من أرزاقنا وما بلغ تمنها رطل من الطحين»[٧١]. وكانت الحرفية في نجارة الخشب تُحدّد الأسعار. ولم تنقطع في الحرب صناعة أدوات الفلاحة التقليدية وبعض المنجور كلّيًا وكان الأشهَر بشير ونكد قرباني.

٤. التبييض

كانت الأواني النحاسية موجودة في كل بيت لبناني، وجزءًا من جهاز العروس تتباهى بجهازها النحاسي من أطباق وأوانٍ. وفي بداية الحرب صادرت الدولة العثمانية نحاسيات المنازل في كل مناطق متصرفية جبل لبنان، ومنها بعبدات، لتذويبها واستخدامها رصاصًا للبنادق، فنجا ما أُخفي عنها. قلّ تجوّل المبيّضين في القرى، فصاحب النحاس المُخبَّأ يخاف افتضاح أمره. وفي المجاعة باع كثيرون نحاسهم، وحتى ذهبهم، فالهدف حصول على ما تأكله الأفواه وخاصةً الخبز ولو كانت التضحية على حساب ما له رمزية معنوية وعاطفية كبيرة كنحاسيات جهاز العرس[٧٢]. لذلك ندُر جدًّا تجوُّل المبيّضين لا بل عُدِمَ حسب ما ذكره لي المسنّون.

٥. الطبابة

عادت الأوبئة كثيفة في جبل لبنان. اختلف المؤرّخون في تاريخ ظهورها لكنّهم اتّفقوا على أنّها فتكت بالنّاس وانتشرت بكثرة بين ١٩١٦ و ١٩١٧. وكانت حمى التيفوس («الحمّى العسكرية») أخطرها فسبّبت وفيات كثيرة لاضطرار سكّان الجبل إلى التنقّل في المناطق البقاعية الداخلية فانتشر التيفوس، وبلغ جبل لبنان (في آذار ١٩١٦) بواسطة القمل[٧٣] الذي كان يعلق على ثيابهم لكثرة انتشاره. فكانت حمّى التيفوس الأكثر أذى وسببًا للموت.

---

٧١) نصّار قرباني: حياة مضطربة، ص ٩٩، مخطوط.

٧٢) رجاء لبكي، مظاهر الحضارة المادية في تاريخ لبنان، دراسة إتنو تاريخية تراثية (المتن أنموذجًا)، أطروحة أعدت لنيل شهادة الدكتوراه اللبنانية في التاريخ، إشراف الأستاذ الدكتور أنطوان القسّيس، الجامعة اللبنانية، المعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية والإجتماعية، ٢٠١٥، ص ١٥٣-١٥٧.

٧٣) أميل حبشي الأشقر: جهاد لبنان واستشهاده، ص ١١٢. القملة حيوان بحجم حبّة السمسم الصغيرة تعشعش في أيّ مكانٍ يوجد فيه شعر عند الانسان، ثمّ تنتشر في الجسم كلّه، فتأكل من جلده ما يكفيها. تُنزع من الشعر بواسطة مشط خاص. أما الصئبان فهي صغار القملة وهي تتملّك عادة في رؤوس الأولاد. كانت تُكافح بالكاز.

عُرفت بأنّها وباء التهابي مُعْدٍ يُصيب القطط والكلاب ويسبب حرارة مرتفعة وبقعًا جلدية حمراء التي تنزف أحيانًا، واضطرابات عصبية كما عند الإصابة بالتيفوئيد. يتمّ التلقيح للحماية منه. وكانت الحمّى تستولي على المصابين بها وتخبلهم فينهضون ليلاً ويهربون من أسرّتهم مذهولين، يسيرون في الحقول والبراري فتفترسهم الوحوش والضباع لقمة هيّنة، وقسم منهم يُفتقد. ومع آخر نيسان ١٩١٧ انتشرت حمّى التيفوس في بعبدات وقضت على كثيرين[٧٤]. وكانت تُعالج في حينه بالكينا تحت شكل أقراص وبالحقن وأملاح ونباتات الطبيّة.

ومن الأوبئة الأخرى التي عرفها لبنان حمّى الدّق Typhus murin التي تنتقل بالبق "La Puce"[٧٥]، وتعالَج بالـChloromycétine والتفلية بالـ D.D.T. والوقاية فتتمّ باللقاح. وفي نيسان ١٩١٥ ظهرت الحمّى التيفوئيدية: حالة مرضية تسبّب ارتفاعًا في حرارة الجسم فوق درجته المعتادة، وتتأتّى من مياه مكشوفة ملوّثة. وهي داءٌ معدٍ تُسمّى بِاسم مكتشفها Ebert، تصيب غشاوة الأمعاء ويُصاب فيها المريض بحالة خمود Tuphos، وحرارة عالية دورية، وبإسهال حادّ، واضطرابات عصبية وهذيان، ثمّ بظهور طفرة بقع زهرية على البطن. تتمّ معالجتها بالـChloromycétine، والوقاية منها تتمّ بالتلقيح. وانتشر مرض الملاريا بسبب الرطوبة ومستنقعات قريبة من الأنهار وبيوت غير معرّضة للشمس. وكان يُعالج بأقراص كينا، كما ذكر منصور نجم لبكي الذي عولج بالكينا عند مرضه[٧٦].

وانتشر مرض la tuberculose، والجدري la variole، وكان المجدور يُعزل في أماكن بعيدة، ومُنعت مخالطة المصابين بهذين المرضين، وصدرت تعليمات للحدّ من انتشارهما منها تطهير البيوت والأمكنة الموبوءة، وفرض التلقيح الإجباري. وحاولت مؤسّسات تأسيس هيئات صحيّة.

---

٧٤) مفكرة منصور نجم لبكي لسنة ١٩١٧.

٧٥) البقّ حيوان أكبر من حبّة العدس بقليل، فيه الكبير والصغير، لونه أسود مائل للأحمرار، تمتصّ دم النائم وهي مزعجة جدًّا، وتعيش في كلّ ثقب أو فسخٍ في البيت أو في الأثاث، يفوح منها رائحة كريهة جدًّا، وعندما يريد الناس تعيير إنسانًا ثقل دمه يقولون: «أثقل من دم البقّ».
وللتوسّع حول الجراد والأمراض والأسعار في جبل لبنان، راجع الدكتور فادي توّا، في كتاب مئة عام على الحرب الكبرى، الجزء الثاني، من ص ١٦ حتّى ص ٢٣.

٧٦) مفكرة منصور نجم لبكي لسنة ١٩١٧، في ٢٨ حزيران ١٩١٧.

وعرف لبنان في الحرب أمراضًا أخرى كالهواء الأصفر[٧٧] والتهاب سحايا الدّماغ والجَرَب ورَمَد العيون، لاسيّما عيون الأولاد، ومرض الزحار La dysantérie ومرض الزُهري الناتج عن المنكرات والفواحش.

تلك الأمراض تفشّت في جبل لبنان ولم تتوفّر لها الأدوية في الصيدليات التي صادرتها السلطنة العثمانية كما صادرت الأطباء وإجبارهم على تطبيب الجيش العثماني منذ بداية ١٩١٥[٧٨]، ومنهم الطبيب البعبداتي توفيق سليم سلهب: أُجبر على الذهاب إلى أضنة لتطبيب الجيش وكان فترتئذٍ الطبيب الوحيد في بعبدات. ولم يكن أي طبيب عربي له إلمام واسع بمعالجة الأمراض إلاّ الخوري يوسف كنج لبكي الذي كان يطالع الكتب الطبيّة ويصف العلاجات اللازمة كزيت الخروع (للمصابين بالحمّى)، ويداوي السعال بخليط من الدبس والنعنع. وأصبحت بعض النسوة «طبيبات» بوصف أعشاب وغلْيها وإعطائها للمرضى ومنها الخاتمية والزوفى والبابونج والنعنع البرّي والقصعين. وكان يُداوى وجع الأسنان بزيت القرنفل أو كبش القرنفل وما زال اعتمادها حتّى اليوم[٧٩]. أمّا الدّاية التي تولِّد النساء رغم قلّة المواليد في بعبدات، فكانت ألماز جريس شبل لبكي زوجة نخلة زيدان لبكي. ولم تكن الصيدليات متوفّرة في بعبدات ولا المستشفيات. وعند ضرورة المعالجة الملحّة، كان المرضى يقصدون مستشفًى تابعًا لجمعية «الفْرِنْدْس» بإدارة الدكتور طانيوس منسى، وآخرون قصدوا المستشفى الألماني في بيروت كمنصور نجم لبكي وغيره[٨٠].

٦. إنتاج الحرير

كانت صناعة الحرير هي الأهمّ في الاقتصاد الوطني حتى ١٩١٣. وكانت تفوق مداخيل سائر المهن حتى ٧٤٪ من حجم الدخل الوطني. إنما، بعد أنّ سُدّت منافذ إنتاج الحرير وتصديره بشكل كامل بسبب الحصار البحري، انهارت مداخيل أصحاب بساتين التوت ومربّي دودة القزّ

---

٧٧) أميل حبشي الأشقر: جهاد لبنان واستشهاده، ص ١١٢. انتشر هذا المرض بشكل واسع في تموز سنة ١٩١٦.

٧٨) ابرهيم حرفوش: مجريات الأب ابرهيم حرفوش، حقّقها وقدّم لها الأب أغناطيوس سعاده، منشورات الرسل، جونيه ٢٠٠٣، ص ٣٢، ولطف اللّه نصر البكاسيني: نبذة عن وقائع الحرب الكونية، ص ٣٣٩ – ٣٤٢.

٧٩) مقابلات أجراها الدكتور رجاء لبكي مع الياس فرج ابو ديوان في ٢ تشرين الثاني ٢٠٠٨ ومع بشير نكد قرباني ومع أخوه جريس نكد قرباني في ٤ تشرين الثاني ٢٠٠٨ وفي تواريخ لاحقة .

٨٠) مفكرة منصور نجم لبكي لسنة ١٩١٧، في ٢٨ حزيران ١٩١٧.

وأصحاب معامل غزل الحرير وعمّالها وعائلاتهم ومداخيل تجّار الحرير، فانهار هذا القطاع بأكثر من ٩٠٪ من إنتاجه، وحُرِم السكّان والمزارعون والعمّال وأكثرهم نساء، من القسم الأهم من مداخيلهم[٨١]. انعكس ذلك على معمل آل لحود في السفيلا (بعبدات) وكان دواليبه ٨٠ سنة ١٩١٢[٨٢]، ويعمل فيه ١١٥ عاملاً، فأقفل[٨٣]، كما باقي الكراخين في بعبدات ومنها التي يملكها آل لحود وبلغ عدد دواليبها ٦٦ دولابًا سنة ١٩١٢[٨٤]. وفي كتاب «تاريخ بعبدات وأسرها»[٨٥] أسماء أصحاب الكراخين أو من عمل في الحرير منها قبل الحرب ومنهم بعدها. توقّف العمل في الحرير توقف كليًّا في بعبدات والجوار، لكن تربية الشرانق وبزر القزّ وتجارتها بقيت متداولة بشكل قليل جدًا خلال الحرب العالمية الأولى. وفي تموز ١٩١٨ بلغ سعر اقة الشرانق في حملايا (قريبة من بعبدات) ٢٥٠ قرشًا ورقيًا ودرهم بزر القز ٥٥ قرشًا ورقيًا أو ١٨ قرشًا ذهبيًا[٨٦].

٧. السكافة

ضعُفت في بعبدات، وفي لبنان عمومًا، حرفة السكافة خلال الحرب وكانت الحرفية فيها آنذاك متأخّرة بالنسبة للأراضي التركية والأوروبية. ومع هرب الأرمن من المذابح والإضطهاد من تركيا إلى لبنان رغم تعاسة حال أهله، دخل إليه بعض مصلّحي اللاستيك الأرمن وكانوا يحترفون المهنة بجدارة عالية. امتهن بعضهم السكافة الجوّالة في السهول خلال الحرب ليؤمّنوا قوتهم ثم توسّعوا لينتشروا في كل أنحاء لبنان. جالوا

٨١) بطرس لبكي: تأثير الحرب العالمية الأولى على قطاع الحرير في كتاب «لبنان في الحرب العالمية الأولى»، ص ٦٦٧ – ٦٧٠.

٨٢) موريس شهاب، (١٩٦٨)، **دور الحرير في تاريخ لبنان**، ص ٥٦-٥٧.

٨٣) محفوظات نسيب جريس لحود صاحب معمل الحرير.

٨٤) موريس شهاب، (١٩٦٨)، **دور الحرير في تاريخ لبنان**، ص ٥٦-٥٧.

٨٥) الخوري نعمة الله الملكي، (١٩٤٧)، تاريخ بعبدات وأسرها، مطابع نصار، بيروت، ص ٢٣٦. ومن الذين عملوا في ميدان الحرير في بعبدات على الطريقة الغربية الحديثة كل من فارس توما الشرباتي والياس لحود وسمعان غطاس لبكي ومنصور ابو شبل لبكي وجريس انطون لبكي ويوسف فضول لبكي وحبيب نقولا لبكي وموسى مطر الشرباتي واسكندر فضول لبكي وناصيف الخوري واكد قرباني وجريس شعيا والفرنسي لويس كمباساديس.

٨٦) من أوراق يوسف نادر الريّس مختار حملايا، نقلاً من حاتم سليمان: دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لقاطع بكفيا ١٨٦٠ – ١٩٢٠، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة الروح القدس – الكسليك، قسم التاريخ سنة ١٩٨٢.

في القرى وأعادوا الحيوية إلى الحذاء المُنهَك، وحوّلوا جلده المهترئ فرعة لامعة. وكانوا ينادون بلكنة خاصة: «صلّح لاستيك»، وعرفت بعبدات منهم سليم الأرمني[٨٧]. ومن نتائج الحرب أن أصبحت حرفة الإسكافي أكثر حرفية وتطوّر بسبب دخول الأرمن وإدخال أساليب جديدة على المهنة.

ج) محاولة نسيب لحود فكّ أزمة النقود الصغيرة: ظاهرة طبع عملة محلية

أمام الواقع المالي والنقدي السيّئ اجترح نسيب جريس لحود (رئيس «القومسيون البلدي») حلًّا لفقدان قطع النقد الصغيرة، فأصدر «عملة ورقية» من كرتون أصفر أو أزرق بطول ٦ سنتم وعرض ٢ سنتم تقريبًا، في وسطها تحديد قيمتها بالقرش أو بالبشلك، ووقّع إمضاءه وختمه. ساعده في طباعتها شخص من آل زنتوت[٨٨]. لم تتجاوز الربع ليرة، ومنها أوراق ٥ قروش وبشلك وقرشين ونصف[٨٩]...

٥ غروش
الامضاء
نسيب لحود

اتّسع التّعامل بها من زحلة والمريجات إلى جسر الباشا في سن الفيل. وممن تعاملوا بها: التاجر الياس غندور وناصيف الياس طرّاف من بعبدات. وهي أشبه بالفراطة، بشلك، نصف بشلك[٩٠]. دفع نسيب لحود أجور العمّال والفعلة عنده بتلك العملة. فقبضها الناس وكأنّها صادرة عن بنك، لأنها موقّعة منه كما هي الليرة اليوم التي تعرّف بأنها شيك صادر من بنك الإصدار أو سند ممضي من نسيب لحود. ومن يملك من تلك الأوراق يستطيع أن يسترجع قيمتها من موقّعها. وهكذا «فكّ أزمة النقد بعد أن

٨٧) عرفت قرية بعبدات في سنة ١٩٣٥ خمس كندرجيين. سجل دفتر مختارية بعبدات لسنة ١٩٣٥، عدد ١٣١٦، ٣١ كانون الأول ١٩٣٥، ص٨٦.

٨٨) مقابلة أجراها الدكتور جوزف لبكي مع الياس ابو ديوان في ٢٠٠٤/٨/٢٦، وأخرى أسعد شربل قرباني في ٩ شباط ١٩٨٤، والمرجّح أن السيد زنتوت هو الذي كان يدرّس اللغة التركية في المدرسة الحكومية الرسمية في دير مار انطونيوس في بعبدات أثناء الحرب.

٨٩) مقابلة أجراها الدكتور جوزف لبكي مع الأب طوبيا الأشقر البرماني في ٧ حزيران ١٩٧٧.

٩٠) رسم تقريبي للعملة التي «أصدرها نسيب لحود على ورق كرتون»، تراوحت قيمتها بين خمسة قروش وقرشين ونصف وقد طبعها في معمل الحرير خاصّته في (السفيله).

راجت عملته الخاصة من بيروت إلى البقاع»[91]، وأمّن بعض النقص من النقود الصغيرة[92]، معتبرًا ذلك إنجازًا مهمًّا يُسجّل له.

وكان عند نسيب لحود جباة أو «حواليّة» لتحصيل ما له من ديون ومستحقّات دون مراجعة حاكم أو محكمة، فهذه النقود ديون خاصّة أشبه بسندات أو كمبيالات. وهي لم تكُن تُعتبر تزويرًا للنقود الورقية العثمانية فلم تشتبه بها السلطات الاستخبارية التركية رغم شراستها وتشدّدها، طالما أنّها صادرة عن شخص معروف ومليء ماليًا، وموالٍ لها، وكان يملك مع وإخوانه أراضيَ ومطحنة ومعملاً للحرير وقدرة ماليةً، وله موقع إداري يشمل مجموعة قرى في ضواحي بعبدات امتدت إلى المتنَين الشمالي والجنوبي، إذ كان آل لحود يملكون أراضيَ في بحالا وجورة أرصون وقرنايل، وكانت شخصية نسيب القوية ذات مهابة مؤثّرة، فكانت بادرته تلك دلالة على قدرته، وهو أفاد منها، ولم يُعترف بها بعد سقوط السلطنة العثمانية في لبنان فباتت لا قيمة لها[93]. ويبقى ذاك التدبير «علامة تاريخية» مهمّة، وفذلكة حلّ ذكي ساهم صاحبها ساهم بتسهيل أمور الناس في عزّ الأزمة الصعبة إبّان الحرب.

خاتمة

عاش اللبنانيون وطأة المجاعة بأسبابها المختلفة ونظام رعب أربع سنوات سبَّبت «دمار الأمّة اللبنانية» اقتصاديًّا وماديًّا وحرفيًّا ومهنيًّا وسياسيًّا. فالحرب العالمية الأولى «طحنت جبل لبنان بكلكلها وعركها أهله، لاسيّما المسيحيين، عرك الأديم بثفالها، وأفقدت ما يساوي ٩٠ ٪ من معاشهم واقتصادهم القانوني». ولم يبق لهم للقيام بأود حياتهم إلاّ القليل القليل منه[94]. ولم ينفع غالبيتَهم بيعُ حوائجهم أو ممتلكاتهم بأبخس الأثمان ليشتروا بها رطلاً أو رطلين من القمح أو الطحين، ما أذلّ النفوس وطأطأ الرؤوس.

٩١) رسالة نسيب لحود إلى المطران أغناطيوس مبارك ، ردًّا على ما ورد في كتاب «تاريخ بعبدات وأسرها» لناشره حنّا الخوري ملكي، سنة ١٩٤٧.

٩٢) Boutros Labaki: Introduction à l'histoire économique du Liban, Publication de l'Université libanaise, 1984, p.387.

٩٣) يذكر سامي الياس طرّاف لبكي بتاريخ ٢/١٠/٢٠٠٥، أنّه شاهد بقايا عملة نسيب لحود عند جدّته وقد أحرقتها فيما بعد لاعتبارها «ورق كدش».

٩٤) اسماعيل حقّي: لبنان مباحث علمية واجتماعية، الجزء ٢، ص ٥٥٤ – ٥٥٥.

كانت مجاعة طُبِّقت على مراحل ممنهَجَة منذ دخول الأتراك الحرب، وعمّ اليأس والشعور بأنّ الموت بات قريبًا ، فقبع الجائعون صامتين هزيلين لا يتكلّمون، وانعكس ذلك على أطفالهم وأولادهم حتّى لاحظ الناس بعد الحرب أن هؤلاء لا يجيدون التحدّث أو التكلّم كأنّهم ولدوا خرسًا. وكان الإنسان أينما سار يرى الموت أمامه.

هل قضت الحرب العالمية الاولى والمجاعة على النشاط المادي والحرفي والمهني؟

لا يمكننا اعتبار أنّ الحرب والمجاعة قضَتا على جميع الحرف والمهن، إنما تغيّرت وجهة قسم منها كالنجارة، وضعف العمل في حرف أخرى كالزراعة والبيطرة، وانعدم العمل في أخرى كإنتاج الحرير في الكراخين، ومورست بعض المهن الأساسية من غير الاختصاصيين بل من العالمين والخبراء كالطب بعد مصادرة الأتراك للأطباء.

الفرضيات صحيحة بمعظمها. فالمواد الأساسية التي بنيت على أساسها الحرَفُ انعدمت، كالحديد الذي صودر وهو مادة أساسية في أدوات الفلاحة والبيطرة والحدادة وغيرها. وانعدم شراء الحرير بسبب الحصار فغاب المدخول المادي الأكبر والأساسي في تحريك العجلة الإقتصادية وبقية المهن والحرف.

خاف الناس من العمل في العلن خوفَ سيطرة السلطات العثمانية على الانتاج. وكان موت عدد كبير من الحرفيين والمهنيين في المجاعة أو مصادرة السلطات العثمانية البعض لأعمال السخرة أرهق المهن والحرف وأضعفها ، إلى جانب قلّة التغذية، فتراجعت القوة البدنية والعمل. كان تأمين الرغيف هو الأولوية وكل شيء متاح للحصول عليه حتى بيع أثمن الأشياء الخاصة وبأسعار بخسة.

هكذا يكون هذا البحث أضاء على كوارث وأسباب ونتائج، وعلى التغيير المهني والحرفي فالإجتماعي الذي طرأ على المجتمع البعبداتي خاصةً، واللبناني عامةً، ويمكن اعتمادُهُ في دراسات مشابهة على قرى أخرى.

المصادر والمراجع والمحفوظات والمقابلات

١. المصادر:

- Ohannès Pacha Kouyoumdjian, Le Liban à la veille et au début de la guerre, Mémoires d’un gouvernement, 1913 – 1915, centre d’histoire arménienne contemporaine, Paris 2003.

- ابرهيم حرفوش: مجريات الأب ابرهيم حرفوش، حقّقها وقدّم لها الأب أغناطيوس سعاده، منشورات الرسل، جونيه.
- ابرهيم كنعان: لبنان في الحرب الكبرى، بيروت ١٩٧٤، طبعة ثانية.
- إسماعيل حقّي: مباحث علمية نظر فيه ووضع مقدمته وفهارسه فؤاد أفرام البستاني، منشورات الجامعة اللبنانية الجزء الثاني، ١٩٧٠.
- إميل يوسف حبشي: جهاد لبنان واستشهاده، مطبعة طبّاره، بيروت١٩٢٠.
- الأب أنطوان يمّين: لبنان في الحرب، المطبعة الأدبية، الجزء الأوّل، بيروت ١٩١٩.
- بشاره البواري: مذكرات جرجس البواري عن أربع سني الحرب من سنة ١٩١٤ – ١٩١٨، دار الهدى ١٩٢٦.
- جريدة البرق، العدد ٢٢١٩، ١٤ تشرين الثاني ١٩٢٤.
- لطف اللّٰه نصر البكاسيني: نبذة عن وقائع الحرب الكونية، مطبعة الاجتهاد، بيروت ١٩٢٢.

٢. المراجع:

- ابرهيم الأسود: دليل لبنان، طُبع في المطبعة العثمانية في بعبدا، ١٩٠٦.
- الخوري اسطفان ابرهيم الخوري: مجاعة أهالي جبل لبنان خلال الحرب الكونية الأولى ١٩١٤ – ١٩١٨، منشورات المركز الماروني للتوثيق والأبحاث، مطبعة شمالي وشمالي، طبعة أولى ٢٠١٦.
- أعمال مؤتمر الجمعية التاريخية اللبنانية: الشرق الأدنى في الحرب العالمية الأولى وتداعياتها، تنسيق وتقديم الدكتورة دعد أبو ملهب عطاللّٰه، منشورات الروح القدس، ٢٠١٧.
- أنطوان الحكيّم: لبنان في الحرب العالمية الأولى ومصير نظام البروتوكول في كتاب: لبنان في الحرب العالمية الأولى، الجزء الأوّل، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التّاريخية، بيروت ٢٠١١.
- أنطوان الحكيّم: من متصرّفيّة الجبل إلى دولة لبنان الكبير، ١٩١٤ – ١٩٢٠، الدار اللبنانية للنشر الجامعي، ٢٠١٨.
- بطرس لبكي: تأثير الحرب العالمية الأولى على قطاع الحرير في كتاب «لبنان في الحرب العالمية الأولى»، منشورات الجامعة اللبنانية ٢٠١١.

- تذكار يوبيل المدرسة الوطنية اللبنانية في بعبدات، لسنة ١٩٢٥، نشرته لجنة المنتدى الأدبي، مطبعة السلام، بيروت.
- الدكتور توفيق سلهب، المصحّات في لبنان، المطبعة الكاثوليكية، بيروت، ١٩٢٧.
- توفيق يوسف العوّاد: الرغيف، مكتبة لبنان، بيروت، الطبعة السادسة عشرة، ١٩٨٠.
- جريس نكد قرباني: باقة زهر بتبقى دهر، ٢٠١٣.
- جوزف الياس: الصحافتان اللبنانية والسورية في الحرب العالمية الأولى وتداعياتها، في كتاب أعمال مؤتمر الجمعية التاريخية اللبنانية، منشورات جامعة الروح القدس الكسليك ٢٠١٧.
- الدكتور جوزف انطون لبكي: أبونا يعقوب الحداد الغزيري الكبوشي، وثائق وحقائق، ١٨٧٥ – ١٩٥٤، دار الكرمة، ٢٠١٤.
- الدكتور جوزف انطون لبكي: يوسف حبيب عويس الملكي (الأب ليونار) حياته في بعبدات بين ١٨٨١ و ١٨٩٧، مطبعة كمبيوتايب، بعبدات ٢٠٠٥.
- الدكتور جوزف انطون لبكي: جريس حنا صالح البعبداتي، (الأب توما صالح)، حياته في بعبدات بين العام ١٨٧٩ و ١٨٩٧، مطبعة كمبيوتايب، بعبدات ٢٠٠٥.
- الدكتور جوزف انطون لبكي، بعبدات، كهنة، رهبان، راهبات، ١٦٦٢ – ٢٠٠٦، دار الكرمة، ٢٠٠٦.
- الدكتور جوزف انطون لبكي، مئة عام على الحضور الروحي والتعليمي والتربوي والثقافة في بعبدات، ١٩٠٦ – ٢٠٠٦، مطبعة شمالي وشمالي، ٢٠٠٦.
- حاتم سليمان: دراسة التاريخ الاجتماعي والاقتصادي لقاطع بكفيا ١٨٦٠ – ١٩٢٠، أطروحة دكتوراه في التاريخ، جامعة الروح القدس – الكسليك، قسم التاريخ سنة ١٩٨٢.
- حنّا دعبول: رجل من لبنان، موسوعة من القصص النادرة المثيرة التي لم يقصّها إنسان حتى الآن، وضع في الانكليزية، نقله إلى العربية الأستاذ فيليب لويس داغر، ١٩٧٤.
- خير المرّ: تاريخ زحلة السياسي، ١٨٦٠ – ١٩٢٠، زحلة، ٢٠٠٣.

- رجاء لبكي، مظاهر الحضارة المادية في تاريخ لبنان، دراسة إتنو تاريخية تراثية (المتن أنموذجًا)، أطروحة أعدت لنيل شهادة الدكتوراه اللبنانية في التاريخ، إشراف الأستاذ الدكتور أنطوان القسّيس، الجامعة اللبنانية، المعهد العالي للدكتوراه في الآداب والعلوم الإنسانية والإجتماعية، ٢٠١٥.
- الأب سركيس الطبر: مذكرات ابرهيم الياس كرم عن الحرب العالمية الأولى.
- طانيوس فارس نجيم: الموارنة من أعماق المعاناة إلى رجاء القيامة، المركز الماروني للتوثيق والأبحاث، شباط ٢٠١٨.
- عبد اللّه الملاح: هيمنة «جمال باشا على لبنان» ١٩١٤ – ١٩١٧، «مجلّة المسرّة»، العدد ٨٥٨، ٢٠٠٢.
- عبد اللّه الملاّح: البطريركية المارونية والفرمان العالي الشان، مجلة المنارة، العددان الأوّل والثاني، السنة ٢٦، ١٩٨٥.
- عبد اللّه الملاح: المتصرّف أوهانس باشا قيومجيان في جبل لبنان ١٩١٣-١٩١٥، في مجلة كرونوس، دراسات تاريخية تصدرها جامعة البلمند، العدد ٣٤، ٢٠١٦.
- عبد اللّه سعيد: «تطوّر حركة الأسعار والأجور» في كتاب «لبنان في الحرب العالمية الأولى» الجزء الأوّل، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت سنة ٢٠١١.
- د. عصام خليفه: مقاومة أهوال المجاعة، ١٩١٦ – ١٩١٨، طباعة دار صادر، ٢٠١٧.
- لحد خاطر: مذكرات لحد خاطر، دار لحد خاطر للطباعة والنشر، مطبعة شمالي وشمالي، طبعة أولى حزيران ٢٠١١.
- مئة عام على الحرب الكبرى ١٩١٤ – ٢٠١٤، السلام يا أهل الأرض،
- إشراف وتحرير جوزيف أبو نهرا ومنذر محمود جابر ونايل ابو شقرا، الجزء الثاني، بيبلوس ٢٠١٤.
- مجموعة محاضرين، لبنان في الحرب العالمية الأولى، الجزء الأوّل، جمعه ونسّقه د. أنطوان القسيس، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت ٢٠١١.
- مجموعة محاضرين: لبنان في الحرب العالمية الأولى، الجزء الثاني، منشورات الجامعة اللبنانية، ٢٠١١، مقال للدكتور الياس القطّار وآخر للدكتور جان نخّول.

- نايل أبو شقرا: الغلاء وأثره في محنة الحرب العالمية الأولى، في كتاب «لبنان في الحرب العالمية الأولى»، الجزء الأوّل، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، ٢٠١١.
- الخوري نعمة الله الملكي: تاريخ بعبدات وأسرها، مطابع نصّار، ١٩٤٧.
- يوسف انطون لبكي: بعبدات انتفاضة في تاريخ جبل لبنان، رسالة ماجستير، الجامعة اللبنانية، كلية الآداب، الفنار، ١٩٧٩.
- يوسف انطون لبكي، نعوم كسروان لبكي رجل فكر ودولة وإصلاح، ١٨٧٥ – ١٩٢٤، أطروحة دكتوراه دولة في التاريخ، جامعة القديس يوسف، بيروت، ١٩٨٤.
- يوسف مزهر: تاريخ لبنان العام، الجزء الثاني، لا تاريخ ولا مطبعة.
- يوسف عماد: الجامعة القرقمازية وتاريخها في حلّها وترحالها، الجزء الأوّل، بيروت، ١٩٧٣.
- Boutros Labaki: Introduction à l'histoire économique du Liban, Publication de l'Université Libanaise, 1984.
- Georges Samné: La Syrie, Editions Bossard, Paris, 1920.

٣. محفوظات:

- الأمر الصادر إلى وكيل شيخ صلح قرية بعبدات، محفوظات الأب يوسف كنج لبكي.
- الأمر الصادر بتشكيل «قومسيون بلدية بعبدات وتوابعها القومندونية»، بلوك قضاء، قائمقامية قضاء المتن، عدد ٦٦٥.
- أمر قائمقام المتن فايز شهاب إلى القومندان بلوك القضاء في ١٩ تشرين الأوّل ١٩١٧.
- أوراق مختار حملايا يوسف نادر الريّس.
- دفتر مختار حملايا يوسف نادر الريّس، رقم أ.
- بيان بعدد فقراء مزرعة السفيلا في ٢٩ أغسطس ١٩١٧.
- بيان بعدد فقراء بعبدات وتوابعها في ٢٩ آب ١٣٣٣ الموافق ١٩١٧.
- تقرير الأب برونو في مجلة أنا لكتا Analecta سنة ١٩٢١.
- تقرير الأب جيروم الكبوشي سنة ١٩١٩ عن الحرب العالمية الأولى.
- تقرير الأب ريمي الكبوشي دون تاريخ:

- Archives du père Yacoub durant la première guerre mondiale
- تقرير بالفرنسية من أرشيف رهبنة البزنسون بلا تاريخ ولا توقيت.
- توفيق انطون نجم لبكي: مدافن الطائفة اللاتينية في بعبدات، ١٩٧٤.
- حنا الخوري الملكي: مذكرات عن الحرب العالمية الأولى.
- رسالة الأب أغناطيوس الحج الأنطوني من قيتولي إلى الأباتي لويس عبيد الأنطوني في ١٩١٩/٦/١٥.
- رسالة الأب بونافنتورا البعبداتي الكبوشي إلى «أخي العزيز» الأب بولس لبكي الكبوشي في ١٩ أيّار ١٩١٩.
- Relation du Père Bonaventure au Père général, Beyrouth 1919, archives des pères capucins à Mteileb – Liban
- رسالة الأب يعقوب الكبوشي إلى الأب يوسف كنج في ٢٠ تشرين الأوّل ١٩١٧.
- رسالة الأب يعقوب الكبوشي إلى الخوري يوسف كنج لبكي في ٢٨ آذار ١٩١٧.
- رسالة الأب يعقوب الكبوشي إلى الخوري يوسف كنج اللبكي في ٢٣ تشرين الأوّل سنة ١٩١٧.
- رسالة من الاشمندريت مخايل ألوف من زحلة إلى الأباتي لويس عبيد في ١٩١٩/٥/٢١.
- رسالة نسيب لحود إلى المطران أغناطيوس مبارك حول أعماله في الحرب العالمية الأولى في بعبدات، ردًّا على ناشر كتاب «تاريخ بعبدات وأسرها» حنا الخوري الملكي، المطبوع سنة ١٩٤٧.
- رسالة نسيب لحود إلى الخوري يوسف كنج اللبكي، السفيلا ١٥ أيلول ١٩١٧.
- رسالة نعوم لبكي إلى جمال باشا في آذار ١٩١٦ بإسم منتحل أيوب صابر.
- رسالة ناصيف الخوري قرباني إلى الأب يوسف كنج لبكي.
- قرار المجلس البلدي في ١٦ أيلول ١٣٣٣ الموافق ١٩١٧.
- محضر جلسة القومسيون البلدي في أوّل تموز ١٣٣٣ الموافق ١٩١٧.
- محضر جلسة القومسيون البلدي في ٢٦ تموز ١٣٣٣ الموافق ١٩١٧ وقّعه نسيب لحود وعيد فرنسيس وحبيب أبي غنّام ومخايل نمر

(قرباني) ولحود نهرا (لبكي) وضاهر ملكون (ملكي).

- محفوظات بلدية بعبدات وتوابعها في ٢٩ تشرين الأوّل ١٩١٨.
- محفوظات نسيب جريس لحود صاحب معمل الحرير.
- مفكرة منصور نجم لبكي لسنة ١٩١٧، في ٢٧ حزيران ١٩١٧.
- محفوظات دير الآباء الكبوشيين في بعبدات.
- محفوظات الأب يوسف كنج لبكي.
- محفوظات خاصّة لمختار بعبدات نسيب جريس لحود.
- سجلاّت العماد والزواج والوفيات للطائفة اللاتينية في بعبدات.
- سجلاّت النفوس الرسمية في بكفيا.
- سجلاّت مختارية بعبدات بين ١٩٣٤ و ١٩٤٠.
- سجلاّت القومسيون البلدي في بعبدات وضواحيها.
- كتابات ميشال شبلي شعنين، مخطوط بعنوان «ذكرى الأجيال، تأريخ ميشال».
- نصّار قرباني: ملحمة عمر، مخطوط.
- نصّار قرباني: حياة مضطربة.
- نصري لحود، مخطوط من تسع صفحات محفوظ في دير مار روكز للرهبنة الأنطونية ضهر الحصين.
- بيان بعنوان «الأولاد الذين ينبغي دخولهم الميتم من بعبدات».
- محفوظات توفيق انطون نجم لبكي وولده رامز حول عائلات بعبدات في الاغتراب: أصول وأسماء وتواريخ هجرة.
- مرويات شعبية كثيرة ومتنوعة من أهل بعبدات وجوارها.
- تدوينات بأسماء موتى بعبدات في الحرب العالمية الأولى.
- اليان وجوزف لبكي: بعبدات في الحرب العالمية الاولى ١٩١٤-١٩١٨، كتاب قيد الطبع، ٢٠١٩.

٤. مقابلات أجراها الدكتور جوزف لبكي :

- الياس فارس غندور (١٨٩٣ – ١٩٨٧) في ١٩٨٣/٤/٢.
- أسعد شربل قرباني في ٩ شباط ١٩٨٤.

- الأب طوبيا الأشقر البرماني في ٧ حزيران ١٩٧٧.
- الياس ابو ديوان من السفيلة في ٢٠٠٤/٨/٢٦.
- بشير نكد قرباني في تواريخ مختلفة.
- جريس غنطوس لبكي في ٢ كانون الثاني ١٩٧٨.
- جريس لحود نهرا لبكي، أستاذ اللغة العربية في مدرسة الحكمة في بيروت (١٩٤٤ – ١٩٧٧) في ١٢ تشرين الأوّل ١٩٨٠.
- اللواء جميل لحود، ٢٥ نيسان ١٩٨٠.
- المؤرّخ جوزف نعمه سنة ١٩٧٧.
- حكمت سليمان قرباني في ٢٠١٩/٢/٦.
- حبشي نيسان لبكي في ٨ آب ١٩٨٠.
- سامي طرّاف لبكي بتاريخ ٢٠٠٥/١٠/٢.
- عبدو منعم توما شرباتي في ٢٠١٩/٢/٢٤.
- عبدو ميشال الخوري من القنابة سنة ١٩٨٠.
- فريدة منعم شرباتي سنة ١٩٨٠.
- ملحم زخيا شرباتي سنة ١٩٧٧.
- نصّار نكد قرباني سنة ١٩٨٤.
- يوسف رشيد لبكي سنة ١٩٨٠.
- يوسف سليم راشد في تشرين الثاني ١٩٧٩.

٥. مقابلات أجراها الدكتور رجاء لبكي :

- ميشال توما الشرباتي في منزله في قريته بعبدات (٥ تشرين الأول ٢٠٠٨).
- ميشال إبرهيم في منزله في قريته الخلّة (٥ آذار ٢٠١٠).
- داود بو ديوان في منزله في قريته (١٩ تشرين الأول ٢٠٠٨).
- جريس نكد قرباني في منزله في قريته بعبدات (٤ تشرين الأول و ١٤ كانون الأول ٢٠٠٨).
- بشير نكد قرباني في منزله في قريته بعبدات (٤ تشرين الأول و ١٤ كانون الأول ٢٠٠٨ ومقابلات أخرى).

- عبدو منعم توما الشرباتي من بعبدات، صاحب الطاحونة الأكمل في منطقة الوادي (١٢ تشرين الأول ٢٠٠٨ وفي تواريخ لاحقة مع زيارات ميدانية لمواقع) .
- نصري غصوب مختار القنّابة-بسفرين-الزاهرية (١٩ تشرين الأول ٢٠٠٨ مع زيارات ميدانية لمواقع)
- نعيم غصوب في منزله في قريته القنّابة (١٩ تشرين الأول ٢٠٠٨)
- طانيوس هولكيان في منزله في قريته القنّابة (في ١٥ حزيران ٢٠١٨)
- أستير وديع غصوب زوجة عبده طانيوس هاشم في منزل ابنها المختار طانيوس الهاشم في القنّابة (١٤ تموز ٢٠١٨) والدها كان مختار القنّابة-بسفرين-الزاهرية كذلك أخوها نصري.
- الياس فرج أبو ديوان ابن بعبدات في منزله في منطقة السفيله (٢ تشرين الثاني ٢٠٠٨ وفي تواريخ لاحقة)
- جورج عبود خليل لبكي من القنابة (٢٢ تشرين الثاني ٢٠٠٨)
- يوسف الياس بشارة في منزله في قريته بعبدات (٢٠ كانون الأول ٢٠٠٨)
- مخائيل الياس بشارة في منزله في قريته بعبدات (٢٠ كانون الأول ٢٠٠٨ وفي ٢٨ حزيران ٢٠١٨)
- سعدى الياس بشارة في منزله في قريته بعبدات (٢٠ كانون الأول ٢٠٠٨)
- روز الياس بشارة في منزله في قريته بعبدات (٢٠ كانون الأول ٢٠٠٨)
- جوزف نسيب بشير شختوره ابن مار شعيا-المزكّه في برمانا (١٧ تموز ٢٠١٨)
- توفيق نجم لبكي في منزله في قريته بعبدات (١٠ كانون الثاني ٢٠٠٨)
- يوسف ماما لبكي في منزله في قريته بعبدات (١١ كانون الثاني ٢٠٠٩)
- يوسف طانيوس ضاهر ملكي في منزله في قريته بعبدات (٢٣ حزيران ٢٠١٨ وفي ٥ تموز ٢٠١٨)
- سعاد زوجة يوسف طانيوس ضاهر ملكي في منزلها في بعبدات (٥ تموز ٢٠١٨)
- مخائيل الياس طرّاف لبكي في منزله في قريته بعبدات (١٧ كانون الثاني ٢٠٠٩ وفي تواريخ لاحقة)

- حنّا الياس طرّاف لبكي في منزله في قريته بعبدات (في ١٣ حزيران ٢٠١٨)
- يوسف شكري غانم في منزله في قريته بعبدات (٢١ كانون الأول ٢٠٠٨ وفي ١٢ حزيران ٢٠١٨)
- جميل شكري غانم في منزله ومحلّه في قريته بعبدات (٨ شباط ٢٠٠٩ وفي ١١ حزيران ٢٠١٨)
- يوسف شاكر لبكي في منزله في قريته بعبدات (٧ آذار ٢٠٠٩)
- جريس ملحم زخيا شرباتي في منزله في قريته بعبدات (في ١٩ تموز ٢٠١٨)
- نعمان جريس قرباني في منزله في قريته بعبدات (في ١٩ تموز ٢٠١٨)
- صباح سليمان قرباني مختار بعبدات (في ٢٦ حزيران ٢٠١٨)
- خليل وسهام يوسف رشيد لبكي (في ٢٦ حزيران ٢٠١٨)
- الأب منصور لبكي من بعبدات (في ٢٠ حزيران ٢٠١٨)
- ادوار بو فرح وابنه رئيس بلدية ضهر الصوان السابق لويس في منزله في ضهر الصوان (٢٠ أيار ٢٠١٨)
- الدكتور بطرس لبكي في منزله في بعبدات (٨ تموز ٢٠١٨)
- ماري ملكي زوجة النقيب طانيوس جرجس لبكي في منزلها في بعبدات (٩ نيسان ٢٠١٤)

Mirrors of Heritage

Refereed journal
published twice a year
by
The **Center for Lebanese Heritage (CLH)**
at
The **Lebanese American University (LAU)**

Henri Zoghaib – Editor

Issue No. 20 – Spring / Summer 2024

LAU President Dr. Michel Mawad: The LAU centennial launching
Lebanese proverbs: The vibrant face of life
Lebanese cities and villages in Arab geographic books
Hunger in Lebanon during WW1

3 SPECIAL SECTIONS:

1. Said Akl: 10 years later
2. Rahbani brothers and Fayrouz' Era
3. Centennial of Ameen Rihani's book "The Arab kings"

Center for Lebanese Heritage
Lebanese American University, Kraytem, Beirut – Lebanon

Phone: +961.1.78 64 64 (ext: 1600)
P.O. Box: 5053 13 Beirut – Lebanon
email: clh@lau.edu.lb

www.lau.edu.lb/centers-institutes/clh

Design and layout by STRATCOM – LAU

Covers: The three LAU centennial CLH events

Mirrors of Heritage



Issue No. 20 – Spring / Summer 2024

- **LAU President Dr. Michel Mawad: The LAU centennial launching**
- **Lebanese proverbs: The vibrant face of life**

3 Special sections

- **Said Akl: 10 years later**
- **Rahbani brothers and Fayrouz' era**
- **Centennial of Ameen Rihani's book "The Arab kings"**

1924 2024
LAU
INNOVATING
EMPOWERING
EVER-GIVING